تأملات في
الموعظة على الجبل



يوسف رياض

تأملات في

الموعظة على الجبل

يوسف رياض

١٩٩٩

محتويات الكتاب

تقديم الكتاب

موعظة المسيح من فوق الجبل هى أشهر موعظة قيلت أو سُمعَت على الإطلاق. ولقد أغرت هذه العظة ما لا يحصى من الكُتّاب المسيحيين ليكتبوا فيها. وهى لا زالت منجماً للكنوز، لم تفرغ محتوياته بعد، ولا زالت العظة تشجع الباحثين وتحفز المنقبين كي ما يحصل كل منهم على حصة لنفسه ولقرّائه، من كنوزها اللانهائية.

ولقد قدمت مادة هذا الكتاب فى البداية فى سلسلة خدمات أسبوعية خلال الثمانينات من القرن الحالى، فى البرنامج الإذاعى "خبز الحياة" الذى يُبثّ من سنوات عديدة، مقدماً، لكل المحتاجين، كلمة الله التى هى للإنسان أهم من الخبز اليومى، كما عبّر عن ذلك واحد من القديسين القدماء إذ قال «أكثر من فريضتى ذخرت كلام فيه» (أى٢٣:١٢). وهو نفس ما قاله الرب يسوع المسيح للشيطان فى البرية «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله» (مت٤:٤).

ثم قدمت نفس المادة مرة ثانية على هيئة مقالات مكتوبة فى المجلة الشهرية "المراعى الخضراء". ونظراً لاختلاف قراء المجلات المسيحية عادة عن جمهور المستمعين للإذاعة، فقد أُعيد صياغة المقالات مرة ثانية وأضيف إليها المزيد من الأفكار التى لم يكن من المناسب ذكرها فى البرنامج الإذاعى لاعتبارات مختلفة.

ثم طالب عدد من الإخوة أن تجمع هذه الأفكار لتقدم فى كتاب. وكان عليَّ أن أُعيد التنقيح مرة ثالثة، وأضيف المزيد من الأفكار التى لم ترد فى المجلة لاعتبارات وظروف النشر. وفى كل مرة اضطر للكتابة أو للبحث فى هذه العظة اعتبر نفسى مغبوطاً ومباركاً.

وأخيراً ظهر الكتاب فى هيئته الحالية. أقدمه مع صلواتى إلى الله أن يجعله سبب بركة حقيقية لكل من يقرأه، كما كان الحال مع الذى استخدمه الرب فى كتابته.

الإسكندرية
يناير ١٩٩٩

يوسف رياض

"فى موعظة المسيح من فوق الجبل يقدم المسيح المبادئ الإلهية للملكوت. يا للقداسة! يا للروحانية التى تشع منها! لكن أيضاً يا لملاءمتها لمكانها فى إنجيل يتعامل مع الأرض"[1].

(صموئيل ريداوت)

مقدمة

مت ٥ : ١ – ٢

- مقدمة العظة
- نظرات تحليلية لموعظة الجبل

١

مقــدمــة العــظـــة

"ولما رأى الجموع، صعد إلى الجبل؛ فلما جلس، تقدم إليه تلاميذه. ففتح فاه وعلّمهم قائلاً:"

(مت ٥: ١، ٢)

هـى أول عظة للرب سجلتها لنا البشائر الأربع، وأطول عظاته وأشهرها، بل أنها أشهر كل المواعظ قاطبة. وكأن الروح القدس قصد أن يقدم لنا فيها عينة من عظات ذلك المعلم العجيب الذى لم يتكلم إنسان قط مثله (يو٧: ٤٦) والذى طالما بُهتت الجموع من تعليمه (مت٧: ٢٨).

«عظة الجبل»

عُرفت هذه الموعظة، بالموعظة على الجبل* نظراً لأن الرب له المجد قالها من فوق أحد الجبال، ويرجح البعض أنه جبل تابور فى فلسطين. فالرب لم ينطق بها من فوق منبر قاعة كُبرى، ولا قالها فى ميدان عام، بعد أن قام بكتابتها - أو على الأقل إعداد نقاطها الأساسية - فى مكتب هادئ. كلا، بل يقول متى البشير فى فاتحة الأصحاح الخامس من بشارته «ولما رأى الجموع، صعد إلى *الجبل*. فلما جلس تقدم إليه تلاميذه. ففتح فاه وعلمهم قائلاً».

* هذا التعبير لم يرد فى الكتاب المقدس، وأول من استعمله هو القديس أغسطينوس فى القرن الخامس الميلادى.

وللجبال فى حياة سيدنا شأن كبير، فإليها كان يذهب المسيح ليقضى لياليه فى صلاة لله أبيه. ومنها كان يُلقى فى النهار مواعظه على مسامع الجموع المحتاجة إلى التغذى بأقوال نعمته. فما أعجب ذلك المجيد وما أشد تواضع ذاك الذى لم يكن له موضع فى المنزل عندما وُلد، ولا منبر ليتكلم منه عندما يعظ. ذاك الذى استكثر العالم عليه سريراً لينام عليه إن تعب، وكرسياً ليعظ من عليه إن خدم. بل وما أعجب برنامج ذلك الشخص المبارك: فى خلوته مع الله فوق الجبال كان يتلقى التعليمات إذ كان الله يوقظ له، كل صباح، أذناً ليسمع كالمتعلمين (إش٥٠:٤)، ثم فى لقائه مع الجموع فوق الجبل كان يعلم بالبر الكثيرين* (إش٥٣:١١).

لم تردهذه العظة إلا فى إنجيل متى وإنجيل لوقا. فمرقس، الذى يحدثنا عن المسيح كالخادم، مشغول بأعمال المسيح لا أقواله. لكن بينما ربط لوقا بين هذه العظة ودعوة الرسل الاثنى عشر، فإن متى قدم هذه العظة لتكون فى فاتحة خدمة الرب الجهارية، وأجّل موضوع اختيار الرسل لغاية أصحاح ١٠، حيث قدم هناك عظة أخرى هى عظة الإرسالية. أما عظة الويلات فأجّلها الرب لآخر خدمة الرب الجهارية (مت٢٣)، بينما لوقا ربط بين التطويبات والويلات فى تباين جميل كعادته.

وإن كان لوقا يسجل أن الموعظة قيلت من فوق «موضع سهل» (لو٦:١٧)، فهذا لا يعنى وادياً، بل موضع منبسط فوق الجبل. لكن متى الذى يحدّثنا عن المسيح كالملك يصوره لنا فوق جبل، ولوقا الذى يحدثنا عنه كالإنسان والصديق نجده فى موضع سهل مع تلاميذه، يخاطبهم حديثاً مباشراً قائلاً «طوباكم» (٦:٢٠-٣٠) بدل صيغة الغائب فى إنجيل متى٥:٣-١٠.

وفى إنجيل لوقا يذكر البشير أجزاء من هذه العظة قالها المسيح فى أماكن أخرى**، مما يجعلنا نفهم أن الرب كان يُعيد تعاليمه أكثر من مرة فى أكثر من مناسبة ومكان. فهكذا يفعل عادة المعلم الصبور مع تلاميذه ليعلمهم الدرس.

---

* الآية الواردة فى إشعياء ٥٣:١١ ترد فى ترجمة داربى «وعبدى البار بمعرفته يعلم الكثيرين البر»

** وذلك بالإضافة إلى لوقا ٦ حيث يذكر لوقا نفس هذه الموعظة. قارن لوقا ١٤:٣٤ مع متى ٥:١٣؛ لوقا ٨:١٦ مع متى ٥:١٤-١٦؛ لوقا ١٦:١٦ مع متى ٥:١٧-٢٠؛ لوقا ١٢:٥٧. ٥٩ مع متى ٥:٢١-٢٦؛ لوقا ١٦:١٨ مع متى ٥:٢٧-٣٢؛ لوقا ١١:١-٤ مع متى ٦:٩-١٣؛ لوقا ١٢:٣٣ مع متى ٦:١٩-٢١؛ لوقا ١١:٣٤-٣٦ مع متى ٦:٢٢؛ لوقا ١٦:١٣ مع متى ٦:٢٤؛ لوقا ١٢:٢٢-٣٢ مع متى ٦:٢٥-٣٤؛ لوقا ١١:٩-١٣ مع متى ٧:٧-١١؛ لوقا ١٣:٢٣ مع متى ٧:١٣.

جبل سيناء وجبل الموعظة

كون هذه العظة أُلقيت من فوق الجبل، فإنها تذكِّرنا بالناموس الذى أعطاه الله لموسى فوق الجبل، وكسره الشعب أسفل الجبل، ومن وقتها تحول قلبهم عن الرب، مع استمرارهم فى التمسك بمظهر الناموس وحرفيته دون روحه وجوهره. لقد كان الكثيرون من سامعى الرب فى ذلك اليوم يظنون أن الدين هو عبارة عن طقوس خارجية ولا علاقة له بالتصرف اليومى والحياة الداخلية للإنسان. لكن الرب فى هذه الموعظة قلَب هذه المفاهيم تماماً. وها هو الرب الذى استدعى موسى قديماً إلى الجبل، ها هو يجلس فوق جبل آخر، ويجمع تلاميذه إليه، ويقدم لهم بنفسه مبادئ ملكوته.

لا عجب أن تكون تلك المبادئ أسمى من كلمات ناموس موسى على جبل حوريب. فموسى، مهما عظُم شأنه، هو فى النهاية خادم فى البيت، أما المسيح فهو ابن على البيت (عب٣: ٥، ٦). وإن كان الناموس بموسى أُعطى، فإن النعمة والحق بيسوع المسيح صارا (يو١: ١٧).

ثم تأمل الفارق بين المشهد هنا وبين المشهد فوق جبل حوريب فى سيناء، فمن فوق جبل حوريب كانت الرعود والبروق والأصوات، وكان الضباب والظلام (خر١٩: ١٦-١٩). أما هنا فالمنظر فيه وداعة وبهجة، هدوء وجلال. هناك كان الأمر للشعب ألا يقتربوا، بل هم أنفسهم لم يحتملوا ما أُمِر به، وطلبوا إلى موسى ألا يتكلم الله معهم. أما هنا فلا ضباب ولا ظلام ولا زوبعة ولهذا فقد تقدم التلاميذ إلى المسيح، ففتح فاه وابتدأ يعلمهم. فى المشهد الأول «نزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل» (خر١٩: ٢٠)، أما هنا فقد «صعد (المسيح) إلى الجبل».

بعد ذلك، وعلى مشارف أرض الموعد، ومن فوق جبل آخر، هو جبل عيبال، حسبما نقرأ فى تثنية ٢٧، نجد نتيجة الناموس ملخصة فى اثنتى عشرة لعنة؛ وكأن هناك لعنة لكل سبط من أسباط إسرائيل الاثنى عشر. وتَرِد آخر لعنة من هذه اللعنات هكذا «ملعون من لا يُقيم كلمات هذا الناموس ليعمل بها. ويقول جميع الشعب آمين». وبحكمة إلهية عمم الرسول بولس هذا المبدأ على كل من يريد أن يتبرر عند الله بأعماله أو يرضيه ببره الذاتى، فيقول «لأن جميع الذين هم من أعمال الناموس هم تحت لعنة لأنه مكتوب (ثم يقتبس لعنة جبل عيبال الأخيرة) ملعون كل من لا يثبت فى جميع ما هو مكتوب فى كتاب الناموس ليعمل به» (غل٣: ١٠). بل إن العهد القديم كله يُختم بكلمة اللعنة «لئلا آتى وأضرب

الأرض بلعن» (ملا٤:٦). لكن بينما يُختم الناموس باللعنة على مَنْ لا يُقيم كلماته، وتُختم النبوات بكلمة اللعنة للعصاة، فإن الإنجيل يبدأ بالبركة. فأول كلمة فى هذه الموعظة العظيمة التى هى أول موعظة للرب فى البشائر، هى كلمة «طوبى» وتتكرر تسع مرات!!

خلفية موعظة الجبل

إنجيل متى يقدم المسيح كملك اليهود. ولذا نقرأ فى أصحاح ١ عن سلسلة النسب الملكية التى تبرهن أن يسوع هذا هو «ابن داود» الحقيقى. وفى أصحاح ٢ نقرأ عن مجىء المجوس ليسجدوا للمولود «ملك اليهود». وفى أصحاح ٣ نقرأ لأول مرة عن النداء باقتراب ملكوت السماوات وذلك بواسطة المعمدان (ع ١ ، ٢). وفى نفس الأصحاح نقرأ عن مسح الملك بالروح القدس ليبدأ عمله وخدمته. وفى أصحاح ٤ بعد نصرة المسيح على إبليس فى التجربة، وربطه للشيطان فى البرية، خرج يطوف المدن والقرى لينهب أمتعته؛ وكان هذا إيذاناً ببداية ظهور الملكوت بينهم (قارن ١٢:٢٨، ٢٩). ولذا نقرأ للمرة الثانية فى هذا الإنجيل هذه العبارة، لكنها الآن بفم المسيح نفسه «توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات» (٤: ١٧).

ونتيجة خدمة المسيح بين الشعب، فقد ذاع خبره فى كل مكان، وإذ تبعت المسيح جموع كثيرة من كل حدب وصوب «من الجليل والعشر المدن وأورشليم واليهودية ومن عبر الأردن» فقد صعد المسيح إلى الجبل، وألقى عليهم تلك العظة التى تقدم مبادئ ملكوت السماوات.

وتعبير «ملكوت السماوات» لم يرد فى الأناجيل إلا فى إنجيل متى، وورد فيه ٣٢ مرة. وهو يعنى ببساطة حكم السماء على الأرض، وذلك إتماماً لأقوال الأنبياء فى العهد القديم؛ على سبيل المثال ما ورد فى دانيال ٢:٤٤ «فى أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السماوات مملكة لن تنقرض أبداً، وملكها لا يترك لشعب آخر، وتَسحق وتفنى كل هذه الممالك وهى تثبت إلى الأبد». وفى دانيال ٧:١٣ يتضح أن ابن الإنسان أو المسيا هو الذى سيؤسس هذه المملكة ويملك عليها.

وملكوت السماوات بحسب إنجيل متى له ثلاثة أوجه؛ الوجه الأول يمثل الإعلان عنه لليهود، كيما يسرعوا بالتوبة كى يؤسس الملك «المسيح» الذى وصل الملكوت فيما بينهم. وهذا الوجه يستمر حتى أصحاح ١٢. لكننا نقرأ فى أصحاح ١١ عن رفض اليهود لهذا

الملك ورفضهم للتوبة (ع٢٠)، وفى أصحاح ١٢ نقرأ عن وقوع الشعب فى الخطية التى لا غفران لها، أعنى التجديف على الروح القدس (ع٣١، ٣٢)، فتأجل الملك نظراً لذلك، وتحدث المسيح فى أصحاح ١٣ عن الوجه الثانى للملكوت، وهو ما أسماه الرب «أسرار ملكوت السماوات» (ع١١).

و«أسرار ملكوت السماوات» يعنى حكم السماء على الأرض، ليس فى صورة علنية كتلك المتنبأ عنها فى نبوات العهد القديم، بل فى صورة سرية، حيث الملك غائب، والحقل الذى تُزرع فيه كلمة الملكوت هو كل العالم (ع٢٤، ٣٨)، والحنطة والزوان ينميان كلاهما معاً (ع٢٩، ٣٠، ٣٨).

وهذه الصورة مستمرة حتى الآن قرابة ألفى عام، وستنتهى، كما ذكر المسيح، فى وقت الحصاد؛ أى انقضاء الدهر (١٣: ٣٩) ليؤسس المسيح ملكوته العلنى (١٣: ٤١-٤٣). هذا هو الوجه الثالث للملكوت فى إنجيل متى، وهو ما أوضحه الرب أكثر فى عظة جبل الزيتون* (متى٢٤، ٢٥).

هذا الفهم يعطينا تطبيقاً ثلاثياً لموعظة الجبل كالآتى:

١- كانت تنطبق على اليهود الذين كانوا فى أيام المسيح متوقعين تأسيس مُلك المسيح فيما بينهم (قارن لوقا ١٩: ١١، ٢٤: ٢١، أع١: ٦). ولهذا فنحن نجد فى هذه العظة مذاقاً يهودياً واضحاً مثل «المجمع» (٥: ٢٢)، والقربان والمذبح (٥: ٢٣)، وأورشليم باعتبارها مدينة الملك العظيم (٥: ٣٥)... الخ.

٢- ستنطبق أيضاً على البقية التقية من هذا الشعب بعد اختطاف الكنيسة حيث سيرجع الرب بعد الاختطاف ويبنى خيمة داود الساقطة ويبنى ردمها ويقيمها ثانية (أع١٥: ١٦). وسيتمم الرب مواعيده بالنعمة مع هذا الشعب من أجل الآباء وذلك بعد انتهاء الفترة الحاضرة التى فيها يقدم الرب خلاصة للأمم (انظر رومية١١: ٢٥-٢٩).

٣- تنطبق هذه العظة أدبياً وروحياً علينا نحن فى الوقت الحاضر، حيث أننا نشغل الآن الوجه الثانى لملكوت السماوات، كما أوضحنا سابقاً.

---

* إنجيل متى هو إنجيل الملكوت، كما أنه إنجيل الجبال (والجبل فى الكتاب المقدس، بحكم ارتفاعه عن الأرض المحيطة؛ فإنه يمثل الملكوت). وأشهر جبال إنجيل متى هو جبل الموعظة، حيث قدم المسيح المبادئ الأدبية لملكوته، وجبل التجلى (مت١٧) حيث قدم المسيح صورة مسبقة لملكوته (قارن ٢بطرس ١: ١٦-١٨)، وجبل الزيتون (مت٢٤ ٢٥) حيث قدم المسيح موعد تأسيس ملكوته.

عظة الأخلاق المسيحية

يعتبر البعض هذه العظة هى خُلاصة الإنجيل. ويعتبرها البعض الآخر أنها الكتاب المقدس كاملاً، إذ تحتوى على كل ما يحتاجه الإنسان الخاطئ. والبعض يقول إن من يتمسك بتعاليمها ستتهذب أخلاقياته، ويرقى مستواه، فينال القبول عند الله. إنها بالإجمال طريق الإنسان إلى السماء - على حد زعمهم!

لكن إن كان الإنسان فشل فى أن يتبرر بالناموس ومستواه الروحى والأدبى الأقل (أع١٣: ٣٩، رو٣: ٢٠، غل٢: ٢١)، فهل يمكن أن يتبرر أو يخلص بمستوى موعظة الجبل الأعلى والأرقى؟!

إن هذه العظة هى قمة الصلاح، والإنسان الطبيعى، كما يؤكد الكتاب المقدس، لا يسكن فيه شيء صالح (رو٧: ١٨، ٨: ٦-٨)، فكيف إذاً تكون هذه العظة طريق الإنسان إلى السماء*؟! على العكس فإننا نؤكد أن هذه العظة بتعاليمها السامية الراقية، ليس فقط لا تخلِّص الإنسان، بل إنها تدينه، إذ تضع أمامه مستوى عالياً لا يقدر أن يبلغه على الإطلاق!

ولكن إن كانت هذه العظة لا تشرح طريق الخاطئ إلى السماء؛ فإنها تشرح طريق السماء إلى المؤمن، هى لا تقدم لنا النعمة الموجهة للخطاة، ولا الإنجيل المُبشَّر به للهالكين؛ لكنها تقدم كلام الملك إلى رعايا ملكوته. إنها عظة الأخلاق المسيحية أو الصفات الأدبية لبنى الملكوت. إنها حديث الرب مع تلاميذه عن طابع سلوكهم ومركزهم وشهادتهم. إنها اللائحة الداخلية لتلاميذ المدرسة التى يقوم فيها المسيح نفسه بالتدريس لكل من أتى إليه بالتوبة والإيمان، الذين ولدوا من الله وخلصوا بالنعمة.

ويا لها من مبادئ! إنها بكل يقين أسمى تعاليم سمعتها آذان البشر، وأرقى مستوى أخلاقى عرفته الإنسانية؛ ففيها رحابة النعمة، وتدقيق القداسة. فيها الفضيلة الروحية للتغلب على العالم، وفيها الاتضاع والوداعة أمام كبرياء الناس. إنها تحوى الصلاح من كل نوع. وفيها تفاصيل لحالة القلب، ولصفات النفس، ولسلوك الإنسان[٢].

* لا يوجد تعارض بين ما ذكره المسيح فى هذه العظة «إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السماوات» (٥: ٢٠) وما ذكره فى أماكن أخرى مثل يوحنا٣: ٣،٥ «إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله ... إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله» بل إن هذه الآيات توضحها؛ فلا يمكن لواحد أن يُظهر الصفات المذكورة فى عظة الجبل ما لم يولد أولاً من الله، كما سنوضح بعد قليل.

ولهذا فإن سؤالاً يفرض نفسه علينا ونحن فى بداية التأمل فى هذه العظة: لماذا قصد الروح القدس أن يصدم كل من يطالع العهد الجديد بهذا المستوى الراقى الذى لا يقدر عليه الإنسان الطبيعى؟!

أول عظة فى الإنجيل

لقد وردت هذه العظة فى أول الإنجيل لتكون بمثابة طبق مقبلات (أى فاتح للشهية) للحقائق السامية المُعلنة فى الإنجيل. فأنت إذ تقيس نفسك بإخلاص فى ضوء قداسة الله المُبيَّنة فى هذه العظة، وتجد استحالة بلوغك هذا المستوى، ستشعر فى أعماقك أنك بحاجة إلى مخلص ليخلصك. وهذا هو صُلب موضوع الإنجيل.

نعم فالإنسان الطبيعى، مهما سَمَت أخلاقياته، هو أدنى بكثير من ارتقاء هذا الجبل العالى من روحيات موعظة الجبل. إنه فى حاجة إلى طبيعة جديدة من الله، وإلا فلا أمل إطلاقاً كيما يُرضى الله بمقاييسه هو.

لهذا فإنى لا أقدم إنجيلاً مغلوطاً لقارئى العزيز، لا أقول له: عِش الموعظة كي ما يقبلك المسيح؛ بل اقبل المسيح بالإيمان، ودعه يحيا فى قلبك، إذ ذاك سيمكنك أن تعيش هذه الموعظة.

لقد تكلف ابن الله أن يتجسد ويأتى إلينا، وعلى الصليب يموت كفارة عنا، وبعد قيامته من الأموات صعد إلى السماء ليحيا لأجلنا. ومن هناك أرسل الروح القدس ليحيا فينا. وبهذا وحده يمكننا أن نعيش الحياة التى تُمجِد الله وتُسِر قلبه.

وما أروع مجتمعاً تحكمه مبادئ موعظة الجبل؛ مبادئ ملكوت السماوات. إنها صفات الناس فى الملك الألفى. وإن كان يستحيل على الناس اليوم فى فترة سيادة الشيطان أن يعيشوا بتلك المبادئ، أليس من واجب المسيحى الحقيقى أن يحيا بموجب هذه العظة العظيمة؟! كم ستلمع حياتنا، وكم سيملأ النور والترنم بيوتنا، وكم ستكون شهادتنا مؤثرة فى العالم من حولنا لو أننا طبقنا تلك المبادئ السامية الراقية وترجمناها إلى حياة عملية.

عزيزى، لا تنسَ أن المسيح قد مات ليمكننا نحن أن نحيا هذه الموعظة «الذى بذل نفسه لأجلنا لكى يفدينا من كل إثم ويطهر لنفسه شعباً خاصاً غيوراً فى أعمال حسنة» (تى ٢: ١٤)

٢

نظرات تحليلية لموعظة الجبل

تشغل موعظة المسيح على الجبل الأصحاحات ٥ ، ٦ ، ٧ من بشارة متى. ويمكننا تقسيم هذه الموعظة إلى الأقسام الثلاثة الرئيسية الآتية، بالإضافة إلى مقدمة الأصحاحات وخاتمتها، أو ديباجة العظة وتذييلها. وعليه تكون أقسام هذه الأصحاحات الثلاثة كالآتي:

مقدمة	٥: ١ ، ٢
١ -صفات رعايا الملكوت	٥: ٣ - ١٦
٢ -مهام رعايا الملكوت	٥: ١٧ إلى ٧: ١٢
٣ -مسارهم ومصيرهم	٧: ١٣ - ٢٧
خاتمة	٧: ٢٨ ، ٢٩

ويمكن التوسع قليلاً فى تقسيم الموعظة إلى الأقسام السُباعية الآتية :

١- صفات تلميذ المسيح	٥: ٣ - ١٢
٢- تأثير تلميذ المسيح	٥: ١٣ - ١٦
٣- بر تلميذ المسيح	٥: ١٧ - ٤٨
٤- ديانة تلميذ المسيح	٦: ١ - ١٨
٥- اهتمامات تلميذ المسيح	٦: ١٩ - ٣٤
٦- علاقات تلميذ المسيح	٧: ١ - ١٢
٧- تحذيرات لتلميذ المسيح	٧: ١٣ - ٢٧

يسبقها مقدمة وتختتم بتذييل

والآن دعنا نحلل هذه الموعظة أكثر، مُسايرين التقسيم السُباعى السابق كالآتى:

أولاً : وصف الحياة المُثلى (تسعة تطويبات) ٥: ٣ - ١٢

الصفات (سبعة تطويبات) ع ٣ - ٩

رد فعل المجتمع عليهم (تطويبان) ع ١٠ - ١٢

ثانياً: تأثير الحياة المثلى ٥: ١٣-١٦

تشبيهـــان:

ملح الأرض ع ١٣

نور العالم ع ١٤

توضيحان:

مدينة على جبل ع ١٥

سراج تحت المكيال ع ١٦

ثالثاً: علاقة الحياة المُثلى بالناموس الملوكى (ناموس الملك) ٥:١٧-٤٨

أ) قيمة الناموس ٥: ١٧ - ٢٠

١ - نظرة المسيح إليه ع ١٧ ، ١٨

٢ - نظرة التلميذ إليه ع ١٩

٣ - نظرة الكتبة والفريسيين ع ٢٠

ب) ستة توضيحات عن البر الأزيد من بر الكتبة والفريسيين

«سمعتم أنه قيل...أما أنا فأقول» ٥: ٢١ -٤٨

١ - القتل (وتطبيقان) ع ٢١ - ٢٦

٢ - الزنا (وتطبيقان) ع ٢٧ - ٣٠

٣- الطلاق ع ٣١ ، ٣٢

٤ - الأقسام (٤تطبيقات) ع ٣٣ - ٣٧

٥ - الثأر (٤تطبيقات) ع ٣٨ - ٤٢

٦ - الحب (وتطبيقان) ع ٤٣ - ٤٨

رابعاً : كيفية ممارسة العبادة فى الحياة المُثلى ٦:١ - ١٨

١ - الصدقة ع ٢ - ٤

٢ - الصلاة ع ٥ - ١٥

٣ - الصوم ع ١٦ - ١٨

خامساً: التكريس والثقة الكاملة فى الله ٦: ١٩ - ٣٤

١ - بالنسبة لأمور العالم التى تسلب الروحيات من القلب ع ١٩ - ٢٤

٢ - بالنسبة للاهتمام والقلق اللذين يسلبان الهدوء والسلام من القلب ع ٢٥ - ٣٤

سادساً : التعامل مع الآخرين ٧: ١ - ١٢

١ - تحذير من روح النقد ع ١ - ٥

٢ - أهمية التمييز الأدبى ع ٦

٣ - الصلاة لضبط التعامل مع الآخرين ع ٧ - ١١

٤ - القانون الذهبى فى التعامل مع الآخرين ع ١٢

سابعاً : تعليمات وتحذيرات هامة ٧: ١٣ - ٢٠

١ - بابان وطريقان ونهايتان ع ١٣ ، ١٤

٢ - الشجرتان أو "من ثمارهم تعرفونهم" ع ١٥ - ٢٠

٣ - تحذير من خداع النفس ع ٢١ - ٢٣

٤ - مَثَل البيتين ع ٢٤ - ٢٧

* * *

والآن دعنا نرى تسلسل الفكرة والعلاقة الوثيقة بين هذه الأقسام السبعة:

١- فى القسم الأول (ع٣-١٢) نرى صفات ورثة الملكوت، وهذا يرد قبل الحديث عن تأثيرهم (فى القسم الثانى) ذلك التأثير التقوى الذى لولاه لاستشرى الفساد فى العالم، وعمّ الظلام.

٢- القسم الثانى (ع١٣-١٦) وفيه نرى تأثير بنى الملكوت على العالم قبل الحديث عن برهم الذى يجب أن يزيد على بر الكتبة والفريسيين فى القسم الثالث، والذى يحدثنا أيضاً عن التقوى التى تضبط السلوك أمام الله. فالصفات تسبق الأفعال وتوجهها ، ومعرفتنا لدعوتنا وما يجب أن نكون عليه فى العالم يعطى لقلوبنا التوجه الصحيح فى كل أعمالنا.

٣- القسم الثالث (٥:١٧-٤٨) يتحدث المسيح فيه عن كمية البر «إن لم يَزِد بركم على الكتبة والفريسيين»، بينما القسم الرابع (٦:١-١٨) يتحدث المسيح فيه عن كيفية البر «احترزوا من أن تصنعوا (بركم) قدام الناس». وكأن المسيح بعد أن حذرنا من تعليم الكتبة والفريسيين الخاطئ، حذرنا من ممارستهم الخاطئة.

٤- الأصحاح السادس يحتوى على القسمين الرابع والخامس من الموعظة. فى أول الأصحاح يحذرنا الرب من الولع بنظرة الناس إلينا، وفى آخره يحذرنا من التمثل بنظرة الناس إلى أمور العالم. أولاً (ع١-١٨) عينا الآب علينا تريان ما نعمل، ثم بعد ذلك (ع١٩-٣٤) عينا المؤمن ينبغى أن تتجها إلى الآب فى كل ما نحتاج. الآب يرى أعمالنا فلننتظر المكافأة منه، وهو يرى الأعواز فلننتظر تسديدها منه.

٥- يرتبط القسمان الخامس والسادس برابطة سُباعية جميلة إذ يشتملان معاً على التحذيرات السباعية الآتية: «لا تكنزوا» (٦:١٩)، «لا تهتموا لحياتكم» (٦:٢٥)، «لا تهتموا قائلين ماذا نأكل» (٦:٣١)، «لا تهتموا للغد» (٦:٣٤)، «لا تدينوا» ٧:١)، «لا تعطوا القدس للكلاب» (٧:٦)، «لا تطرحوا درركم قدام الخنازير» (٧:٦).

٦- ينتهى الجانب التعليمى من هذه العظة فى أصحاح٧:١٢ وبعده تبدأ التحريضات العملية؛ أولاً يحذرنا من اختيار الطريق الخاطئ (ع١٣ ، ١٤) وبعده يحذرنا من أخطار فى الطريق الصحيح ذاته (ع١٥-٢٠).

وبعد التحريضات تأتى التحذيرات (٧:٢١-٢٧)؛ تحذير من معسول الكلام دون توبة ومن عظيم الأفعال المقترنة بعيشة الشر (ع٢١-٢٣)، وأخيراً يتحدث عن الذين يسمعون أعظم الأقوال، أقوال المسيح نفسه، دون أن يعملوا بها. فالمطلوب هو العمل (ع٢١ ،٢٤ ،٢٦). فهذه العظة، كما ذكرنا، هى عظة الأفعال الصالحة، والحياة التقوية المكرسة.

* * *

تشغل هذه العظة ثلاثة أصحاحات، وكل أصحاح مشغول بفكرة معينة.

١- الأصحاح الخامس: البر الحقيقى

ما هو البر الحقيقى؟	٥:١-١٦
كيفية إظهار البر الحقيقى فى حياتنا العملية	٥:١٧-٤٨

٢- الأصحاح السادس : العبادة الحقيقية وحياة التقوى.. فنحن نختلف عن الآخرين سواء فى علاقتنا مع الله أو علاقتنا مع العالم.

العبادة تتكون من:

الصدقة	٦:٢-٤
الصلاة	٦:٥-١٥
الصوم	٦:١٦-١٨

الحياة وتحذير من المال أو الممتلكات:

تحذير من خطر كثرته	٦:١٩-٢٤
تحذير من خطر قلته	٦:٢٥-٣٤

٣- الأصحاح السابع : الأحكام الحقيقية

حُكمنا على ذواتنا	٧:١-٥
حُكمنا على الآخرين	٧:٦-٢٠
حُكم الله علينا	٧:٢١-٢٧

* * *

ويمكننا أيضاً أن نرى كل أصحاح من هذه الأصحاحات يحدثنا عن أحد أعداء المؤمن؛ الجسد والعالم والشيطان.

فأصحاح ٥ : نرى فيه الجسد وصفاته وعجزه؛ لاحظ أن الناموس قديماً أعطى للإنسان فى الجسد، وهذا هو سر عجزه «ما كان الناموس عاجزاً عنه فى ما كان ضعيفاً بالجسد» (رو٨:٣)

وأصحاح ٦ : يتحدث عن المسيحى فى العالم؛ بريائه واغراءاته واهتماماته.

وأصحاح ٧ : يحدثنا عن الشيطان وخدامه المخادعين وأتباعه المخدوعين وأساليب خطفه للكلمة.

وبالتالى فإنه يمكن أن ننسب أحد الأقانيم الثلاثة إلى كل من هذه الأصحاحات.

أصحاح ٥: الروح القدس؛ «لكى يتم حكم الناموس فينا نحن السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح».

أصحاح ٦: الآب؛ الذى هو ضد العالم. ولهذا يَرِد اسم الآب فى هذا الأصحاح ١٢ مرة بالمقابلة مع ٥ مرات فقط فى الأصحاحين الآخرين.

أصحاح ٧ : المسيح؛ باعتباره المعلم «من يسمع أقوالى هذه ويعمل بها» وباعتباره الديان «كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم».

في التطويبات يهنئ الرب يسوع أولئك الذين يرثى العالم لهم. ويعتبر بؤساء العالم سعداء، ومطاريده مباركين[٣]

[جون ستوت]

القسم الأول

صفات تلميذ المسيح

مت ٥ : ٣ — ١٢

- التطويبات
- طوبى للمساكين بالروح
- طوبى للحزانى
- طوبى للودعاء
- طوبى للجياع والعطاش إلى البر
- طوبى للرحماء
- طوبى للأنقياء القلب
- طوبى لصانعي السلام
- طوبى للمطرودين من أجل البر
- الآلام من أجل المسيح

٣

التطـويبـات

"طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات.
طوبى للحزانى لأنهم يتعزون.
طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض.
طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يُشبعون.
طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون.
طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله.
طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يُدعون.
طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات.
طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين. افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السموات. فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم"

(مت ٥: ٣-١٢).

كلمة «طوبى» التي تبدأ بها هذه العظة، وتتكرر فيها تسع مرات، هي باليونانية "مكاريوس"، وتعني مباركاً أو سعيداً أو محظوظاً، ولقد وردت هذه الكلمة في العهد الجديد ٥٠ مرة.

السعداء في الأرض

تُرى من هم أولئك الذين يعتبرهم المسيح سعداء ومباركين؟ إنهم المساكين والحزانى،

الجياع والعطاش، المضطهدون والمطرودون! إنهم مَنْ يرثى لهم البشر، ومَنْ يعتبرهم العالم "البؤساء في الأرض" بل أكثر الناس بؤساً، ها المسيح يعتبرهم مباركين ويستحقون التهنئة على ماهم عليه!!

والبشر جميعاً يرغبون في السعادة، ويبحثون عنها.. إلا أنها لازالت بعيدة المنال عنهم. إنهم يركضون وراء المال والثروة، يسعون وراء المركز والشهرة، يلهثون وراء اللذة والـمُتعة، فماذا كانت النتيجة؟ قال داود «تكثر أوجاعهم الذين أسرعوا وراء آخر» (مز١٦:٤)، وقال سليمان بن داود «الكل باطل وقبض الريح (أي انقباض الروح)» (جا٢:١١) وقال المسيح رب داود «كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً (أو يزداد عطشاً)» (يو٤:١٣). إذاً فلقد وجد الناس في بحثهم أوجاعاً وكآبة ومزيداً من العطش بدل أن يجدوا السعادة!!

قالت نجمة سينمائية شهيرة من أمريكا: لديَّ المال والجمال، الأصدقاء والشهرة.. ويحق لي أن أكون أسعد امرأة في العالم، لكني بائسة ! فلماذا ؟!

وقال بليونير : ظننت أنه بوسعي الحصول على السعادة بالمال، فاكتشفت أني في وهم أسيف!!

نعم الكل يحب السعادة «كثيرون يقولون مَنْ يُرينا خيراً» (مز٤:٦) لكن المشكلة أنهم يُخطئون الطريق إليها. فليست السعادة فيما هو تحت الشمس. وها المسيح ساكن حضن الآب يميط اللثام، في أول عظة مسجلة له، عما تصبو إليه البشرية، عما تبحث عنه ولا تجده.

أعتقد أن عدداً كبيراً من الذين كانوا يستمعون إلى عظة الجبل في يومهم كانوا يشعرون أيضا بأنهم بعيدون عن الفرح. ليس فقط لأنهم عبيد للرومان، بل لأنهم عبيد للخطية والشيطان. لكن المسيح الذي يشرح هنا مَنْ هم الفرحون ذهب بعد ذلك إلى الصليب حيث وضع بسفك دمه أساس سعادتنا، ثم كالمقام من الأموات هو يقدمها لكل من يريدها!

الصفات قبل التصرفات

لقد ذكر الرب في الأعداد من ٣ - ٩ الصفات التي تميِّز بني الملكوت. إنه لا يتحدث هنا عما يجب أن يكونوه لكي يدخلوا الملكوت، ولا عما يجب أن يجاهدوا ليصيروه بل ببساطة يتحدث عن صفاتهم. وفي الأقوال التالية للتطويبات التي نطق بها المسيح، فإنه يشير إلى تأثير بني الملكوت على الآخرين، لكنه يذكر صفاتهم أولاً. فقبل أن يوضح تأثيرهم الحسن

فى الذين حولهم ذكر أولاً أخلاقهم وسجاياهم.

وعندما يشير المسيح إلى المساكين والحزانى والودعاء... فإنه بذلك يشير إلى المواطنين الذين لهم الاعتبار الأول فى مملكته. ولقد صدق الواعظ الشهير توزر[٤] عندما قال: إذا أردت أن تصف المجتمعات الإنسانية لشخص غريب عنها فخُذ كل صفة من تلك الصفات التى ذكرها الرب هنا، واتى بالصفة المعاكسة تماماً لها، تحصل على أدق وصف للجنس البشرى!

لكن لاحظ أنه لا دخل للصفات الطبيعية فى الإنسان بما يتحدث الرب عنه هنا. فنحن نولد ولنا طبائع مختلفة بعضنا عن بعض. فالبعض منا بالطبيعة قيادي والآخر تابع، بعضنا حازم وقاطع والبعض ضعيف ومتردد، بعضنا متحمس نشيط والبعض هادئ ساكن، البعض مندفع والآخر بليد. هذه الاختلافات فى الطبيعة هى اختلافات بيولوجية ولا دخل لها بالحالة الروحية، بل ولا حتى بعلاقة الإنسان مع إلهه. وكما يختلف الواحد عن الآخر فى الحجم والشكل واللون فإنه يختلف أيضاً فى الطباع. لكن ليس عن هذه يتحدث الرب هنا، بل إنه يتحدث عما ينشؤه روح الله فى الطبيعة الجديدة من خصال حميدة تستمد قياسها من النموذج الأكمل ربنا يسوع المسيح.

المسيح هو النموذج والقدوة

إننا يمكننا أن نرى فى المسيح التعبير الكامل لتلك الخصال الرائعة والتوضيح الأعظم لهذه الصفات التى اجتمعت كأروع ما يكون فيه. وكما أن تطويب المزمور الأول لا ينطبق بتمامه على شخص إلا على المسيح، هكذا تطويبات عظة الجبل نجد كمالها فى شخص واحد هو المسيح.

كان المسيح *مسكيناً*. ذكر سفر المزامير عن المسيح ما لا يقل عن سبع مرات أنه مسكين (مز٢٢، ٤٠، ٤١، ٦٩، ١٠٢،....)

كان المسيح *حزيناً* فقيل عنه «رجل أوجاع ومختبر الحزن» (إش٥٣: ٣)

كان *وديعاً*، وهو الذى قال «تعلموا منى لأنى وديع» (مت١١: ٢٩)

كان *جائعاً*، وكان طعامه أن يفعل مشيئة الذى أرسله (يو٤: ٣٤)

كان *رحيماً* (عب٢: ١٧؛ مر٥: ١٩).

كان *نقياً* خالياً من الخطية (مز١٧: ٣؛ ١بط٢: ٢٢)

كان *صانع سلام*؛ بل إنه «رئيس السلام» (إش٩: ٦) وكلفه صُنع السلام دم الصليب.

تقسيم التطويبات وترتيبها

يذكر المسيح فى فاتحة هذه العظة تسعة تطويبات يمكن تقسيمها إلى سبعة تطويبات تحدثنا عن صفات بنى الملكوت والتطويبان الأخيران هما وصف لما سيحدث لهم فى هذا العالم الشرير. والتطويبات السبعة مقسمة بدورها إلى (٤ + ٣). التطويبات الأربعة الأولى تحدثنا عن صفاتهم السلبية فى وضعهم هنا فى الأرض وهم ينتظرون استعلان الملكوت، وهذه يميزها البر. والثلاثة الأخيرة عن صفاتهم الداخلية كمن صاروا شركاء الطبيعة الالهية، وهى صفات إيجابية نشطة للخير. الصفات الأربعة الأولى مجملة فى العدد العاشر «طوبى للمطرودين من أجل البر»، والصفات الثلاثة الأخيرة مجملة فى العدد الحادى عشر «طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين».

وهذه الصفات ليست صفاتاً متنافرة بلا رابطة، بل إنها مرتبطة ببعضها ارتباطاً وثيقاً. فأنت لا يمكن أن تكون مسكيناً بالروح دون أن تكون حزيناً. ولا يمكن أن تحزن دون أن تجوع إلى البر، وهذا سيجعلك مُضطهداً لأجل البر، وهكذا... إنها كالعقد المنتظم، وكل صفة تتطلب وجود باقى الصفات، كما سيتضح لنا ونحن ندرس التطويبات بالتفصيل.

ثم لاحظ أنه ليس فريق من المؤمنين مسكيناً بالروح. وآخر وديعاً وآخر حزيناً.. بل إن كل مؤمن حقيقي يميزه كل هذه الصفات معاً. صحيح قد يميز أحدنا صفة من هذه الصفات أكثر من غيره، أو قد تظهر فى أحدنا صفة بعينها أكثر من غيرها من الصفات. لكن هذا لا يمنع أن كل مسيحى قد جمّله روح الله بكل هذه الصفات، وعليه أن يُظهرها جميعاً فى حياته العملية.

فى التطويب الأول يقول المسيح «طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات»، وفى التطويب الأخير يقول «طوبى لكم.. لأن أجركم عظيم فى السماوات». وهذا يوضح لنا تماماً موقف المسيحى. فهو أولاً لا ينتمى إلى هذا العالم، بل ينتمى إلى مملكة أخرى، مملكة عرشها هناك فوق النجوم، كما أن له جنسية مختلفة تماماً عن كل البشر، إذ أنه سماوى. ثم أنه لا ينتظر الأجرة والمكافأة هنا فى هذا العالم، بل إن أجره عظيم فى السماوات.

أنت مدعو إلى السعادة

أقول أخيراً: ألعل المسيح أعطانا هذه العظة لكى ندرسها ونفهم معانيها فقط، أم أنه

يريدنا أن نحياها ونتمتع بالسعادة؟ لقد ختم المسيح موعظته هذه بالقول «فكل من يسمع أقوالي هذه ويعمل بها أشبّهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر» (٧:٢٤)، وهذا يضعنا أمام تحدٍ خطير؛ أن نعمل بما يقوله الرب لنا.

ثم لاحظ أيضاً أن المسيح ليس مجرد فيلسوف يشرح لنا الطريق إلى السعادة، ولا هو مجرد مفكر يصف لنا مَنْ هو السعيد حقاً، بل هو مخلّص مسحه الرب لكي يبشر المساكين، وهو هنا يقدم لنا الطريق إلى هذه السعادة لكي ننضم إلى جمهور السعداء الذين صار من نصيبهم الفرح الآن وإلى أبد الآبدين.

قيل في سفر الأعمال ٨ عن وزير مالية الحبشة الذي بشره فيلبس بيسوع وعمّده أنه «ذهب في طريقه فرحاً» وكذلك في أعمال ١٦ قيل عن سجان فيلبي الذي بشره الرسول بولس وعمده إنه «تهلل مع جميع بيته.. إذ كان قد آمن بالله».

والمسيح مستعد أن يُسعدك أنت أيضاً. فهو يدعوك ليخلصك قائلاً «تعالوا إليَّ ياجميع المُتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم». وهذه هي أولى الخطوات نحو السعادة، لكنك بعد أن تأتي إليه فانه يدعوك لتتعلم منه باعتباره المعلم الصالح، وأن تحذو حذوه، وأن تتمثل به «احملوا نيري عليكم، وتعلموا مني .. فتجدوا راحة لنفوسكم» (مت١١:٢٨ ، ٢٩). فهلا تسير معه نحو السعادة؟!

هيا أطيعوا حسنا هذا المعلـــمَ
فتعرفوا شيئاً هنا من فرح السما

٤

طوبى للمساكين بالروح

"طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات"

(مت ٥:٣).

تُفتتح الموعظة على الجبل بالقول «طوبى للمساكين بالروح». فمَنْ هو المسكين بالروح؟ إن المسكنة بالروح ليست هي الفقر فى الممتلكات المادية أو المؤهلات العلمية، بل إنها تعنى الشعور العميق بالفقر الأدبى والروحى.. إنها ليست فقراً خارجياً، بل هى شعور فى الداخل بأننى لست شيئاً، ولست أملك من الصلاحيات شيئاً، ولا أستحق شيئاً. ولذلك فإنى أركن على الله فى كل شىء.

لماذا هى أولى الصفات؟

لقد وضع المسيح هذه الصفة فى افتتاحية موعظته وفى غرّة تطويباته، لأنها نقطة البدء فى علاقة الإنسان مع الله. فلن يكون للإنسان علاقة مع الله إلا إذا شعر أولاً بأنه مسكين بالروح. إنها صفة سلبية فيها يشعر المرء بأنه غير جدير بشىء، فيهبه الله بالنعمة كل شىء.

ذكر القديس أوغسطينوس[٥] فى اعترافاته، أن العقبة الكبرى أمامه لقبول الإنجيل كانت الكبرياء، فلقد كان فخوراً بعقله وغناه ومركزه؛ إلى أن أدرك يوماً أن هذه الأمور لا تساوى

شيئاً. وهو نفس ما حدث مع مارتن لوثر بصورة أخرى، فلقد أتى يوم أدرك فيه أن أعماله وممارساته، زهده وتقشفه، لا يمكن أن تضيف إلى رصيده أى شيء عند الله؛ وعندئذ فقط أمكنه أن يحصل على السلام مع الله.

ففى خطة الله هناك أولاً تفريغ للإنسان من ذاته كيما يملأه الله. والتفريغ لابد أن يسبق الملء. قال سمعان البار لما حمل الطفل يسوع على ذراعيه فى الهيكل «إن هذا قد وُضع لسقوط وقيام كثيرين» (لو٢: ٣٤). لاحظ الترتيب هنا؛ فالسقوط يسبق القيام، ومن يسقط أمامه هو يرفعه. ولهذا كانت أولى التطويبات هنا «طوبى للمساكين بالروح».

وهناك سبب آخر لوضع هذه الطوبى فى افتتاحية الموعظة. فنحن سنبدأ بنعمة الرب فى شرح الموعظة. وقد يُعجب واحد بما تتضمنه هذه العظة من أخلاقيات سامية فيقول فى نفسه على التو، إنى سأشرع من الآن أن أعيش بحسب تلك التعاليم السامية. لكن عزيزى هذا مُحال، فأنت لن يمكنك على الإطلاق بقوتك الشخصية أن تحيا هذه الموعظة. وليس هذا الأمر مستحيلاً فقط، بل هو أيضاً يتعارض مع أول عبارة فى هذه الموعظة التى تطوب المساكين بالروح.

وبعبارة أخرى: الموعظة على الجبل تقول لنا إن هناك جبلاً ينبغى أن نرتقيه أدبياً، ومرتفعات روحية شاهقة علينا أن نسمو نحوها. لكن أول شيء علينا أن نفعله قبل الإرتقاء والسمو هو أن نشعر شعوراً عميقاً فى داخلنا ونحن ننظر إلى هذا الجبل أننا فى ذواتنا ضعفاء، وكل محاولة من جانبنا لتسلق تعاليم الموعظة بقوتنا الشخصية إنما يدل على أننا لم نفهم بعد أول كلمة فيها.

سعداء هم المساكين!

إن العالم يحتقر المساكين ولا مكان لأمثالهم فيه. أنظر إلى مَنْ يحظون بمديح العالم وينالون نياشينه فإنك تجدهم أبعد ما يكونون عن المسكنة. وحتى فى العالم المسيحى بالأسف فإن المبادئ السائدة هى: ثق بنفسك، واكتشف قدراتك الداخلية. لكن من الجانب الآخر كم يحب الرب المساكين. فهو يبدأ موعظة الجبل بتطويب المساكين، بل إن أول عظة له، تبارك اسمه، وهى تلك التى قالها فى مجمع الناصرة فى لوقا٤ يستهلها أيضاً بالقول «روح الرب علىَّ لأنه مسحنى لأبشر **المساكين**».

وحتى فى العهد القديم يقول الرب «السموات كرسيى والأرض موطئ قدمى.. وكل هذه

صنعتها يدى.. وإلى هذا أنظر إلى المسكين والمنسحق الروح والمرتعد من كلامى». (إش٦٦:١، ٢). وهو ليس فقط ينظر، بل يسمع أيضاً «هذا المسكين صرخ، والرب استمعه» (مز٣٤:٦). وليس يسمع فحسب بل أيضاً يستجيب «البائسون والمساكين طالبون ماء ولا يوجد. لسانهم من العطش قد يبس. أنا الرب أستجيب لهم... لا أتركهم» (إش٤١:١٧).

تحفظات وأمثلة

ذكرنا منذ قليل أن المسكنة بالروح ليست هى فقر المادة أو التخلف العلمى، إنها شىء داخلى ولا علاقة لها بالظروف الخارجية. وفى الواقع ليس كل الفقراء متضعين. وفى نفس الوقت هناك أغنياء وعلماء متعلمون من الرب تمت فيهم كلمات إرميا «لا يفتخرن الحكيم بحكمته.. ولا يفتخر الغنى بغناه» (إر٩:٢٣) وأيضاً «ليفتخر الأخ المتضع بارتفاعه. وأما الغنى فباتضاعه» (يع١:٩، ١٠).

لكن هناك خطراً أشد من الثروات والشهادات، وهو أن يشعر الإنسان بقدرات خاصة يمتلكها أو أن يحس بالبر الذاتى. هذه عوائق هائلة أمام المسكنة بالروح.

ومن الجانب الآخر ليست المسكنة بالروح هو ذلك الاتضاع المزيف الذى يميز البعض. إن ذلك الحريص لأن يجعلك تشعر بتواضعه هو أبعد ما يكون عن التواضع ومسكنة الروح. إن المتواضع حقاً لا يشغلك بنفسه على الإطلاق لأنه أساساً غير مشغول بنفسه.

ولتوضيح ذلك نقول إن المؤمنين فى كورنثوس كانوا أغنياء فى كل كلمة وكل علم ولم يكونوا ناقصين فى موهبة ما، لكنهم لم يكونوا أبداً مساكين بالروح. ألم يكونوا منتفخين؟ أوَلَمْ يكونوا متحزبين؟ (١كو٣:٣، ٢١، ٦:٤، ٧، ٥:٢..الخ) على العكس من ذلك كان الرسول بولس، فمع كل إمكانياته الشخصية والذهنية والروحية، فإنه لما ذهب إلى كورنثوس يقول «أنا كنت عندكم فى ضعف وخوف ورعدة كثيرة» (١كو٢:٣) ومرة ثانية يقول «فمَنْ هو بولس؟ ومن هو أبولس؟. إذاً ليس الغارس شيئاً ولا الساقى بل الله الذى ينمى» (١كو٣:٥، ٧). ومرة أخرى أيضاً يقول «ومن هو كفؤ لهذه الأمور؟» (٢كو٢:١٦).

يطيب لنا أن نستعرض رجال الله وكيف كانت نظرتهم إلى ذواتهم.. فموسى مثلاً عندما دعاه الله كيما يرسله ليخلص الشعب قال للرب «من أنا حتى أذهب إلى فرعون وحتى أُخرج بنى إسرائيل من مصر؟» (خر٣:١١).

وجدعون قال للرب «يا سيدى بماذا أخلِّص إسرائيل؟ ها عشيرتى هى الذُلى فى منسى وأنا الأصغر فى بيت أبى» (قض٦:١٥).

وإرميا قال «آه ياسيد الرب إنى لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد» (إر١:٦).

ويوحنا المعمدان ذلك البطل العظيم قال عن المسيح «لست بمستحق أن أحّل سيور حذائه» كما قال «ينبغى أن ذلك يزيد وأنى أنا أنقص» (يو١:٢٧، ٣:٣٠).

لكن فوق الكل نجد ربنا يسوع المسيح.

المسيح هو المسكين الحقيقى

نعم إن المسيح هو المثال الكامل فى كل شىء. ومع أنه الله «لكنه **أخلى نفسه**.. وإذ وُجد فى الهيئة كإنسان **وضع نفسه**!»

ما أعجب كلماته فى مزمور١٦ «احفظنى يا الله لأنى عليك توكلت. قُلت للرب أنت سيدى خيرى لا شىء غيرك». وفى الإنجيل يقول «لأنى قد نزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتى بل مشيئة الذى أرسلنى» (يو٦:٣٨). حقاً ما أجمله! ثم استمع إليه فى بعض المزامير التى يتكلم فيها عن نفسه كالمسكين الحقيقى فيقول :

«لأنه لم يحتقر ولم يرذل مسكنة **المسكين**، ولم يحجب وجهه عنه، بل عند صراخه إليه استمع» (مز٢٢:٢٤)

«أما أنا **فمسكين** وبائس» (مز٤٠:١٧)

«أما أنا **فمسكين** وكئيب» (مز٦٩:٢٩)

«أما أنا **فمسكين** وفقيـر» (مـز٧٠:٥)

«أنا **مسكين** ومُسَلِّمُ الروح منذ صباى» (مز٨٨:١٥)

«صلاة **لمسكين** إذا أعيا وسكب شكواه قدام الله» (مز١٠٢)

«إنى فقير **ومسكين** أنا وقلبى مجروح فى داخلى» (مز١٠٩:٢٢).

هل أنت مسكين حقاً؟

هذه العظة، كما ذكرنا مراراً، هى عظة عملية فى المقام الأول. لهذا فمن المهم أن نعرف أين نحن من المسكنة الروحية. إن الإنسان الطبيعى هو أبعد ما يكون عن المسكنة. فهكذا أراد آدم أن يرفع نفسه بعكس المسيح الذى أخلى نفسه.. ووضع نفسه. ويقول المسيح «لأن

كل من يرفع نفسه يتضع، ومن يضع نفسه يرتفع» (لو١٤: ١١).

وبعد آدم جاء قايين الذى يمثل لنا الشخص الذى لا يسكت إذا غُلب، بل إنه يقبل التحدى، ولو تحدى الله نفسه، بعكس هابيل. وكثير من ثنائيات الكتاب تحدثنا عن النموذج الإلهى للإنسان من جهة والنموذج البشرى من الجهة الأخرى. فاللص التائب مسكين بالروح بعكس اللص الهالك (لو٢٣)، والمرأة الخاطئة مسكينة بالروح بعكس سمعان الفريسى (لو٧). ونفس الأمر نجده فى مَثَل الابن الضال؛ الابن الأصغر والابن الأكبر (لو١٥)، وفى مَثَل الفريسى والعشار (لو١٨)!

ولنستمع فى النهاية إلى كلمات السيد والمعلم الذى قال لتلاميذه عندما كانت بينهم مشاجرة مَنْ منهم أكبر «فقال لهم. ملوك الأمم يسودونهم، والمتسلطون عليهم يُدعون مُحسنين. وأما أنتم فليس هكذا بل الكبير فيكم ليكن كالأصغر والمتقدم كالخادم. لأن مَنْ هو أكبر. الذى يتكئ أم الذى يخدم؟ أليس الذى يتكئ؟ ولكنى أنا بينكم كالذى يخدم» (لو٢٢: ٢٤-٢٧)

نعم إن المسكين بالروح شخص يشعر أن المكان الذى هو جدير به هو التراب والرماد (أى٤٢: ٦) لأنه هو نفسه تراب ورماد (تك١٨: ٢٧).

البقية فى المستقبل

كما اجتاز الرب أرض الشقاء وكان هو المسكين الحقيقى، فإن البقية التقية من الشعب الأرضى ستجتاز فى الضيقة العظيمة (تلك الضيقة التى ستُعفى منها الكنيسة، إذ يأتى المسيح ليُنقذنا من الغضب الآتى (١تس١: ١٠). وسيكونون فى وسط الضيق الذى حولهم، واضطهاد الوحش والنبى الكذاب لهم هم المساكين حقاً.

ونحن نعرف من أماكن أخرى أن هذه البقية ستنتظر ظهور الملك واستعلان ملكوته، وصلاتهم ستكون «ليأت ملكوتك» (مت٦: ١٠)، وكرازتهم ستكون «بشارة الملكوت» (مت٢٤: ١٤). ولهم سيأتى الرب ويُدخلهم إلى ملكوته فتتم فيهم كلمات الرب هنا «طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات».

وصورة هذه البقية نجدها فى أصحاب داود الذين تبعوه فى زمان رفضه. لقد كانوا فى منتهى المسكنة «كل رجل متضايق، وكل من كان عليه دين، وكل رجل مُرّ النفس» (١صم٢٢: ٢). لكن هؤلاء المساكين الأمناء ملكوا مع داود لما ملك.

وتذخر النبوات والمزامير بالآيات التى تتحدث عن هذه الفترة، وعن حالة هذه البقية خلالها، إلى أن يظهر الرب ويمتعهم بملكوته. فيشير صفنيا إليهم قائلاً «وأُبقى فى وسطك (وسط صهيون) شعباً بائساً **ومسكيناً** فيتوكلون على اسم الرب» (صف٣:١٢). ويوضح إشعياء فى الآيات التى ذكرناها سابقاً أن الرب سينظر إليهم نظرة التقدير (إش٥٧:١٥، ٦٦:٢) ولأجلهم سيأتى حاملاً بشرى السماء (إش٦١:١). وفى مزامير المُلك الألفى نجد كلاماً كثيراً عنهم. فيَرِد ذكرهم أربع مرات فى مزمور ٧٢ «يدين شعبك بالعدل **ومساكينك** بالحق.. يقضى **لمساكين** الشعب.. لأنه ينجى الفقير المستغيث **والمسكين** إذ لا معين له. يُشفق على **المسكين** والبائس ويخلص أنفس الفقراء». وفى مزمور١٣٢:١٥ يقول عن صهيون فى فترة المُلك «طعامها أبارك بركة، **مساكينها** أُشبع خبزاً».

٥

طـوبـى للحـزانـى

"طوبى للحزانى لأنهم يتعزون"

(مت ٥:٤).

عجيبة هذه الطوبى حقاً. فكلمة «طوبى» كما نعرف تعنى مباركاً كما تعنى أيضاً مغبوطاً أو سعيداً. فكيف يكون الحزين سعيداً؟ وكيف يمكن أن نستخرج عطر السعادة من أشواك الألم؟! ثم إن أكثر ما تحاربه فلسفات البشر هو الحزن. فكيف يقول المسيح هنا «سعداء هم الحزانى»؟

مايقصده وما لا يقصده الرب

لكى نفهم قول الرب هنا يقتضينا هذا أن نوضح أن هناك أنواعاً من الحزن لا يمكن أن يقصدها الرب.

فهناك حزن خاطئ هو عند أصحابه هدف فى ذاته. إذ يظنون أنهم بحزنهم يرضون الله الذى لا يحب الفرحين، ولهذا تراهم معبسين واجمين. ولقد أوضح الرب فى نفس عظة الجبل أن هذا النوع من الحزن لا قيمة له. نعم لم يَقُل المسيح طوبى للعابسين، فالعبوسة مظهر المُرائين الذين يريدون أن يظهروا للناس فى صورة التقوى بينما هم منكرون قوتها (مت٦:١٦). ثم إن هذا الفكر بأن الله يكره الفرح ويسره حزننا، هو فكر شيطانى. فالشيطان، ابتداءً من

جنة عدن، يصوّر الله فى أذهان البشر بأنه لا يحب الخير لنا.

وهناك الحزن الطبيعى، مثل الحزن على الخسارة المادية أو على الفشل الزمنى. أو الحزن بسبب مرض أحد الأقرباء أو خيانة أحد الأصدقاء... وكما ذكرنا فى الطوبى الأولى أن المسكنة التى كان الرب يقصدها ليست هى الفقر المادى، نقول هنا أيضاً إن الحزن الذى يقصده الرب ليس هو الحزن الطبيعى. فهذا النوع من الحزن ليست له أية بركة روحية على الإطلاق.

لكننا نقرأ فى ٢كورنثوس٧: ١٠ عن «الحزن الذى بحسب مشيئة الله»

- إنه فى بدايته الحزن بسبب الخطية فىّ.
- وفى نضوجه هو الحزن وسط الظروف المحيطة بنا.
- وفى نُبله هو حزن المشاركة مع الآخرين.
- وفى سموه هو الحزن بسبب الشر الموجود فى العالم.

١ - لقد قال الرب فى التطويب الأول «طوبى للمساكين بالروح»، وبعدها قال «طوبى للحزانى». فإذ ينظر الإنسان إلى داخله لا يجد إلا الفقر الأدبى والروحى، إذ لا يسكن فيه، أي فى جسده، شيء صالح، فتكون النتيجة أنه يحزن بسبب حالته هذه وبسبب ما يفعله من خطايا أمام الله.

نعم إن المسكين بالروح إذا نظر إلى نفسه يقول باتضاع وشعور عميق «إنى هلكت» فيحزن، وينوح على حالته قائلاً مع إشعياء «ويل لى».

هذا الحزن يُشبه حزن العشار فى لوقا١٨، وهو يُنشيء توبة لخلاص. ولا يُشترط فى هذا الحزن أن يصحبه عويل أو تشنج لكنه حزن عميق وحقيقى وداخلى على ما فى قلب الإنسان من عدم توافق مع قداسة الله.. هذه هى خطة الله.. فكما أن آلام المخاض يجب أن تسبق أفراح الولادة هكذا ينبغى أن تحزن على خطاياك قبل أن تفرح بغفران المخلص لك (لو٧: ٣٧-٥٠)، تقرع على صدرك قبل أن تنزل إلى بيتك مُبرّراً (لو١٨: ١٣، ١٤)، تشعر بالأسف والأسى على حياتك الماضية قبل أن يمتعك الله بالحياة الجديدة المجيدة، تصرخ صرخة حزن اليأس فى ختام رومية ٧، قبل أن تتمتع بعزاء العتق فى بداية رومية ٨.

٢ - ثم هناك نوع آخر من الحزن المقدس أرقى من الحزن السابق. فالطريق الذى نعبره

هو بلغة الكتاب المقدس «وادى البكاء» لكننا إذ نعبره مُستندين على المسيح نصيّره ينبوعاً. وإذا وقعنا فى تجارب متنوعة نحسبه «كل فرح». وإذا كان لابد أن نُحزن يسيراً إلا أننا نبتهج، رغم هذا، بفرح لا يُنطق به ومجيد. فيتم فينا القول «كحزانى، ونحن دائماً فرحون» (٢كو٦: ١٠).

٣ - ثم هناك نوع من الحزن أرقى وأنبل هو حزن المشاركة مع الآخرين كقول الرسول «فرحاً مع الفرحين وبكاءً مع الباكين» (رو١٢: ١٥).

٤ - وأخيراً هناك الحزن بسبب الشر فى العالم، وهو من نوع حزن المسيح.

المسيح.. مُختبر الحزن

إن الوحى لم يسجل ولا مرة عن المسيح أنه ضحك، لكنه يسجل عنه أكثر من مرة أنه بكى. فمَنْ كان مثل سيدنا حزيناً ونائحاً، حتى قيل عنه «رجل أوجاع ومُختبر الحَزَن» (إش٥٣: ٣)؟ ومن المعروف أن حزن المسيح لم يكن بسبب شيء فيه. حاشا، فهو الوحيد الذى لم يعرف خطية، لكن ألم يبك المسيح عند قبر لعازر، إذ رأى ماسببته الخطية من نتائج مُرّة على البشرية (يو١١: ٣٥)؟! أوَلَمْ يبكِ مرة أخرى، لا على نتائج الخطية الحاضرة فحسب بل نتائجها المستقبلة، وذلك عندما تفكر فيما ينتظر أورشليم من ويلات رهيبة (لو١٩: ٤١)؟! هذه الخطية التى سببت لابن الله الدموع ألا تسبب لقديسى الله حزناً؟!

لذلك فما أكثر أسباب الحزن لكل مؤمن له شركة حقيقية مع الرب. فما هو شعور القديس عندما يتأمل فى شرور العالم التى جاوزت تصوّرات القلب؟ عندما يشاهد الحروب والارهاب وسفك الدماء هنا وهناك؟ ماهو شعوره عندما يرى الفجور والرذيلة سافرة بلا أقنعة ولا حياء؟ ماهو شعوره عندما يسمع الكلمات الصعبة والتطاول على شخص ربنا يسوع المسيح الله المبارك إلى الأبد؟ ما هو شعوره عندما يرى حتى المدعو عليهم اسم المسيح قد تحوّلوا بالقلب عنه وانحرفوا إلى خرافات لا حد لها؟! وعندما يرى المؤمنين يطلبون ما هو لأنفسهم لا ما هو ليسوع المسيح؟ نعم. عندما يتأمل القديس هذه الأمور حوله فماذا عساه أن يفعل سوى أن يشارك النبى الباكى إرميا قوله «مَنْ مُفرج عنى الحزن. قلبى فىَّ سقيم... يا ليت رأسى ماء وعينى ينبوع دموع فأبكى نهاراً وليلاً قتلى بنت شعبى» (إر٨: ١٨، ٩: ١). وأيضاً كلمات كاتب المزمور «جداول مياه جرت من عينىَّ لأنهم لم يحفظوا شريعتك» (مز١١٩: ١٣٦).

لأنهم يتعزون

لكن «طوبى للحزانى لأنهم يتعزون» إن عينى الرب على أولئك الذين تسبب لهم الخطية حزناً. فهو يعرف الذين يتنهدون وسط أورشليم على كل الرجاسات المصنوعة فى وسطها (حز٩:٤)، والذين يغتمون على انسحاق يوسف (عا٦:٦). أولئك النائحون نوحاً مقدساً سيعزيهم الرب فهو يسمع أناتهم وزفراتهم، ودموعهم محفوظة فى زقه (مز٥٦:٨) وفى وقته سيعطيهم جمالاً عوضاً عن الرماد، ودُهن فرح عوضاً عن النوح، ورداء تسبيح عوضاً عن الروح اليائسة (إش٦١:٣).

لكن متى يتعزون؟ سريعاً. فالرب لم يَقُل طوبى للحزانى لأنهم سيتعزون، بل لأنهم يتعزون.. إن الرب لا يحتمل ضيقة نفس المؤمن. تشجع أيها الأخ الحزين فإن عزاء الرب قريب «لأنه لم يحتقر ولم يرذل مسكنة المسكين ولم يحجب وجهه عنه بل عند صراخه إليه استمع» (مز٢٢:٢٤).

ونلاحظ أن هذا مبدأ عمومى ينطبق على كل شيء.. فالذى ينوح لأجل القداسة سيفرح لأنه حصل عليها، ومَنْ يبكى على النفوس سيكون أول مَنْ يفرح بخلاصها. وقديماً قال المرنم فى المزمور «الذين يزرعون بالدموع يحصدون بالابتهاج. الذاهب ذهاباً بالبكاء حاملاً مبذر الزرع، مجيئاً يجئ بالترنم حاملاً حُزمه» (مز١٢٦:٥،٦).

«عند المساء يبيت البكاء، وفى الصباح ترنم» (مز٣٠:٥). البكاء فى المساء.. وها نحن نعيش الآن فى ليل هذا العالم، العالم المُظلم.. وها نحن نعبر الوادى، وادى البكاء. لكن سيمضى المساء بعد قليل، وسنجتاز قريباً الوادى وسينتهى البكاء ويأتى الصباح «وفى الصباح ترنم».

إن التعزية الكاملة تنتظرنا فى ذلك الصباح الصحو الذى بلا غيوم، وذلك النهار الكامل واليوم الأبدى حيث يتم قول الرائى «وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم. والموت لا يكون فى ما بعد ولايكون حزن ولا صراخ ولا وجع فى ما بعد، لأن الأمور الأولى قد مضت، وقال الجالس على العرش ها أنا أصنع كل شيء جديداً» (رؤ٢١:٤،٥).

التطبيق النبوى

إن هذا التطويب هو مثل كل عظة الجبل له تطبيقه المباشر والواضح على البقية التقية مستقبلاً. فأولئك المساكين بالروح (كما رأيناهم فى الفصل السابق) كم سيحزنون وتنكسر

قلوبهم على أورشليم وما أصابها على أيدى الوحش والنبى الكذاب (حز٩:٤). نعم فهم سيتبعون الخروف حيثما ذهب (رؤ١٤:٤)، سيتبعونه فى طريق الأحزان على أورشليم، سيغتمون وينسحقون على حالها تماماً كما بكى هو قبلاً عليها.

لكن التعزية آتية بعد أحزان سنى الضيقة. «افرحوا مع أورشليم وابتهجوا معها يا جميع مُحبيها. افرحوا معها فرحاً ياجميع النائحين عليها. لكى ترضعوا وتشبعوا من ثدى تعزياتها. لكى تعصروا وتتلذذوا من درة مجدها. لأنه هكذا قال الرب هأنذا أدير عليها سلاماً كنهر ومجد الأمم كسيل جارف فترضعون وعلى الأيدى تُحملون، وعلى الركبتين تُدللون. كإنسان تعزيه أمه هكذا **أعزيكم** أنا وفى أورشليم **تعزون**. فترون وتفرح قلوبكم وتزهو عظامكم كالعُشب» (إش٦٦: ١٠-١٤ أنظر أيضاً إش٤٠: ١، ٢، ٤٩: ١٣، ٥١: ١١، ١٢؛ إر٣١: ١٢، ١٣؛ صف٣: ١٥-١٨، زك١: ١٧..الخ).

٦

طوبى للودعاء

"طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض"

(مت ٥:٥).

كان اليهود فى أيام المسيح واقعين تحت عبودية الرومان وسيادتهم. لذا فقد كانوا ينتظرون، بفارغ الصبر، مجىء المسيا كيما يحررهم بالقوة والثورة والعنف من هذه العبودية المُذلة. لقد كانوا يتوقعون المسيا قائداً حربياً، فإذ بهم، على عكس كل توقعاتهم، يسمعونه، له المجد، يقول لهم «طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض».

الوداعة وارتباطها بالتطويبين السابقين

دعنا أولاً نرى الارتباط بين هذا التطويب وبين ما سبقه من تطويبين آخرين:

التطويب الأول هو للمساكين بالروح. وفهمنا قبلاً لماذا هم مساكين بالروح. لقد فتشوا فى داخلهم فتيقنوا أنه ليس ساكن فيهم، أى فى جسدهم شىء صالح. هؤلاء تمت فيهم أيضاً كلمات التطويب الثانى؛ إذ أنهم أمام حالهتم الداخلية حزنوا. و «طوبى للحزانى لأنهم يتعزون».

لكن.. أنت تعلم كم هو أسهل على المرء بكثير، أن يقول عن نفسه إنه خاطئ أو ردىء، من أين يقولها شخص آخر عنه. إن الأمر الثانى يحتاج إلى تدريب أعمق. وهنا كأن الرب

يطوّب مَنْ وصل إلى هذا العُمق الأبعد فى شعوره برداءة حالته. فالوديع هو الذى يشعر عميقاً فى نفسه بأنه لا شيء أبداً، حتى أنك مهما وجهت إليه من كلام جارح، ومهما نظر الناس إليه بنظرات عدم التقدير، فإنه لا يُثار.

الوداعة إذاً هى نقيض البر الذاتى. فالبار فى عينى نفسه، والوديع هما على طرفى نقيض. الأول لا يطيق أن يوجه أحد إليه لوماً. فهو فى نظر نفسه أحسن ما يكون.. إنه مقتنع بنفسه، مغرور بذاته. أما الوديع، إذ يعلم عميقاً كم فى نفسه من رداءة، فإنه مهما قال الناس عنه، فهو يشعر أنه أردأ. ولهذا فأنت لا يمكنك أن تُثيره. لقد قيل[٦] بحق إن الوديع هو الذى يتعجب لأن الله والناس يفكرون فيه هكذا، ويعاملونه هكذا، إذ يشعر أنه لا يستحق هذا الكَرَم فى المعاملة. إن الوديع إذاً هو شخص يشعر أنه لا يوجد فيه شيء يستحق أن ينشغل به، أو أن يدافع عنه. إنه فى نظر نفسه لا شيء.

من كل ما تقدم نفهم أن الوداعة استطراد لنفس الصفات العظيمة التى امتدحها الرب قبلاً.. أعنى المسكنة الروحية، والحزن الروحى على ذلك. بل لعله (أى الوديع) تجاوز تلك المرحلة من الحزن إذ تيقن أنه ليس فيه شيء صالح!

أمثلة من التاريخ المقدس

ومن أشهر الودعاء فى التاريخ المقدس نتذكر:

موسى، الذى عندما تكلمت أخته مريم وأخوه هرون عليه، بسبب المرأة التى تزوجها، فإنه لم يَثُر دفاعاً عن نفسه، بل بالعكس يسجل له الوحى فى هذا المشهد بالذات «أما الرجل موسى فكان حليماً* جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض» (عد١٢:٣). ونلاحظ أن موسى لم يكن بحسب الطبيعة شخصاً رقيقاً أو خانعاً. لقد سبق له أن قتل رجلاً وطمره فى الرمل لأنه ضرب واحداً من إخوته. ولم يكن موسى ضعيف الشخصية، فلقد واجه فرعون بكل غطرسته، وتحداه فى كل شجاعة الإيمان بالله. ولم يكن موسى شخصاً سلبياً لا يحزم الأمور، فما كان أعظم تصرفه يوم رقص بنو إسرائيل للعجل الذهبى، فلقد كسر لوحى الشريعة أسفل الجبل، ثم أخذ العجل الذى صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار

* ربما يكون الفرق بين الوداعة والحلم (انظر ٢كو١٠:١) أن الوداعة بركة داخلية «الروح الوديع». أما الحلم فهو مظهر خارجى لذلك الشيء الثمين الموجود فى الأعماق، أعنى الوداعة (انظر ١بط٣:٤). الحلم هو ما يراه الناس من تصرفك إذا أُسيء إليك بفعل فظ خشن، أما الوداعة فتحددها نظرتك الحقيقية لنفسك فى الداخل. الوديع يشعر فى الأعماق أنه لا يملك شيئاً، والحليم هو ذاك الذى يملك نفسه!!

ناعماً، وذرّاه على وجه الماء وسقى بنى إسرائيل، ثم وبّخ أخاه الأكبر توبيخاً شديداً حتى قال له هرون «لا يحمَ غضب سيدى». ولم يكتفِ بذلك، بل وقف موسى فى باب المحلة وقال «مَنْ للرب فإلىَّ» وكل من اجتمع إليه، قال لهم ارجعوا من باب إلى باب فى المحلة، واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه الذين هم متمسكون بعبادة العجل (خر٣٢). وهكذا أنت تراه يتصرف لمجد الله بكل حزم وعزم، لكن عندما يُساء إليه شخصياً ما كان يُثار!!

جدعون : ومن بين الودعاء أيضاً الذين لهم الذكرى العطرة؛ جدعون أحد قضاة إسرائيل، الذى أعطى جواباً لطيفاً على كلام سبط أفرايم الخشن. فلما خاصمه رجال أفرايم بشدة لأنه لم يدعُهم عند ذهابه للحرب التى انتصر فيها، أجابهم بكل رقة بما معناه: أنا لم أفعل شيئاً يُذكر أمام النُصرة العظيمة التى أحرزتموها أنتم. ثم إن أردأ مَنْ فى كل سبطكم، أفضل من أفضل مَنْ فى عشيرتى (قض٨)!!

وهكذا أنت تجد أنك لا تستطيع أن تخاصم* شخصاً وديعاً وصل إلى نهاية ذاته! وحقاً إن مَنْ كان فى أسفل مكان، لن يخشى على نفسه من السقوط!

الوديع الأعظم

أما الوديع الأعظم، الذى ليس له مثيل ولا شبيه، فهو ربنا يسوع المسيح الذى قال عنه الوحى «لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد فى الشوارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة مدخنة لا يطفىء» (مت١٢: ١٩، ٢٠). وهو الذى قال «تعلموا منى لأنى وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم» (مت١١: ٢٩).

لقد قال الرب، له المجد، هذا القول العظيم بعد أن تأسف لرفض الناس له. أوَلَم يكن أمراً مُحزناً حقاً أن المسيح المُحب، والذى أتى بيد مملوءة بالرحمة والخير للإنسان، لا يجد سوى الرفض من هذا العالم الشرير ومُدنه المتكبرة؟ لكنه بدل الشكوى، نجده فى ذلك الوقت يتهلل بالروح ويقول «أحمدك أيها الآب.. لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال. نعم أيها الآب لأن هكذا صارت المسرة أمامك».

فالمسيح إذاً بحسب متى ١١ هو:

---

* وعليه فتكون الحساسية الزائدة (بمعنى أن أية كلمة أو تصرف يوجه إلى الشخص يجرح مشاعره) إنما دليل على أن هذا الإنسان بعيد عن الوداعة.

مسكين بالروح إذ رُفض من شعبه
وبالتالى فهو حزين ويّخ المدن
لكنه وديع إذ تهلل وحمد الآب!

ومن هذا نتعلم أن الوداعة تتجاوز الحزن بسبب الأمور المعاكسة لطبيعة الله هنا على الأرض. إنها أكثر من ذلك. إنها ذلك الهدوء الجليل نتيجة ترك الأمور بين يدى الله، والخضوع له، وقبول ما يسمح به بشكر حتى ولو كان مُضاداً لطبيعتنا ومُذلاً لكرامتنا.

أوَلَم تكن وداعة المسيح منقطعة النظير؟ ففى وسط أحزانه الكثيفة نتيجة رفض الناس له، فإنه خضع لمشيئة الله، بل وتهلل بالروح!

قارئى العزيز: هل أتعبك ذلك العالم المتكبر؟ هل تعبت من جحود البشر وخيانتهم؟ هل فشلت تماماً فى أن تفسر الأمور المعاكسة معك، ورفض الناس وجحودهم لك؟

إن الوديع الأعظم، ربنا ومخلصنا يسوع المسيح ينادى قائلاً «تعالوا إلىَّ يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم». ويستطرد قائلاً «تعلموا منى لأنى وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم» (مت ١١: ٢٨، ٢٩).

طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض

قديماً التجأ إلى داود فى زمان رفضه، كل رجل متضايق، وكل مَنْ كان عليه دين، وكل رجل مُرّ النفس. فإن كنت متضايقاً أو فى دين أو تشعر بمرارة فى نفسك إلجأ سريعاً إلى ابن داود، ورب داود.. فهو مُريح التعابى ومعزى النفوس، سيُريحك، ويوفى دينك، ويحوّل المرارة إلى السلامة. فيمكنك إذ ذاك أن تشترك مع داود وجماعته فى القول الكريم الوارد فى مزمور٣٤ «بالرب تفتخر نفسى، يسمع **الودعاء** فيفرحون». وبالتالى تتم فيك كلمات المسيح «طوبى للودعاء».

وبالنسبة للجزء الثانى من هذه الآية فسيكون لها فى المستقبل انطباق كامل على الشعب الأرضى، كما سنرى بعد قليل. أما الآن بالنسبة لنا نحن الذين ليست لنا البركات الأرضية، فإننا لن يمكننا أن نتمتع عملياً ببركاتنا الروحية بدون الوداعة (قارن أفسس٤: ١-٣). ونذكر هنا ما قاله أحد رجال الله «الوداعة تحتفظ بالكثير».

ولكن دعنا نلاحظ أن الرب لم يَقُل: كونوا ودعاء لكى ترثوا الأرض. فلا أحد يقدر أن يجعل نفسه وديعاً، تماماً كما لا يقدر الكوشى أن يغير جلده أو النمر رقطه. فالإنسان

الطبيعى ليس وديعاً، بل إن الوداعة هى واحدة من ثمار الروح المُشار إليه فى غلاطية٥.

كما نلاحظ أيضاً إن كل مؤمن حقيقى مدعو ليكون وديعاً. إنها ليست صفة لبعض المؤمنين دون البعض الآخر، إذ يقول المسيح «تعلموا منى لأنى وديع». ولقد احتاج الله إلى أربعين سنة ليعلم موسى هذه الصفة النادرة؛ الوداعة.

من كل هذا نخلص إلى إن الوداعة صفة نتعلمها فى مدرسة الله، مصدرها روح الله، ونموذجها مسيح الله.

التطبيق النبوى

مَن هم الذين يمتلكون الأرض اليوم؟ ليسوا هم الودعاء على أى حال، بل هم الأقوى، وربما الأعنف والأشرس. وهذا ليس بعجيب، لأن الأرض اليوم «مُسلَّمة ليد الشرير» (أى٩: ٢٤). والشيطان هو رئيس هذا العالم. لكن قريباً عندما يمتلك المسيح العالم كله، فى المُلك الألفى السعيد الذى تنتظره الخليقة، ستتم كلمات مزمور٣٧: «بعد قليل لا يكون الشرير. تطلع فى مكانه فلا يكون. أما الودعاء فيرثون الأرض، ويتلذذون فى كثرة السلامة».

هذا ما سيجد تطبيقه الكامل على البقية التقية من الشعب الأرضى، تلك البقية الوديعة التى سترث الأرض مع المسيح. فهم سيتبعون الوديع الأعظم ربنا يسوع ذاك الذى فى إشعياء٥٣: ٧ نقرأ عن وداعته «ظُلِم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه. كشاة تُساق إلى الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه»؛ ولهذا فليس عجيباً أن يرث وأن يمتلك الأرض وما عليها (ع١٢). وفى مزمور ٢٢ نقرأ كم كان وديعاً ذاك الذى قال عن نفسه «أما أنا فدودة لا إنسان» (ع٦)؛ فليس عيباً أن يملك وأن يتسلط على الأمم (ع٢٨). فالذى أخلى نفسه كالله ووضع نفسه كالإنسان (فى٢: ٧، ٨)، سيخضع له كل شىء (فى٣: ٢١)، والذى خضع لله وسلم له (١بط٢: ٢٣) قد خضعت له الملائكة والسلاطين والقوات (١بط٣: ٢٢).

وبينما الودعاء من الشعب القديم سيرثون الأرض، فإننا نحن فى أثناء ذلك سنكون قد وصلنا إلى ميراثنا المحفوظ فى السماوات لأجلنا (١بط١: ٤) حيث أننا ورثة الله ووارثون مع المسيح (رو٨: ١٧).

٧

طوبى للجياع والعطاش إلى البر

"طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يُشبعون"

(مت ٥:٦).

الآية التى ندرسها الآن وهى مكوّنة من سبع كلمات تحتوى على بشارة سارة لكل شخص غير راضٍ عن حالته الروحية. هى إنجيل مُصغّر، هى بشارة نعمة الله بصورة مبسطة وبكلمات مباشرة. فهى تشتمل على التعليم الأوّلى والأساسى للإنجيل، وهو أن الخلاص بالنعمة، وأنه عطية الله المجانية لكل من يشعر بالاحتياج !

سعداء هم الجياع والعطاش

إن الناس جميعاً ينشدون السعادة والفرح، ويسعون إلى ذلك سعياً حثيثاً. لكن سعيهم هذا لا طائل من ورائه، ولماذا ؟ لأنهم بالأسف يتجاهلون المسببات للحزن. يتجاهلون أنهم بابتعادهم قلبياً وروحياً عن الله، فإنه من المستحيل أن يكونوا سعداء مهما قدم العالم لهم من المسرات والملذات، لأن «كل مَنْ يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً» (يو٤:١٣).

قال أحد الأطباء المؤمنين[٧] إن الألم هو بركة عُظمى أعطاها الله لنا لتساعدنا على اكتشاف نوع المرض الذى نعانى منه، ليمكننا علاجه علاجاً صحيحاً. والطبيب الذى لايهتم سوى بإزالة أعراض الألم من مريضه الذى يعالجه، ليس فقط يعمل ما هو خطأ فى ذاته، بل أيضا يعمل ما هو خطر على صحة مريضه، قد تؤدى به إلى الموت.

ونفس الأمر فى المجال الروحى، فكم من الأشخاص عندما يحسّون بالوحدة والاكتئاب، لا يحاولون، فى نور حضرة الله، أن يعرفوا سبب ذلك، بل تجدهم يسرعون إلى الملاهى والمسرات، إلى الكأس والشراب لعلهم ينسون همومهم. لكن يبقى السؤال المهم قائماً: ماهو سر التعاسة والشقاء فى القلب البشرى؟ إن هذه الأمور كلها عالجت الأعراض لكنها لم تفعل شيئاً للداء ذاته.

إن سر الشقاء هو ابتعاد الإنسان عن الله، مصدر البركة والفرح. لقد خلقنا الله على صورته وكشبهه لتكون لنا معه علاقة وشركة.. لكن الخطية أبعدتنا عن الله وآثامنا صارت فاصلة بيننا وبين إلهنا. ولهذا فلن نشعر بالاكتفاء والشبع إلا إذا عُدنا إليه من جديد.

ولأن الخطية هى الداء، فطوبى لكل شخص عرف داءه، وبدأ يحن لعيشة البر. طوبى لمن يريد التوافق مع الله، ويكون هذا هو أهم رغبة فى حياته، أمامها تصغر كل الرغبات الأخرى أو تتلاشى.

تقول الآية: إن الذى يجوع ويعطش إلى البر هو شخص سعيد، هو سعيد، لأنه حتماً سيُشبع. ويا لها من كلمات موجهة لكل قلب حزين على ما وصل إليه، ولكل يائس من حاله.

إن الجوع فى ذاته يدل على الحياة، فالميت لا يجوع. لذلك طوبى لمن يجوع ويعطش إلى البر، إن هذا الشخص بدأ يشعر بافتقاره الشخصى إلى البر الذى به يظهر أمام الله. وهو لم يَعُد مكتفياً بمظاهر البر الخارجية، مثل تلك التى كان يفعلها الكتبة والفريسيون أيام المسيح من ترديد للصلوات، أو ذهاب إلى المجامع، أو امتناع عن بعض الأكلات، أو عمل الخير.. إنه يشعر أن هذا كله خارجى ولا قيمة له على الإطلاق؛ فالمرض أعمق، والضربة فى القلب لا فى الجلد.. انه جائع وعطشان إلى البر، ويعلم أن أعمال بره هى كثوب عدة بلغة إشعياء النبى (٦:٦٤)، أى مجرد خرق نجسة لا يمكن أن يظهر بها فى حضرة الله القدوس. أو هى نفاية بلغة الرسول بولس (فى٣:٨). والنفايات ليست فقط لا قيمة لها، بل هى أيضاً مُضرّة، وينبغى التخلُّص منها فوراً. أو هى رجس قدام الله كما قال عنها المسيح فى لوقا١٦ : ١٥، بمعنى أن الله يبغضها وسوف يحاسب عليها ويدينها.

ماهو موقفك؟

والآن، عزيزى .. هل أنت مُكتفٍ بما أنت فيه؟ هل أنت مقتنع بأعمالك أو تقواك، وتعتقد أنك تقدر أن تظهر بهذه الأعمال أمام الله القدوس الذى عيناه تخترقان أستار قلبك

وتعرفان مايجول بفكرك؟ أم أنك جائع وعطشان إلى البر الحقيقى؟!

لقد سبق هذا التطويب الرابع ثلاثة تطويبات؛ أولاً: طوبى للمساكين بالروح، الذين لم يجدوا فى داخل نفوسهم أى صلاح. ثانياً: طوبى للذين إذ أدركوا هذا الحق، فقد حزنوا على حالهم. وثالثاً: طوبى لمن اقتنع عميقاً فى داخل نفسه أنه لا شىء ولا يستحق شيئاً. لكن مع أهمية كل ما سبق، فإنه لا يكفى. نعم لا يكفى أن أحزن على خطايا الماضى، بل يجب أن أتبع ذلك بالجوع إلى البر المستقبل.

ربما يكون السبب فى عدم شبعك إلى الآن أنك لم تَجُع بعد. ومن قصة الابن الضال (لوقا ١٥) نتعلم أن الجوع كان خطوة لازمة فى طريق الشبع. بل لقد قال رجل الله داربى[٨]: لا يكفى الجوع وحده، بل يلزم التضور جوعاً. فعندما تضور الابن جوعاً فى الكورة البعيدة، وعندما لم يجد ولا حتى طعام الخنازير، وعندما قال «أنا أهلك جوعاً»، فإنه، إذ ذاك، لم يكن بعيداً عن الوليمة العظيمة والعجل المسمّن على مائدة أبيه. ويقول إشعياء «البائسون والمساكين طالبون ماءً ولا يوجد. لسانهم من العطش قد يبس. أنا الرب أستجيب لهم» (إش٤١: ١٧).

إن الإنجيل يقدم لنا خبراً عظيماً عن بر عجيب مقدم مجاناً، به وحده يمكننا أن نظهر أمام الله. «المسيح يسوع الذى صار لنا حكمة من الله وبراً وقداسة وفداء» (١كو١: ٣٠). أما الكُلفة العجيبة كيما نتمتع بهذا البر فهى أن الله جعل ربنا يسوع المسيح عندما عُلق على الصليب، جعله خطية لأجلنا.. «لأنه جعل الذى لم يعرف خطية، خطية لأجلنا، لنصير نحن بر الله فيه» (٢كو٥: ٢١).

طوباك إن اشتقت إلى ذلك البر، فإنك ستُشبع. طوباك إن اشتقت أن تكون فى الحالة المتوافقة مع الله، واتجهت بقلبك إلى صليب المسيح. طوباك إن رغبت مُخْلصاً فى التحرر من سلطان الخطية ووضعت ثقتك فى روح الله القدوس. طوباك إن رغبت فى أن تكون لك شركة عملية مع الآب ومع ابنه فى النور، فإن الآب السماوى سيعمل فيك أن تريد وأن تعمل من أجل المسرة.

معنى الجوع والعطش

لكن لماذا استخدم الرب تشبيه الجوع والعطش هنا؟

توجد على الأقل ثلاثة أسباب :-

أولاً: لأن الجوع والعطش إنما يدلان على شعورنا أنه ليس بوسعنا، بمحاولاتنا الشخصية، الوصول إلى هذا البر، بل هو أمر سنحصل عليه من خارجنا، تماماً كما يأتينا الطعام والشراب من خارجنا.. إن أولئك الجياع والعطاش إلى البر هم أولاً المساكين بالروح أى الذين تيقنوا من فقرهم الروحى وعوزهم القلبى.

ثانياً: لأن الجوع والعطش، ينشئان فى النفس رغبة داخلية قوية، وهى رغبة مؤلمة لا تنتهى إلا بالأكل والشرب - انها طلبة مُلحّة ومستمرة إلى الطعام والماء، وليست مجرد رغبة عابرة. ونبوة إشعياء توضح لنا أن الجائع والعطشان، حتى فى نومه، يحلم بالأكل والشرب (إش٢٩:٨). إن حواس الإنسان كلها، فى هذه الحالة، تكون صارخة تطلب الرّى والشبع.

ثالثاً: لأن الجائع العطشان لا يمكنك أن تقدم له بديلاً عما يرويه أو يُشبعه. إن المال الوفير لن يُرضى الشخص الذى يحس بوطأة الجوع والعطش. إن الجائع والعطشان للبر كأنه يقول للرب: أعطنى البر وكفانى، أعطنى القداسة وإلا فخُذ نفسى، وإنى بهما لغنى حتى وإن لم أكن أمتلك شيئاً آخر إلى جوارهما.

الجياع والعطاش إلى البر.. يُشبعون

ما أعجب هذا التطويب. وما أروع أسلوب الرب فى الاستجابة لنا. فمهما كان شعور النفس بالحاجة الروحية، فإن من جانب الله يوجد دائماً ما يكفى. فكلمة يُشبعون التى ذكرها المسيح هنا تعنى أنهم سيمتلئون تماماً «لأنه أشبع نفساً مشتهية. وملأ نفساً جائعة خيراً» (مز١٠٧:٩). ولاحظ أنه لم يَقُل «لأنهم سيُشبعون» بل «لأنهم يُشبعون» فرّد الرب سريع وفورى بمجرد إحساس النفس بالحاجة.

أما إذا كنت أيها القارئ العزيز، لم تَجُع بعد. فدعنى أسألك: هل هناك أشياء تُفسد شهيتك الروحية. إذاً ابتعد عنها فوراً وتَخَلّص من أى شىء فى حياتك أو فى بيتك أو فى مكتبتك يتلف شهيتك الروحية. فإنك إن لم تجع للبر، لن تشبع.

قال المسيح «من يُقبل إلىَّ فلا يجوع، ومن يؤمن بى فلا يعطش أبداً» (يو٦:٣٥).

والبر فى العهد الجديد أنواع؛

فهناك البر الشرعى الذى نحصل عليه بالإيمان بالمسيح «إذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح» (رو٥:١)، وذلك لأن الله «جعل الذى لم يعرف خطية خطية لأجلنا

لنصير نحن بر الله فيه» (٢كو٥: ٢١). ثم هناك البر العملى الذى ينبغى أن نظهره فى حياتنا إذ أن نعمة الله المخلصة.. معلمة إيانا.. ونعيش بالتعقل والبر والتقوى (تى٢: ١١، ١٢). وأخيراً هناك البر الكامل الذى سنتمتع به عند مجىء المسيح. وكل صور البر السابقة مرتبطة بصورة أو بأخرى بالمسيح نفسه.

فالإيمان بالمسيح المصلوب يمتعك بالبر الشرعى أمام الله القدوس.

والشركة مع المسيح الممجد فى السماء تمتعك بالبر العملى أمام الناس.

ومجىء المسيح قريباً لاختطافنا سيمتعنا بالبر الكامل «نكون مثله لأننا سنراه كما هو» (١يو٣: ٢)، عندها سنتمتع بالشبع الكامل وتتم كلمات المرنم الحلوة «أما أنا **فبالبر** أنظر وجهك **أشبع** إذا استيقظت بشبهك» (مز١٧: ١٥).

التطبيق النبوى

دعنا الآن نلقى نظرة على البُعد النبوى لهذا التطويب.

إن البقية التقية فى المستقبل، بخلاف إسرائيل يوم مجىء المسيح إليهم فى المرة الأولى، لن يتكلوا على برهم، بل سيعرفون أن أعمالهم نجسة (إش٦٤: ٦) وثيابهم قذرة (زك٣: ٣). ولذلك فسينتظرون البر من خارجهم، تماماً كما يأتينا الطعام والشراب من خارجنا. فإسرائيل سابقاً «إذ كانوا يجهلون بر الله، ويطلبون أن يُثبتوا بر أنفسهم لم يخضعوا لبر الله» (رو١٠: ٣). أما البقية، فإنهم سيقولون مع داود الذى انحرف عن الطريق الصحيح السوى وسفك الدم الزكى، لأن داود يقول «فى تطويب الإنسان الذى يحسب له الله براً بدون أعمال؛ طوبى للذين غُفرت آثامهم وسُترت خطاياهم. طوبى للرجل الذى لا يحسب له الرب خطية» (رو٤: ٦-٨).

هكذا ستكون تلك البقية الذليلة فى فترة الضيقة العظيمة، ومن خلال تدريبات الرب لهم فى الضيق، ستتم فيهم كلمات صفنيا «اطلبوا الرب يا جميع بائسى الأرض.. اطلبوا **البر**. اطلبوا التواضع، لعلكم تسترون فى يوم سخط الرب» (صف٢: ٣).

ويا للشبع الذى ستتمتع به تلك البقية البائسة «هاأيام تأتى يقول الرب وأقيم الكلمة الصالحة الى تكلمت بها إلى بيت إسرائيل وإلى بيت يهوذا. فى تلك الأيام وفى ذلك الزمان أنبت لداود غصن البر فيجرى عدلاً وبراً فى الأرض. فى تلك الأيام يخلص يهوذا وتسكن أورشليم آمنة. وهذا ما تتسمى به : الرب برنا» (إر٣٣: ١٤-١٦). وأيضاً «إنما بالرب البر والقوة... بالرب يتبرر ويفتخر كل نسل إسرائيل» (إش٤٥: ٢٤، ٢٥).

لكن لن يكون جوع تلك البقية فقط تعبيراً عن حاجتهم الشخصية للبر أمام الله، بل أيضاً أن تسير الأمور على الأرض بالبر، وذلك عندما يتسلط على الناس بار (٢صم٢٣:٣). وفى هذا أيضاً سيُشبعون. «تمهد أيها المستقيم سبيل الصديق. ففى طريق أحكامك يارب انتظرناك. إلى اسمك وإلى ذكرك شهوة النفس. بنفسى اشتهيتك فى الليل. أيضاً بروحى فى داخلى إليك أبتكر. لأنه حينما تكون أحكامك فى الأرض يتعلم سكان المسكونة العدل» (إش٢٦:٧-٩). عندئذ ستتم كلمات إشعياء النبى «هوذا **بالعدل** يملك ملك، ورؤساء بالحق يترأسون» (إش٣٢:١)، وكلمات دانيال النبى «يؤتى **بالبر الأبدى**» (دا ٩:٢٤) وكلمات ملاخى التى يختتم بها العهد القديم «لكم أيها المتقون اسمى تُشرق **شمس البر** والشفاء فى أجنحتها» (ملا٤:٢).

٨

طـوبـى للـــرحـمـاء

"طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون"

(مت ٥:٧).

هــو التطويب الخامس، وبه - كما يرى الكثير من الشرّاح - بدأ الرب مجموعة جديدة من التطويبات. فمجموعة التطويبات السُباعية التي تُفتتح بها موعظة الجبل تنقسم كباقي سُباعيات إنجيل متى إلى ٤+٣. الأربعة رقم الأرض، فجاءت التطويبات الأربعة الأولى لتصوّر لنا صفات الانسان الكامل على الأرض. والثلاثة هو رقم السماء، فأتت الثلاثة التطويبات التالية لتوضح لنا الصفات السماوية ظاهرة في أُناس يعيشون على الأرض.

أو يمكن القول بأن التطويبات الأربعة الأولى: طوبى للمساكين بالروح، طوبى للحزانى، طوبى للودعاء، طوبى للجياع والعطاش، تعبر عن احتياج الإنسان، ونرى فيها إنساناً متشوقاً إلى خلاص نفسه. أما الثلاثة الأخيرة فتُرينا إياه وقد امتلك الخلاص فما عادت احتياجاته هي التي تشغله، بل تغيّرت نظرته إلى خارجه، فظهرت فيه الرحمة والنقاوة والسلام.

مجموعة الصفات الأولى موضوعها البر، والثانية النعمة. فليس فقط مطلوباً من تلميذ المسيح أن يُظهر براً مختلفاً عن بر الكتبة والفريسيين، بل أن يُظهر أيضاً النعمة التي لا يعرفها أولئك على الإطلاق.

ويمكن عمل مقارنة بين التطويبات الأربعة الأولى والتطويبات الأربعة التالية هكذا:

في التطويب الأول «طوبى للمساكين بالروح»، لكن في التطويب الخامس «طوبى للرحماء» أو بلغة الحكيم في العهد القديم «من يرحم المساكين فطوبى له» (أم١٤: ٢١).

في التطويب الثاني «طوبى للحزانى» إنهم حزانى على الخطية، لكنهم في التطويب السادس إذ حصلوا على العطية تم فيهم القول «طوبى للأنقياء القلب».

التطويب الثالث «طوبى للودعاء» الذين لا يحتدون ولا يشورون، لكن في التطويب السابع هم يشيعون ذات جو السلام على من حولهم «طوبى لصانعي السلام».

التطويب الرابع «طوبى للجياع والعطاش إلى البر»، ولقد حصلوا عليه بل وصاروا مضطهَدين بسببه، فتم فيهم التطويب الثامن «طوبى للمطرودين من أجل البر»!

كيف تصبح رحيماً؟

بمقارنة هذه العظة بمثيلتها في لوقا٦ نجد الرب يقول هناك «كونوا رحماء» ثم يُضيف «كما أن **أباكم أيضاً رحيم**» (ع٣٦). من هذا نتعلم أننا نكتسب الرحمة من صيرورتنا أولاداً لله. فالناس بصفة عامة لا يعرفون الرحمة كما تشهد عن ذلك معدلات السرقة والقتل والإرهاب. يصف الوحي الناس بأنهم «بلا فهم ولا عهد ولا حنو ولا رضى **ولا رحمة**» (رو١: ٣١). ويقول الحكيم إن «مراحم الأشرار قاسية» (أم١٢: ١٠)!! فهل يمكن أن يتحول إنسان هذا وضعه إلى شخص رحيم؟

الإجابة: نعم، لكن ليس بمجهوده هو، بل من مجرد رحمة الله، كما حدث فعلاً مع شاول الطرسوسي، ذلك الوحش المفترس الذي كان ينفث تهدداً وقتلاً على تلاميذ الرب، الذي حبس في سجون كثيرين من القديسين، ووافق على قتلهم، وفي كل المجامع كان يعاقبهم مراراً كثيرة ويضطرهم إلى التجديف، وطردهم إلى المدن التي في الخارج. ومع أن شاول كان من طبقة البشر العُليا، فكان مواطناً رومانياً أصيلاً، كما كان يهودياً من المذهب الأضيق، مذهب الفريسيين، لكن لا المدنية الرومانية، ولا فلسفات الاغريق التي كان يتقنها، ولا حتى تعاليم ناموس موسى كانت لتغير قلبه، بل اللقاء العجيب مع المسيح هو الذي غيره.

وعندما يتحدث الرسول في رسالته الأولى إلى تيموثاوس يذكر مرتين أنه رُحم فيقول «أنا الذي كنت قبلاً مجدفاً ومضطهداً ومفترياً، لكنني **رُحمت**... لكنني... **رُحمت**» (١تي١: ١٣، ١٦)، من ثم أمكنه أن يُظهر الرحمة.

إن معجزة الولادة من فوق هى التى تُكسب الإنسان صفة الرحمة كأبيه الذى فى السماوات، فالله بصفة عامة يُعامل البشر بالرحمة المترفقة بهم فى كل يوم، كقول المرنم «ما أكرم رحمتك يا الله، فبنو البشر فى ظل جناحيك يحتمون» (مز٣٦: ٧). لكن غناها يظهر فى تعامله مع الخطاة لخلاصهم «الله الذى هو **غنى فى الرحمة** من أجل محبته الكثيرة التى أحبنا بها، ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح» (أف٢: ٤، ٥). حق للنبى أن يقول «من هو إله مثلك غافر الإثم وصافح عن الذنب.. يعود يرحمنا، يدوس آثامنا وتطرح فى أعماق البحر جميع خطاياهم» (مى٧: ١٨، ١٩).

ماهى الرحمة؟

ليست الرحمة مرادفة للتساهل. فالرحمة، كما ذكرنا، صفة الله، «كما أن أباكم رحيم»، وعليه فلا يمكن أن نعطى تعريفاً للرحمة يتعارض مع صفات الله. إن رحمة الله للإنسان لم تكن ضد الحق ولا على حساب الحق. وأوضح إعلان لرحمة الله كان فى الصليب. هناك «الرحمة والحق التقيا» (مز٨٥: ١٠)، وعليه فلا يجب أن نفسر الرحمة على أنها نوع من التسيب أو التساهل.

والرحمة تختلف عن النعمة فى أنه بينما النعمة تتجه إلى ما فعله الإنسان من خطايا وآثام، فإن الرحمة تتجه لا إلى ما عمله بل إلى ما هو عليه. الرحمة تتعامل مع أعراض المرض، والنعمة تعالج السبب. فخطايانا وآثامنا ما كان يصلح أن تواجهها سوى نعمة الله؛ ولهذا فقد «تبررنا **بنعمته**» (تى٣: ٧، انظر أيضاً رو٣: ٢٤، ٥: ١٥-١٧). أما حالتنا البائسة التى كنا فيها، فكانت تحتاج إلى رحمة الله، لهذا فإن الله «حسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانية» (١بط١: ٣، انظر أيضاً أف٢: ٤، ٥، تى٣: ٤، ٥).

بلغة الطب نقول إن الرحمة جرعة علاجية لإزالة الألم، والنعمة عملية جراحية لإزالة المرض. أو يمكن القول إن الرحمة فى طابعها سلبية أكثر، والنعمة إيجابية. الرحمة تعالج كل آثار الماضى، والنعمة تكفى وتغنى للمستقبل! فى كلمات الرب من فوق الصليب نلمس الرحمة فى صلاته إلى أبيه طالباً الغفران لقاتليه، ونلمس النعمة فى كلماته للّص التائب أنه سيكون معه فى الفردوس.

الرحمة إذاً هى شعور بالشفقة نحو شخص فى حالة سيئة مع رغبة ومحاولة لإنقاذه. لهذا تُذكر الرحمة فى مَثَل السامرى الصالح «الذى صنع معه الرحمة» (لو١٠: ٣٧). وعندما

نفهم ذلك كم يصبح العالم كله مجالاً متسعاً لصنع الرحمة، فما أكثر الذين فى ظروف صعبة سواء من المؤمنين أو الخطاة. سواء من جهة الحاجات الروحية أو الجسدية، الأبدية أو الزمنية.

المؤمن والرحمة:

لقد كانت الرحمة هى أول ما قابلنا الله به ونحن خطاة، ثم أنها أيضاً مُلازمة لنا حتى النهاية. فإذا نظر المؤمن إلى الوراء، يستطيع أن يقول «إنما خير ورحمة **يتبعاننى** كل أيام حياتى» (مز٢٣:٦). وإذا نظر إلى الأمام يقول «إلهى رحمته **تتقدمنى**» (مز٥٩: ١٠). بل إنها مُحيطة بنا من كل جانب «أما المتوكل على الرب فالرحمة **تُحيط به**» (مز٣٢: ١٠). وهى مُلازمة للمؤمنين طول الطريق «رحمة الله هى **كل يوم**» (مز٥٢: ١)، لكننا نتمتع بها بصفة خاصة فى ظروفنا الصعبة «إذ قُلت قد **زلّت قدمى**، فرحمتك يارب تعضدنى» (مز٩٤:١٨)، ولهذا «نتقدم بثقة إلى عرش النعمة لكى ننال رحمة.. عوناً فى حينه» (عب٤:١٦)، وفوق هذا كله بوسع المؤمن أن ينظر إلى أعلى وينتظر الرحمة الأخيرة النهائية عند مجىء المسيح «منتظرين رحمة ربنا يسوع المسيح للحياة الأبدية» (يه٢١).

المسيحى إذاً هو شخص مغمور برحمة الله، وينتظر الله منه أن يُظهر الرحمة للآخرين، كقول المسيح «كان ينبغى أنك أنت أيضاً ترحم العبد رفيقك كما رحمتك أنا» (مت١٨:٣٣)، وقوله أيضاً «اذهب أنت أيضاً واصنع (الرحمة) هكذا» (لو١٠:٣٧). نعم؛ فإن«من آمن (بالمسيح).. تجرى من بطنه أنهار ماء حى» (يو٧:٣٨). فالمؤمن وقد رُحم ينظر بالرحمة إلى مَنْ حوله.

يوضح يهوذا فى رسالته أن المؤمن يقف بين رحمة نالها (ع٢)، ورحمة ينتظرها (ع٢١)، ولهذا فإنه يجب أن يُظهر الرحمة للآخرين (ع٢٢). فليست المسيحية مجرد طقوس وفرائض يؤديها الإنسان، بل حياة مختلفة، أحد خصائصها الرحمة.

لقد وبّخ المسيح، أكثر من مرة، الفريسيين الذين كان تديّنهم بعيداً عن حياتهم، مقتبساً كلمات هوشع «إنى أريد رحمة لا ذبيحة». فى متى٩:١٣ ربطها مع حاجة الروح والنفس، وفى متى١٢:٧ ربطها مع حاجة الجسد. وكأن الرب يريدنا أن نهتم بحاجة النفوس للخلاص «**ارحموا** البعض مميزين، وخلّصوا البعض بالخوف» (يه٢٢، ٢٣) وكذلك حاجة الأجساد للطعام والكساء «المعطى فبسخاء.. **الراحم** فبسرور» (رو١٢:٨).

مرة ذهبت مؤمنة من أمريكا تشكو ظروفها لأحد خدام الرب، قالت له: اليوم عندى خمس

وستون سنة، زوجي مات، وأولادي جميعاً تزوجوا، وأنا وحيدة تماماً ولهذا فإني أكثر الناس بؤساً. نصحها الخادم أن تذهب إلى الناس في بلدتها تتكلم معهم عن الخلاص الأبدي في المسيح، وتذهب إلى الفقراء وتشاركهم ما لديها من خيرات الله. وبعد أسابيع قليلة اتصلت به المرأة قائلة: أنا الآن أسعد امرأة في المدينة. ولا عجب، فلقد قال الحكيم «النفس السخية تسمن، والمروي هو أيضاً يُروى» (أم١١: ٢٥). حقاً كما يقول المسيح هنا: سعداء هم الرحماء!

لأنهم يُرحمون

متى يُرحمون؟ الآن، وفيما بعد، أي أنهم سيتمتعون بالرحمة الآن، في هذه الحياة «فإن الذي يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضاً» (غلا٦: ٧)، وسيتمتعون بالرحمة «في ذلك اليوم»؛ يوم وقوفنا أمام كرسي المسيح.

في آخر رسالة كتبها الرسول بولس، رسالة تيموثاوس الثانية، يذكر أنيسيفورس، ذاك الذي بذل كل الجهد حتى يلتقي بالرسول وهو مقيد في سجن رومية. ويقول إنه «مراراً كثيرة أراحني (أنعشني) ولم يخجل بسلسلتي» (٢تي١: ١٦). والرسول لم ينسَ أن يطلب الرحمة لبيت أنيسيفورس الذي تُرك منه في سبيل خدمة الرسول. كما طلب له شخصياً أن ينال رحمة من الرب الديان العادل «في ذلك اليوم». وكأن أنسيفوروس حصد الرحمة في بيته، هنا في هذه الحياة، كما سينال من الرب الرحمة يوم الاحتياج الأشد لها؛ يوم وقوفنا أمام كرسي المسيح.

٩

طوبى للأنقياء القلب

"طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله"

(مت٥:٨)

يحتوي هذا التطويب الذى نطق به الرب له المجد على واحد من أهم التعاليم المسيحية، وعلى أكثر ما يميزها عن ديانات العالم وفلسفاته. فإن الكتاب المقدس يركز كثيراً جداً على القلب، والآيات التى وردت فى هذا الصدد تفوق الحصر.

لماذا غضب الله على الإنسان فى أيام نوح وأهلكه بالطوفان؟ يقول الوحى «رأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض، وأن كل تصوّر أفكار **قلبه** إنما هو شرير كل يوم» (تك٦: ٥).

ثم بعد ذلك بأجيال عديدة؛ لماذا غضب الله على شعبه؟ الإجابة نجدها على لسان إرميا «اغسلى من الشر **قلبك** يا أورشليم لكى تُخلَّصى. إلى متى تبيت فى وسطك أفكارك الباطلة» (إر٤: ١٤).

وبعد أجيال أخر، لما جاء المسيح إلى العالم، وبخ الكتبة والفريسيين أشد التوبيخ لأنهم كانوا يولّون كل الاهتمام بقشور الديانة، تاركين القلب. قال لهم مرة «أنتم الآن.. تنقون خارج الكأس والقصعة، وأما باطنكم فمملوء اختطافاً وخُبثاً» (لو١١: ٣٩). وفى مناسبة أخرى قال «ويل لكم أيها.. المراؤون لأنكم تُشبهون قبوراً مُبيّضة، تظهر من خارج جميلة وهى من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة. هكذا أنتم أيضاً من خارج تظهرون للناس

أبراراً، ولكنكم من داخل مشحونون رياء وإثماً» (مت٢٣: ٢٧، ٢٨).

نعم الويل لأولئك الذين يغسلون أيديهم باعتناء، فى الوقت الذى لا يبالون فيه بقلوبهم الدنسة (مر٧: ١-٢٣). والويل أيضاً للمنادين بإنجيل الماء والصابون، معلمين أن مشكلة الإنسان هى فى الظروف المُحيطة، فإذا غيّرت ظروفه الخارجية سيتحسن، فأنشأوا الإنجيل الاجتماعى لتحسين مناخ البشر غاضين الطرف عن الصليب والدم، متجاهلين أن ضربة البشر عميقة فى القلب.

الأنقياء القلب

قال الرب لصموئيل «ليس كما ينظر الإنسان، لأن الإنسان ينظر إلى العينين (أى إلى المظاهر) وأما الرب فإنه **ينظر إلى القلب**» (١صم١٦: ٧).

فماذا الذى يراه الله عندما ينظر إلى القلب؟ يقول الرب «**القلب** أخدع من كل شىء وهو نجيس. مَنْ يعرفه؟ أنا الرب فاحص القلب مُختبر الكلى» (إر١٧: ٩). لاحظ أن الرب هنا لا يتكلم عن قلب الأشرار، بل عن «القلب» عموماً؛ قلبى أنا وقلبك أنت بحسب الطبيعة.

من أين إذاً نحصل على القلب النقى؟ صرخ داود قديماً «قلباً نقياً **أخلق** فىَّ يا الله» (مز٥١: ١٠). وهذه الخليقة، أو القلب الجديد، هو عطية إلهية نحصل عليها بالولادة من الله نتيجة إيماننا بالمسيح، وبغير الإيمان لن يكون لنا قط القلب النقى (أع١٥: ٩).

لكن هناك فكراً آخر وأعنى به النقاوة العملية للقلب وخلوّه من النجاسة. وهذه النقاوة العملية للقلب هامة جداً كقول الحكيم «فوق كل تحفظ احفظ **قلبك** لأن منه مخارج الحياة» (أم٤: ٢٣)، وأيضاً «اتبعوا.. القداسة التى بدونها لن يرى أحد الرب» (عب١٢: ١٤). هيهات أن نظن أنه يمكن أن تكون لنا أية علاقة مع الله بغير القداسة العملية. إن العقيدة الصحيحة مهمة، واستنارة الذهن لازمة، لكن كل هذا مع أهميته يصبح «نحاساً يطن أو صنجاً يرن» لشخص غير نقى القلب. وعليه فيجب على المؤمن أن يسهر على حالة قلبه؛ كيف يفكر وبمَ يتكلم. فتخلو حياته من النظرة النجسة والكلمة الدنسة والفكر الباطل. وتكون صلاته مع داود «لتكن أقوال فمى وفكر قلبى مرضية أمامك يارب صخرتى ووليى» (مز١٩: ١٤).

لكن هناك أيضاً معنى آخر لنقاوة القلب ذكره داود فى مزمور ٢٤: ٤ عندما عرَّف نقاوة القلب بالقول «الذى لم يحمل نفسه إلى الباطل (الأوثان)، ولا حلف كذباً». فهو فى

علاقته مع الله ومع الناس ليس عنده تزييف ولا غش! وهذا المعنى قريب جداً من المعنى الوارد فى هذا التطويب السادس فالكلمة بحسب الأصل اليونانى تعنى بساطة القلب، أى ليس أمامه سوى هدف واحد. وما أجمل أن يكون لنا هذا القلب البسيط غير الموزع الذى لا يهمه سوى مخافة الله كقول داود النبى «وحّد قلبى لخوف اسمك» (مز٨٦: ١١) وكقول الرسول يعقوب «نقوا أيديكم أيها الخطاة، وطهّروا قلوبكم يا ذوى الرأيين» (يع٤: ٨). إن الذى له هذا القلب الموحّد، له العينان الحمامتان فيرى الله، بل لا يرى سواه، فيلذ له أن يرنم:

يارب حوّل نظرى عن كل منظر هنا

فكل منظر سواك فيه المرار والعنـــا

لأنهم يُعاينون الله

إن الله، كما يعلمنا الكتاب المقدس، «روح» (يو٤: ٢٤)، وبالتالى فإنه غير منظور (كو١: ١٥)، ولا يُرى (١تى١: ١٧)، و«لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه» (١تى٦: ١٦)؛ فكيف تتم معاينة الله؟ إنها لن تتم بعين الرأس، بل بعين القلب. ولهذا كان الشرط هو نقاوة القلب. فإذا كان القلب نقياً سنرى الله جيداً، وبطريقة روحية سنتمتع برؤيته.

١ - **سنراه فى الطبيعة.** وفى الخليقة سنرى قدرة الله (رو١: ٢٠)، وعظمته (إش٤٠)، وصلاحه (مز١٤٧)، وحكمته (مز١٠٤)؛ من ثم يهتف المؤمن كما فعل المرنم فى مزمور ١٠٤، قائلاً «ما أعظم أعمالك يارب، كلها بحكمة صنعت».

٢ - **سنراه فى التاريخ.** فالله هو المسيطر على زمام الأمور، ويجعل الكل يخدم مقاصده. واستعراض القديس لكل التاريخ سيجعله يرى فيه كله إصبع الله.

٣ - **سنراه كإله العناية.** فى كل الأحداث التى تحدث معنا شخصياً ويومياً، وبطريقة عملية سنشارك موسى رجل الله اختباره عندما ترك مصر غير خائف من غضب الملك لأنه تشدد كأنه يرى مَنْ لا يُرى (عب١١: ٢٧).

٤ - **سنراه فى شركتنا الروحية** (مز٢٧: ٤)؛عندما نقترب من المكتوب (مز٣٦: ٩) كيما ننهل من «بئر لحى رؤى» (تك١٦: ١٤، ٢٤: ٦٢) أى بئر الحى الذى يُرى، عندئذ سنختبر قول المسيح «الذى عنده وصاياى ويحفظها.. أُظهر له ذاتى» (يو١٤: ٢١).

٥ - وهذا غاية ما نتمناه ونصبو إليه، إذ **سنراه عندما يأتى لاختطافنا.** وقتها «نكون

مثله لأننا **سنراه كما هو**» (١يو٣:٢)، ولا نعود ننظر فى مرآة فى لغز، بل وجهاً لوجه (١كو١٣:١٢). وعندها ستتم كلمات المرنم الحلوة «أما أنا فبالبر أنظر وجهك، أشبع إذا استيقظت بشبهك» (مز١٧:١٥) وأيضاً كلمات الرائى «وهم سينظرون وجهه» (رؤ٢٢:٤)

سعداء هم أنقياء القلب

هناك الملايين فى عالم اليوم غارقون فى النجاسة، مولعون بالخطية، يحلمون بها، وخيالاتهم كلها دنس.. ولو أُتيحت لهم الفرصة يفعلون أية خطية.. والله يعرف ذلك. ومع أنه يكره الخطية، لكنه يحب أولئك الخطاة، ويريد أن يخلصهم. ولأجل هذا تكلف ما لا طاقة لعقولنا أن تقدّره ليمتعنا بطهارة القلب.

لقد أرسل الله ابنه إلى العالم، وبذله فوق الصليب، حتى يمكن لدمه المسفوك أن يطهر قلوبنا. وهذا هو التطهير الشرعى أمام الله «مرشوشة قلوبنا من ضمير شرير» (عب١٠:٢٢). ثم أُقيم المسيح من الأموات، وتمجد فى السماء، ومن هناك أرسل الروح القدس ليسكن فى قلوب المؤمنين ليمتعنا بالحرية والنُصرة والقداسة.

هذا هو الطريق لنقاوة القلب وليس سواه. فالممارسات الدينية الخارجية لا تفعل شيئاً للقلب النجيس، إن الزهد والتقشف لن يجديا نفعاً، بل إن ترك العالم كُلية والالتجاء إلى الصحراء لن يمتع الإنسان بالقداسة، لقد كان القديس أنطونيوس[٩] المعروف بأبى الرهبان مخلِصاً عندما ترك الدنيا بإغراءاتها الكثيرة وقصد صحراء مصر ليتفرغ لعبادة الله ويستمتع برضاه. لكنه سجل بعد ذلك أن الشيطان عرف طريقه إليه فى الصحراء وكان يحاربه هناك. بل إن الخطية - كما يعلمنا الوحى - تنبع من داخل الإنسان.

نعم أيها القارئ العزيز، ليس ترك العالم هو العلاج، بل الوجود المستمر فى حضرة الله بعد أن يستريح الضمير والقلب على عمل المسيح. تذكر أن يوسف الشاب الطاهر لم يكن فى صومعة عندما انتصر على الخطية النارية، بل كان فى بيت فوطيفار، لكنه هناك كان أمام الله، فقال مقولته الشهيرة «كيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله؟» (تك٣٩:٩).

قال مرة أحد خدام الرب: "إن كنت تعتقد أن العيشة فى النجاسة مُمتعة، فذلك لأنك لم تجرِّب حياة القداسة"، فإن جربتها ستعرف كم هى أكثر امتاعاً بما لا يُقاس من الخطية. ففى نقاوة القلب يمكنك أن تحيا حياة الشركة الحلوة مع الرب التى هى كأيام السماء على الأرض!

هذه هى السعادة الحقة التى أتمناها لك ولى أيها القارئ العزيز، إنها السعادة أو البركة المتضمّنة فى كلمات المسيح التى قالها من نحو ألفى عام ولازالت إلى اليوم جديدة وقوية «طوبى للأنقياء القلب لأنهم يُعاينون الله».

التطبيق النبوى

سيوصل الرب البقية التقية من خلال معاملته معهم فى فترة الضيقة العظيمة إلى التوبة والاعتراف بخطاياهم (إش٤:٣ . ٤؛ زك١٣: ١)، وبواسطة نار الممحص سينقيهم (ملا٣: ٢-٤) وعن طريق بركة الولادة الثانية سينزع الرب منهم قلب الحجر ويعطيهم قلب لحم (حز٣٦: ٢٥ ، ٢٦)، وبحسب العهد الجديد الذى سيقطعه معهم سيجعل شريعته فى داخلهم، ويكتبها على قلوبهم (إر ٣١: ٣١-٣٤).

وتوصف البقية بأوصاف جميلة فى الأسفار الشعرية. ففى سفر النشيد نراها كالسوسنة (نش٢: ١) وتوصف بأنها طاهرة كالشمس (نش٦: ١٠). وفى سفر المزامير يُشار إليهم بأنهم «الصديقون» و«المستقيمون» (مز٣٧: ٢٩ . ٣٧)، وأيضاً «الطاهر اليدين، والنقى القلب» (مز٢٤: ٤ . ٥). ومن سفر الأمثال نفهم أنهم سيحبون طهارة القلب، ولنعمة شفتيهم سيكون الملك صديقهم (أم٢٢: ١١).

١٠

طوبى لصانعي السلام

"طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون"

(مت٥:٩)

عرفنا مما سبق أن التطويبات الأربعة الأولى فى موعظة الجبل (ع٣-٦) تُحدّثنا عن الجانب السلبى من الصفات التى يجب أن تميِّز رعايا الملكوت، وهى المسكنة بالروح، والحزن، والوداعة، والجوع والعطش إلى البر. لكن فى التطويبات الثلاثة التالية ذكر المسيح الجانب الإيجابى النشط من صفات رعايا الملكوت فقال: «طوبى للرحماء.. طوبى للأنقياء القلب.. طوبى لصانعى السلام».

إذاً فلقد جاء هذا التطويب مباشرة بعد التطويب بنقاوة القلب، فتجاه الله عيشة بقلب نقى، وتجاه الناس عيشة بالسلام، وذلك لأن «الحكمة التى من فوق.. هى أولاً طاهرة ثم مُسالمة» (يع٣:١٧).

أهمية السلام

ما أهم هذا التطويب! تأمل معى فى حال العالم الذى نعيش فيه؛ انه عالم لا يعرف السلام. وقصة الحروب والمعارك قديمة قدم الإنسان نفسه. ولازالت إلى اليوم روح الخصام والعداوة موجودة فى تكوين الإنسان. ولازالت صناعة الحروب هى الصناعة الأولى الرائجة.

وبالأسف فإن هذا القرن (القرن العشرين) الذى يُعتبر قمة التمدين والحضارة، والذى فيه تغلّب الإنسان على كثير من مشكلاته التقليدية، وقهر الكثير من الأمراض الفتاكة. واخترع الكثير من الاختراعات الباهرة، وارتاد الفضاء فى رحلات ناجحة، ووطىء بقدميه سطح القمر، عصر ثورة الاتصالات والمعلومات.. نقول إن قتلى الحروب فى هذا القرن أكثر من الذين قُتلوا فى الحروب الماضية فى كل تاريخ البشرية السابق!!

ويا للعجب، فعندما تهدأ الحروب نسبياً ينتعش الإرهاب! ويبدأ التقتيل لسبب أو لآخر، والأكثر لغير سبب محدد على الاطلاق. ونحن وإن كنا نأسف لهذا، لكننا لا نندهش، فلقد قال الله فى نبوة إشعياء مرتين «لا سلام.. للأشرار» (إش٤٨: ٢٢؛ ٥٧: ٢١)، وقال أيضاً عن الأشرار ما اقتبسه الرسول بولس بعد ذلك «طريق السلام لم يعرفوه» (إش٥٩: ٨؛ رو٣: ١٧).

أية غرابة أن يكون هذا حال العالم، وهو كما نعلم لازال يرزح تحت سيادة الشيطان، ذاك الذى «كان قتالاً للناس من البدء»؟ (يو٨: ٤٤).

أتعرف أيها القارئ العزيز لماذا الإنسان فى خصام مع جاره وقريبه؟ لأنه فى عدم سلام مع نفسه. ولماذا هو فى عدم سلام مع نفسه؟ لأنه فاقد للسلام مع إلهه. لقد أخطأ الإنسان إلى الله وهرب منه فى تكوين٣، ثم قتل أخاه فى تكوين٤!! والعلاج ينبغى أن يبدأ من الأصل، من الجذور، بأن يعود الإنسان إلى ربه، ويتمتع بالسلام. لكن كيف ذلك والإنسان أصبح خاطئاً مُطارداً من عدالة الله؟! كيف يتمتع الإنسان بالسلام مع الله الذى أخطأ فى حقه؟!

إن المشكلة أكبر من الإنسان بكثير، ولهذا فقد جاء المسيح بنفسه إلى الأرض ليصنع سلاماً، وليُعيد الإنسان من جديد إلى العلاقة والشركة مع الله.

هناك لوحة رسمها فنان انجليزى تُظهر جندياً فى الميدان، ذهب إلى خطوط القتال الأمامية ليُصلح عُطلاً حدث فى خط الاتصال مع القيادة. اكتشف الجندى هناك وجود قطع فى كابلات الاتصال. وإذ لم يكن لدى الجندى الأدوات اللازمة لإصلاح هذا العُطل، ولأن الرسالة التى كان مطلوباً إبلاغها إلى القيادة تعنى الحياة بالنسبة لآلاف الجنود، وإذ رأى الجندى أن العدو يقترب وأن الموقف حرج، فإنه أمسك بيسراه بأحد أطراف الكابل المقطوع، ثم مَدَّ يمناه، وبكل قوته قبض على الطرف الآخر، وعمل التوصيلة بجسده.. وتحت هذه الصورة الدرامية المؤثرة كان التعليق كلمة واحدة: "*connection* (توصيلة)".

هذا ما فعله المسيح بموته فوق الصليب. لقد عمل التوصيلة وسد الثغرة التى كانت تفصل بيننا وبين الله. ويقول النبى إشعياء «تأديب سلامنا عليه» (إش٥٣: ٥) ويقول

الرسول بولس «لأنه هو سلامنا الذى جعل الاثنين واحداً... ويصالح الاثنين فى جسد واحد مع الله بالصليب، قاتلاً العداوة به». ثم يستطرد قائلاً «فجاء ويشركم بسلام أنتم البعيدين والقريبين» (أف٢: ١٤-١٧).

نوعا السلام

عرفنا أن آدم الأول فقد السلام مع الله بمجرد أن أخطأ فى الجنة، وكانت كلماته الأولى لله مُعبرة عن ذلك «سمعت صوتك فى الجنة فخشيت» (تك٣: ١٠)، من ثم فقد الإنسان السلام مع أخيه (تك٤).. لكن المسيح المُقام من الأموات، آدم الأخير، عندما ظهر لتلاميذه الخائفين فى العُلية عشية يوم القيامة، قال لهم مرتين «سلام لكم».

وكما فعل الرب مع تلاميذه بعد قيامته، فعل أيضاً معهم قبيل ذهابه إلى الصليب، عندما قال لهم «سلاماً أترك لكم، سلامى أعطيكم» (يو١٤: ٢٧). بل وقبل ذلك كان النبى أيضاً قد قال «ذو الرأى الممكن تحفظه سالماً سالماً» (إش٢٦: ٣). فى كل هذه المناسبات نجد تكراراً لكلمة السلام، والقصد من ذلك ليس مجرد التأكيد، بل لأن الإنسان يحتاج إلى نوعين متميزين من السلام؛ الأول يسمى «سلام مع الله» (رو٥: ١)، والثانى يُسمى «سلام الله» (فى٤: ٧). الأول هو سلام الضمير للمؤمن فى علاقته مع الله، والثانى هو سلام القلب للقديس فى شركته مع الله.

النوع الأول صنعه لنا المسيح بموته على الصليب، وقبل أن يترك العالم، ترك هذا السلام كعطيته العظمى نتيجة عمله على الصليب. أما النوع الثانى فإنه لم يتركه لتلاميذه، بل وعدهم بأن يعطيهم إياه؛ يعطيهم هذا السلام يومياً بل ولحظياً فى جو الشركة معه.

إذاً فمن حق المؤمن الذى تمتع بالسلام مع الله أن يعيش أيضاً فى سلام مع الناس، وسلام فى كل الظروف، بل ورغم الظروف. ومع الشونمية فإن المؤمن وسط الخوف العظيم أو البلوى المحرقة يستطيع أن يقول «سلام... سلام» (٢مل٤: ٢٣، ٢٦).

طوبى لصانعى السلام

إن المسيح هو صانع السلام الأعظم، ذلك السلام الذى كلفه دم صليبه. وأنت لن يمكنك أن تكون صانع سلام قبل أن تتمتع أولاً بالسلام الذى صُنع، وذلك بأن تحصل عليه هبة مجانية بالإيمان بالذى مات على الصليب ليكون سلامنا (رو٥: ١). وعندئذ يمكنك أن تُخبر

الناس عن هذه البركة العُظمى، وتبشر بالسلام الذى عمله الله لأجلنا «نطلب عن المسيح تصالحوا مع الله» (٢كو٥: ٢٠). وما أجمل أقدام المبشرين بالسلام المبشرين بالخيرات (رو١٠: ١٥).

ثم إنك إذ تتمتع بالسلام مع الله، وإذ يملك فى قلبك سلام الله (كو٣: ١٥)، فإنه سيكون بوسعك أن تشيع جو السلام على مَنْ حولك بأن تعكس صفات أبيك فى سلوكك اليومى. فلقد دُعى الله أبونا «إله السلام» سبع مرات* . لهذا فإن أولاد «إله السلام» سيعملون جاهدين لصُنع السلام.

وما أهم أنه فى وسط اجتماعات القديسين يسود جو السلام «مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام» (أف٤: ٣). فى هذا الجو تُبنى الكنائس وتتكاثر (أع٩: ٣١، يع٣: ١٨). ولهذا فإن الشيطان يسعى جاهداً مستخدماً الأشرار أو المؤمنين الجسديين لإيجاد الشقاقات والعثرات، لكن إله السلام سيسحق الشيطان تحت أرجلنا سريعاً (رو١٦: ١٧، ٢٠ انظر أيضاً ١تس٥: ١٣).

وما أجمل أيضاً أن يسود جو السلام بيوتنا. لذا فإن الرسول بولس عندما كان يعالج مشكلة مفارقة المؤمن لشريك الحياة غير المؤمن، لم يشجع القديسين على ذلك قائلاً إن «الله قد دعانا فى السلام» (١كو٧: ١٥).

بل أن المؤمن يسعى بالسلام مع جميع الناس تتميماً لقول الرسول «إن كان ممكناً فحسب طاقتكم سالموا جميع الناس» (رو١٢: ١٨). لنتذكر قول الرسول فى العديد من رسائله «لنعكف إذاً على ما هو للسلام» (رو١٤: ١٩)، «عيشوا بالسلام» (٢كو١٣: ١١)، «اتبعوا السلام مع الجميع» (عب١٢: ١٤)... الخ.

وكما قال ربنا هنا «طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يُدعون»، فإننا نستطيع أن نقول أيضاً «ويل لمحطمى السلام، وصانعى الشقاقات والخصام، لأنهم أبناء إبليس يُدعون».

كم حذرنا الرب فى العهد القديم والجديد على السواء من هذه الخطية، وقال صراحة عنها إنها مكرهة لنفسه (أم٦: ١٦، ١٩)، وعلينا لا أن نتجنبها فقط بل أن نتجنب أيضاً مَنْ يمارسها (رو١٦: ١٧، ٢٠).

عزيزى: ما أسهل تحطيم السلام! إن كلمات الوشاية والنميمة، والقيل والقال، من شأنها أن تفرِّق بين الأصدقاء وتهدم البيوت. بل إن الرسول يعقوب قال فى رسالته إن كلمةً قد

* انظر رو١٥: ٣٣، ١٦: ٢٠، ١كو١٤: ٣٣، ٢كو١٣: ١١، فى٤: ٩، ١تس٥: ٢٣، عب١٣: ٢٠

تضرم دائرة الكون (يع٣: ٦). فلنحذر من ذلك.

وإننا إذا سعينا نحو السلام قد نبذل مجهوداً ونلاقى تعباً، لكن حبذا المجهود والتعب «لأن من أراد أن يحب الحياة ويرى أياماً صالحة». فماذا يفعل؟ قال الرسول بطرس «**ليطلب السلام ويجدّ** فى اثره» (١بط٣: ١٠، ١١). نعم، فطوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يُدعون.

التطبيق النبوى

إن الآية التى ذكرها المسيح فى عظة الإرسالية متى ١٠: ٣٤-٣٦ سببت، ولاتزال، حيرة لدى بعض البسطاء. فكيف يقول المسيح أنه لم يأتِ ليلقى سلاماً على الأرض؟ كيف أتى ليفرق الأسرة الواحدة؟!

والإجابة البسيطة أن المسيح ذكر هذه الآية فى مشهد رفض الناس له. وهو المشهد الذى كان فى أيام تجسده، ولازال حتى الآن، وسيستمر فى فترة الضيقة العظيمة بعد اختطاف الكنيسة. ونظراً لذلك الرفض فإن نتيجة مجىء المسيح (وليس غرض مجيئه)، النتيجة التى لا مفر منها: هى الانقسام لا السلام. ولغة المؤمن فى هذا المشهد «طال على نفسى سكنها مع مبغض السلام. أنا سلام، وحينما أتكلم فهم للحرب» (مز١٢٠: ٦، ٧).

وسيستمر الحال هكذا طوال فترة يوم البشر (١كو٤: ٣) إلى أن يأتى يوم الرب ويملك المسيح ملك البر والسلام (عب٧: ٢، زك٦: ١٣). فتتم كلمات النبى «لنمو رياسته **وللسلام** لا نهاية» (إش٩: ٧). وقتها لابد أن تتم كلمات إشعياء النبى الإنجيلى «يطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل. لا ترفع أمة على أمة سيفاً، ولا يتعلمون الحرب فى ما بعد» (إش٢: ٤).

١١

طوبى للمطرودين من أجل البر

"طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات"

(مت ٥:١٠).

انتهينا في الفصل السابق من التطويبات السبعة الأولى التى أعطتنا الطابع العام أو الصفات الكاملة التى تميز تابعى المسيح، ويلخصها أمران: البر، والنعمة. فالتطويبات الأربعة الأولى التى تشتمل على الجانب السلبى للصفات، تلخصها عبارة البر، والتطويبات الثلاثة التالية، بما تشمله من صفات إيجابية، تلخصها كلمة النعمة. والرب بعد أن قدم فى هذه التطويبات السبعة الأولى الصفات الكاملة لتابعيه، فإنه فى التطويبين التاليين قدم موقف العالم من تلاميذه وهو العداء والبغضاء.

يقول المسيح : «طوبى للمطرودين من أجل البر، لأن لهم ملكوت السموات. طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين. افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم فى السماوات، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم» (مت٥ : ١٠-١٢).

سر اضطهاد تلاميذ المسيح

لماذا يضطهد العالم تابعى المسيح ويُبغضهم؟ إنهم ودعاء رحماء، مُسالمون وأنقياء، فلماذا يأخذ العالم هذا الموقف الشاذ منهم؟ السبب فى هذه الكراهية والبغضة يرجع إلى العالم الشرير نفسه.

فحال هذا العالم الذى يسوده الشيطان يُشبه تلك الدُمى التى كنا نلهو بها ونحن أطفال: الدمية التى على شكل رجل. ولكن نظراً لأن هناك ثقلاً خفياً داخل رأسه فهو دائماً منقلب؛ رأسه إلى أسفل ورجلاه إلى فوق. وعبثاً تحاول تغيير وضع ذلك الرجل الدمية. فما أن تتركه حتى يعود لتكون رأسه إلى أسفل ورجلاه إلى فوق!

هكذا عالم اليوم. إن أثقاله الخفية تجعله دائماً منقلباً على طول الخط. يحدثنا سفر الأعمال عما احتمله التلاميذ فى بداية المسيحية من الاضطهاد والآلام، بل من الافتراءات العديدة التى وُجهت إليهم. فقيل عن بولس إنه مُهيّج فتنة! (أع٢٤:٥). وقيل عن آخرين إنهم فتنوا* المسكونة (أع١٧:٦) أى قلبوا الدنيا!!

الاختلاف بين تلاميذ المسيح وبين أهل الدنيا هو اختلاف فكرى وأيديولوچى جوهرى وعميق. وهذا فى حد ذاته سر عداء العالم نحو كل ما يذكّر الناس بالمسيح ومبادئه. إن الفيلسوف الألمانى نيتشه، وكان بالأسف ابن قس ميثوديستى وحفيد قس ميثوديستى، جسّد فلسفة العالم، أو بالحرى فلسفة الشيطان، عندما هاجم المسيحية بكل ضراوة، وهاجم مبادئها كلها ورموزها المتنوعة، ولم يحترم فى كل العهد الجديد شخصاً سوى بيلاطس البنطى[١٠]!!

تأمل معى ثانية فى تلك الصفات التى سبق أن تأملناها بالتفصيل فى الفصول السابقة؛ تجد فى البداية المسكنة بالروح: أليس هذا هو تماماً عكس روح العالم المتصلف، وعكس روح أولاد إبليس، الذى «هو ملك على كل بنى الكبرياء» (أى٤١:٣٤)؟!

ثم بعد ذلك تجد الحزن؛ الحزن الذى هو بحسب مشيئة الله: أليس هو تماماً عكس روح العالم الذى يجرى وراء المُتع الوقتية، واللذة العابرة، ولغة أهله «هلموا آخذ خمراً ولنشتف مُسكراً، ويكون الغد كهذا اليوم عظيماً بل أزيد جداً» (إش٥٦:١٢).

ثم الوداعة؛ أليست هى عكس روح العالم المتعجرف العدوانى، والذى يحتقر الودعاء ويعتبر الوداعة نوعاً من الخنوع؟!

والجوع والعطش إلى البر: أليس ذلك عكس روح العالم الذى كل ما فيه «شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة»؟! (١يو٢:١٦).

والرحمة؛ أليست هى عكس ما فى العالم من أنانية ومشغولية محورها الذات؟! أليس البشر بصفة عامة «بلا عهد ولا حنو.. ولا رحمة» (رو١:٣١)؟ أوَليست «مراحم الأشرار قاسية» (أم١٢:١٠)؟!

* إن ترديد البعض لمثل هذا القول فى صلواتهم: "ساعدنا يا رب لكى نفتن المسكونة" يدل على أنهم لا يعلمون ما يقولون

ثم نقاوة القلب: أليست هى عكس روح العالم الدنس، العالم الـمُرائى؟!
وصُنع السلام: هل يطيقه محبو الشجار وصنّاع الحروب؟!

تأملات فى كراهية العالم

تُرى ما الذى يمكننا أن نفهمه من قول الرب فى التطويبين الأخيرين «طوبى للمطرودين من أجل البر.. طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم»؟ إنه يعنى أن لعنات الإنسان وبركات المسيح تستقر على نفس الأشخاص! فأولئك الـمُحتقرون لأجل برهم ولأجل نسبتهم للمسيح، هم بعينهم الذين يطوبهم المسيح هنا!! أتوجد صورة تعبر عن مدى انحراف الإنسان عن الله مثل هذه الصورة؟!

لكن هناك شيئاً آخر مُلفتاً للنظر. فلقد كان آخر تطويب ذكره المسيح قبل هذا التطويب هو «طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يُدعون»، وبعدها مباشرة يقول «طوبى للمطرودين من أجل البر». أيمكن أن تكون هناك صورة تجمع الأبيض والأسود معاً مثل هذه الصورة؟! فالمؤمن فى كل خطوات حياته يسعى إلى السلام، فيقابل من الجانب الآخر بالاضطهاد من أجل البر، كقول المرنم «أنا سلام. وحينما أتكلم فهم للحرب» (مز١٢٠:٧).

عندما أراد الملك الشرير آخاب أن يطمئن نفسه قبل ذهابه للحرب: هل يذهب أم لا. فمَنْ يسأل؟ لقد كانت المملكة كلها مثل ملكها متجهة إلى الأوثان والأصنام، ولم يكن سوى رجل واحد أمين ممكن أن يسأله عن كلام الله هو ميخا بن يملة. لكن ماذا قال الملك الشرير عن هذا الشاهد الأمين؟ «بعد رجل واحد لسؤال الرب به، ولكنى أبغضه» (١مل٢٢:٨). هذا هو موقف العالم العدائى المستمر ضد الشاهدين للبر.

من البداية قام قايين على أخيه هابيل وقتله. ولماذا قتله؟ لأن أعماله كانت شريرة وأعمال أخيه بارة. إنها إذاً القصة القديمة للعداوة بين نسل المرأة ونسل الحية. ولازال مَنْ يُريدون أن يعيشوا بالبر، فإنهم سيلاقون حتماً الاضطهاد والسخرية والاحتقار من هذا العالم.

يذكر العهد الجديد قصة اسماعيل واسحق فيقول الرسول بولس «كان لابراهيم ابنان... الذى من الجارية وُلد حسب الجسد، وأما الذى من الحرة فبالموعد... ولكن كما كان حينئذ الذى وُلد حسب الجسد يضطهد الذى حسب الروح هكذا الآن أيضاً» (غل٤:٢٢-٢٩). ولا تسأل عن السبب لماذا اضطهده، فهذا هو السبب؛ أن هذا من الجسد، وذاك من الروح!

ونلاحظ أن الاضطهاد قد يكون اضطهاداً بدنياً، لكن فى بعض الأحيان يكون اضطهاداً

معنوياً. ففى العهد القديم يذكر أن اسماعيل كان يمزح، أو يتهكم. لكن هذا التهكم يعتبره الوحى اضطهاداً.

«طوبى للمطرودين من أجل البر»

قبل أن يذكر المسيح «طوبى للمطرودين من أجل البر» كان قد قال «طوبى للجياع والعطاش إلى البر». وفهمنا ونحن نتأمل فى هذا التطويب أنه يعنى أن البر غائب عن الأرض التى يسودها فى الوقت الحاضر الطغيان والإثم. وهذا هو سر معاناة البعض من أجل البر.

قد يتوهم البعض أن عالم اليوم قد اختلف عن عصور الهمجية القديمة؛ فهناك نياشين وأوسمة وجوائز تُعطى للصالحين والمُصلحين، الذين يجاهدون فى سبيل الخير والتقدم والسلام. فكيف نقول إنه يضطهد الأبرار؟

علّق أحدهم[١١] على ذلك بالقول : إن هؤلاء النبلاء يجدون مَنْ يمدحهم من البشر، لأن الناس يرون فيهم صورتهم فى أحسن حالاتهم. فالناس يعتقدون أن أيّاً منهم لو أُتيحت له الفرصة، ولو كانت له الإمكانيات لصار هو أيضاً مثلهم. ولهذا فإن مَنْ يمدحهم ويمجدهم هو فى الواقع يمدح ويمجد نفسه. أما الأبرار، أما الشهود للمسيح فإنهم لا يزالون مكروهين ومُضطهدين لأنهم مختلفون عن البشر، وليس ذلك فحسب بل أنهم بانفصالهم عن الشر يوبخون الأشرار.. لقد كره الكتبة والفريسيون ربنا يسوع ليس لأنه عمل الأعمال الصالحة، بل لأنه كان مختلفاً عنهم، وكان موبخاً لهم «النور قد جاء إلى العالم، وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة» (يو٣:١٩). لقد سمع الرسول بطرس هذه الكلمات من فم المسيح هنا، ثم اختبرها عملياً فى حياته كما نفهم من سفر الأعمال، وسجلها أيضاً فى رسالته الأولى عندما قال للمؤمنين «إن تألمتم من أجل البر فطوباكم» (١بط٣:١٤). ولهذا تَرِد كلمات الرسول بولس القاطعة «وجميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى فى المسيح يسوع يُضطهدون» (٢تى٣:١٢).

أمثلة وتحفظات هامة

فى بعض الوظائف يطلب من السكرتيرة مثلاً أحياناً أن تقول الكذب إذا سؤلت عن أمر ما، فإذا رفضت يكون مصيرها الطرد من الوظيفة. والمستعدون لأداء خدمة الكذب مقابل لقمة العيش كثيرون!

أو قد يتعرض المؤمن أو المؤمنة لتهكم الزملاء إذا لم يسايرهم فى الخطية والشر، وإذا رفض فعل ما يعثر ضميره الروحى.

نعم، كثيرة هى صور الاضطهاد من أجل البر. لكن نحتاج هنا إلى تحفظ هام، فالمسيح لم يَقُل طوبى للمضطهدين من أجل غيرتهم الرعناء، ولا طوبى للمطرودين من أجل تعصبهم الأعمى، ولا طوبى للمتألمين من أجل ضيق فكرهم. فليس كل ألم مرغوباً فيه أو ممدوحاً (أنظر ١بط٤: ١٤. ١٥). ثم أنه ليس علينا أن نتصادم مع السلطات، وأن نكسر قوانين البلاد أو نتحدى المسئولين كيما ننال تطويب الرب هذا. وليس المفروض علينا أن نجلب المتاعب التى لا داعى لها على أنفسنا، وأن نُثير بغضة الناس علينا وكراهيتهم لنا باستفزاز مشاعرهم بتصرفات مُثيرة. كلا البتة. فلقد قال المسيح لتلاميذه «ها أنا أرسلكم كغنم فى وسط ذئاب. فكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام» (مت١٠: ١٦). وحكمة الحيات تقتضى منا أن نتجنب أية مخاطر لا ضرورة منها، وبساطة الحمام تتطلب ألا نسبب للآخرين أى أذى أو تعب.

فإذا كنا نسير فى طريق الأمانة للرب، وأصابنا الاضطهاد والتعب، فلنعتبر ذلك بركة، فالمسيح لم يرثِ لهؤلاء، ولا نحن علينا أن نرثى لهم لأنه «**طوبى** للمطرودين من أجل البر».

سر الله، والتطبيق النبوى

يقول الرسول يعقوب فى رسالته «خذوا يا إخوتى مثالاً لاحتمال المشقات والأناة: الأنبياء الذين تكلموا باسم الرب» (يع٥: ١٠)، فأولئك الأتقياء الذين لم يكن العالم مستحقاً لهم، كم قاسوا من الطرد والذل فى هذا العالم الشرير (عب١١: ٣٦-٣٩)، وحتى هذا القرن الذى يفتخر فيه الإنسان بتقدمه العلمى والفكرى، لازال الكثيرون يُضطهدون لأجل عيشتهم التى تُرضى الله. والأيام القادمة ستكون أسوأ. فالكتاب المقدس يُخبرنا أنه بعد اختطاف الكنيسة ستتطور الأمور إلى أردأ «لأن سر الإثم الآن يعمل فقط، إلى أن يُرفع من الوسط الذى يحجز الآن وحينئذ سيُستعلن الأثيم» (٢تس٢: ٧، ٨). وسوف يعمل الشيطان بكل قوته فى تلك الأيام الحالكة السواد، إذ سيُطرح من السماء إلى الأرض عالماً أن له زماناً يسيراً.

هذا هو «سر الله» (رؤ١٠: ٧). إنه سماح الله للشيطان بأن يكون القديسون هدفاً لأذاه!، وهو أن يُتهم أفضل البشر زوراً بأردأ التُهم من أولئك الذين هم أنفسهم أشر الجناة!! وهو أن يُسحق شعب الله بيد الشيطان وأعوانه، وكأن الله غير مُبالٍ!! وستستمر الأمور

هكذا حتى يظهر المسيح بالمجد والقوة ويضع الأمور فى نصابها[١٢].

وعندما يظهر المسيح ليملك على كل الأرض ستتم كلمات ملاخى «لكم أيها المتقون اسمي تُشرق شمس البر والشفاء فى أجنحتها، فتخرجون...» (ملا٤:٢). فإن كان البر اليوم يُعانى، لكن لابد أن يملك البر عن قريب. وإن كان الأبرار مطرودين اليوم لكن سيكون لهم النصيب الأسعد مع المسيح «لأن لهم ملكوت السماوات».

١٢

الآلام من أجل المسيح

"طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين. افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السموات. فانهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم"

(مت ٥:١١، ١٢).

لقد وصلنا الآن إلى آخر التطويبات الواردة فى القسم الأول من موعظة الجبل، تلك التطويبات التسعة التى قدمت لنا صفات المسيحى السبع الجميلة، متبوعة بموقف العالم العدائى نحو المؤمنين واضطهاده لهم.

يمكننا الآن أن نأتى إلى خُلاصة موجزة لكل الأفكار التى قيلت فى القسم الأول من الموعظة؛ قسم التطويبات: فأولاً رأينا أن السعادة هى طابع تلميذ المسيح. فكلمة طوبى، كما أوضحنا مراراً، تعنى سعيداً أو مباركاً، ثم ان المسيحى الحق هو شخص يحيا المسيح فيه بكل فضائله وسجاياه العظيمة. فهذه التطويبات ترسم لنا صورة متكاملة لتلميذ المسيح. رأيناه أولاً على ركبتيه أمام الله، معترفاً بمسكنته الروحية، نائحاً بسبب ذلك، وهذا جعله وديعاً فى علاقته مع الآخرين إذ أنه بإخلاص، لا يريد من الآخرين أن يعرفوا عنه أكثر مما يشعر هو فى قرارة نفسه أمام الله.

ليس معنى ذلك أنه يقبل حاله ويرضى عليها، بل هو جائع وعطشان للبر، أى يشتاق من

كل قلبه أن ينمو فى النعمة والصلاح.

من ثم تراه فى علاقته مع الآخرين. فعلاقته مع الله لم تجعله ينسحب من المجتمع ليُعفى من آلام العالم، بل على العكس تراه يُظهر الرحمة للآخرين، ويعيش نقى القلب ساعياً لصُنع السلام، فلا يُقابل مسعاه هذا بالشكر بل بالاضطهاد، يُفترى عليه بسبب البر الذى يحياه، والمسيح الذى يُظهره.

المسيحى شخص مميّز

من كلمات التطويب التاسع نرى ثلاثة أشياء تميز المسيحى هى :

١ - ***المسيحى هو شخص مختلف عن باقى البشر***: يقول المسيح «طوبى لكم (أنتم) إذا عيروكم (هم)». أليس الفاصل واضحاً هنا والاختلاف بيِّناً؟!

قال المسيح مرة: «لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض. ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً». وهذا معناه أن مجىء المسيح كان نقطة فاصلة، ليس فقط فصل تاريخ البشرية إلى قسمين؛ ما قبل المسيح وما بعده، بل أيضاً فصل البشر قسمين: مَنْ قَبِل المسيح ومَنْ لم يقبله.

٢ - ***المسيحى هو شخص مُضْطَهَد*** : فنتيجة اختلاف القيم بينه وبين مَنْ يُعايشهم، جاءه الاضطهاد ووقع عليه التعيير، لا لشىء إلا لأنه يعيش لأجل المسيح «طوبى لكم إذا **عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة** من أجلى». ذلك لأن المؤمن ما عاد براغب فى أن يعيش كما كان يعيش قبلاً لذاته ولذّاته، بل «كى يعيش الأحياء فيما بعد.. للذى مات لأجلهم وقام» (٢كو٥:١٥).

٣ - ***المؤمن الحقيقى لا يعيش فى ضوء الحياة الحاضرة***: بل الحياة المستقبلة. فلقد ارتبط قلبه بالعالم الآخر والسماء، وما عادت الأرض تهمه كثيراً.

هذا ما حدث مع المؤمنين الأوائل، كقول الرسول لهم «قبلتم سلب أموالكم بفرح، عالمين فى أنفسكم أن لكم مالاً أفضل فى السماوات وباقياً» (عب١٠:٣٤). وليس فقط الأرض ومقتنياتها ما عادت تهمه، بل البشر وتقديرهم. فأصبح المسيحى مستعداً أن يحتمل العار والاحتقار حتى من العالم الدينى. كقول الرسول أيضاً «لنخرج إذاً إليه خارج المحلة (النظام الدينى) حاملين عاره. لأن ليس لنا هنا مدينة باقية لكننا نطلب العتيدة» (عب١٣:١٣ ، ١٤).

طوبى لكم إذا عيروكم

تأملنا فى المرة السابقة فى تطويب الرب للمطرودين من أجل البر. لكن الرب هنا يتحدث عن شىء أثمن من البر ذاته؛ انه المسيح.

وكما ميّز الرب هنا بين الآلام لأجل البر والآلام لأجل شخصه، فقد فعل بطرس أيضاً هكذا فى رسالته الأولى، حيث تحدث فى أصحاح ٣ عن الآلام لأجل البر، وفى أصحاح ٤ عن الآلام لأجل المسيح. وكما أوضح المسيح أن بركات الألم لأجل شخصه أسمى من تلك البركات التى نحصل عليها نتيجة الآلام لأجل البر، هكذا فعل الرسول بطرس حيث قال «إن تألمتم من أجل البر فطوباكم» ثم قال «إن عُيّرتم باسم المسيح فطوبى لكم لأن روح المجد والله يحل عليكم» (١بط٣: ١٤، ٤: ١٤).

وعندما يتحدث المسيح فى هذا التطويب عن الآلام لأجل شخصه فإنه يستخدم ثلاثة تعبيرات مختلفة فيقول:

«إذا عيروكم» إهانة بالكلام

«وطردوكم» إيذاء بدنى

«وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين» أى افتراءات أو شكاوى كيدية

ولعله من الـمُلاحظ أنه هنا، للمرة الأولى فى كل التطويبات، يغيِّر الرب أسلوب الكلام من ضمير الغائب إلى الـمُخاطَب. ففى كل التطويبات السابقة كان يقول «طوبى للمساكين.. طوبى للحزانى.. طوبى للمطرودين من أجل البر». أما الآن فقد قال «طوبى **لكم** إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة». وهذا معناه أن القديس الذى يتألم لأجل المسيح لن يفصله عن المسيح شىء على الاطلاق!

وإذا كان الرب قريباً من المنكسرى القلوب (مز٣٤: ١٨) فإنه أشد قُرباً منهم إذا كانت آلامهم من أجله هو.

لـمَّا تخلى كل المؤمنين عن الرسول بولس وهو فى سجن رومية، أسير يسوع المسيح، فإن الرب لم يتخلَ عنه، الرب بنفسه أتى إليه وشجعه، فيسجل فى آخر صفحة من آخر رسالة كتبها «الجميع تركونى ... لكن الرب **وقف معى** وقوانى» (٢تى٤: ١٦، ١٧).

تصرف المسيحى إزاء الاضطهاد

تُرى كيف يتصرف المسيحى إزاء الاضطهاد. إن وجه الاختلاف بين الشخص المسيحى وغيره، لا يظهر فقط من موقفه فى الظروف العادية، بل أيضاً من تفاعله مع الظروف الصعبة.

وتفاعل المسيحى مع تلك الظروف الصعبة تلخصها النقاط الآتية:

١ - *المسيحى لا يأخذ بثأره*: فالانتقام ليس من شيم المسيحى.

٢ - *المسيحى لا يشعر بالحقد على أحد*: فليس هو فقط لا يقابل الإساءة بمثلها، بل هو أيضاً لا يشعر بالغيظ فى نفسه من أحد.

٣ - *المسيحى لا يشعر بالإحباط نتيجة الاضطهاد*: فلا هو يشعر بالغيظ من شخص معين، ولا حتى بالتذمر على وضع معين.

لكن ليس هذا فقط ما يميز المسيحى، بل هناك شيء إيجابى يميزه، كقول المسيح هنا «افرحوا وتهللوا» !

أصاب أحد الشرّاح الأفاضل[١٣] لمّا قال: إن المسيحى لا يثأر منتقماً مثل رجل العالم، ولا ينزوى منطوياً مثل الطفل، ولا يلعق جراحه صامتاً مثل الكلب، ولا يحتمل الشدائد كارهاً مثل الصوفى، ولا يستعذب الألم منتشياً مثل هواة تعذيب النفس، كلا، بل هو يتصرف فقط كما يليق بالمسيحى؛ إنه يفرح فى مثل هذه الظروف!!

عندما تحدث الرسول بطرس عن الآلام لأجل المسيح طلب من المؤمنين ألا يستغربوا البلوى المحرقة الحادثة بينهم لأجل امتحانهم كأنه أصابهم أمر غريب. وليس فقط لا يستغربوا بل يقول لهم «افرحوا» (١بط٤:١٢، ١٣). ونحن لا نفرح فقط رغم الآلام، بل إننا نفرح ***بسبب هذه الآلام*** التى هى لأجل المسيح، مثل ما قيل عن الرسل بعد ما جُلدوا، إنهم «ذهبوا فرحين من أمام المجمع لأنهم حُسبوا مُستأهلين أن يُهانوا من أجل اسمه» (أع٥:٤١).

إن تابع المسيح لا يتوقع مدح الناس بل تعييرهم. قال المسيح «ويل لكم إذا قال فيكم جميع الناس حسناً» (لو٦:٢٦). فالصيت الذائع فى كل البقاع هو نصيب الأنبياء الكذبة. أما التعيير والاحتقار فهما نصيب التلميذ الحقيقى للمسيح.

بركات ثلاثية

١ - هذه الآلام هى من أجل المسيح «طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة **من أجلى** كاذبين». تفكَّر أيها الأخ المتألم فى التعيير والافتراءات التى احتملها رب المجد لأجلك. كم من الكلمات الشريرة والصعبة التى قيلت عليه من أُناس أشرار (عب١٢:٢، ٣). لقد احتمل المسيح كل هذا لأجلنا، والآن جاء دورنا أن نحتمل نحن لأجله.

إن التعيير أو الطرد فى ذاته ليس حلواً، أما لأجله فكم هو حلو!

٢ - يدعونا المسيح لكى نفرح ونتهلل لأن أجرنا عظيم فى السماوات. فمع أن نصيبنا فى الأرض هنا لأجله هو الأتعاب والآلام، لكن ما ينتظرنا هناك فى السماوات هو عظيم «إن كنا نصبر فسنملك أيضاً معه» (٢تى٢: ١٢). ليس أن الأجر العظيم هو الباعث أو الحافز على محبة المسيح أو حياة الشهادة له، بل هو فقط مشجع أمام مفشلات العدو وعثرات الطريق.

ولم يُخبرنا المسيح عن هذا الأجر العظيم الذى ينتظرنا فى السماوات. فيبدو أن لغتنا البشرية لا تحوى المفردات المناسبة لوصفه، لكنه باليقين أعظم من كنوز الأرض كلها. ألم يحسب موسى فى يومه أن عار المسيح غنى أعظم من خزائن مصر، لأنه كان ينظر إلى المُجازاة؟!

٣ - إن آلامنا لأجل المسيح تجعلنا ننضم إلى موكب عظيم من الشهود والشهداء الذين سبقونا. فكم هناك من ربوات على مرّالعصور احتملوا لأجل المسيح رفض العالم واضطهاده. ونحن بأخذنا نصيبنا فى ذلك ننضم إلى هذا الموكب العظيم، كقول المسيح هنا «فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم».

التطبيق النبوى

إن البقية الأمينة من الشعب الأرضى التى ستجتاز فى الضيقة العظيمة سينطبق عليها بصفة خاصة التطويبان الأخيران؛ ففى تلك الأيام التى لا يعود "سر الإثم" فقط يعمل فيها، بل «سيُستعلن الأثيم» (٢تس٢: ٧، ٨)، كم سيُضطهد الأتقياء لأجل البر. وفى أيام "ضد المسيح" كم سيتألم الشهود والشهداء من أجل المسيح!

سيذهب الشيطان الساقط من السماء فى وسط الأسبوع الأخير، ليصنع حرباً مع باقى نسل المرأة الذين يحفظون وصايا الله (المطرودين من أجل البر)، وعندهم شهادة يسوع المسيح (المطرودين من أجل اسمه) (رؤ١٢: ١٧). كما نقرأ فى تلك الأيام عن صبر القديسين الذين يحفظون وصايا الله وإيمان يسوع (رؤ١٤: ١٢). كما نقرأ أيضاً عن الذين قُتلوا من أجل شهادة يسوع (رؤ٢٠: ٤).

لكن إذا كان كلام المسيح هنا يمتد بالنبوة ليصف حال الأتقياء من اليهود فى الضيقة العظيمة، فكيف يقول المسيح هنا إن أجرهم عظيم فى السماوات؟ أليسوا هم شعباً أرضياً ينتظرون المسيا يأتى إليهم ليؤسس ملكوته على الأرض؟ هذا صحيح، لكننا من سفر الرؤيا

نفهم أن الذين سيُقتلون لأجل المسيح سيكون لهم نصيب أفضل إذ سيكون لهم نصيب فى القيامة الأولى، وينضمون إلى فريق السماويين، وتتم كلمات المسيح هنا عن أجرهم العظيم فى السماوات (رؤ٢٠:٤).

وأما الذين لن يستشهدوا (البقية التقية والمشار إليها بالمئة والأربعة والأربعين ألفاً فى رؤيا ١٤)، فستكون علاقتهم بالسماء وثيقة، ولذا فعند ما سترنم السماء ترنيمة، لن يستطيع أحد على الأرض أن يتعلم هذه الترنيمة إلا هؤلاء وحدهم (رؤ١٤:١-٣).

بالإجمال، وكيفما كانت الأوضاع أو الأزمان، فإن كل من يتحمل الألم لأجل المسيح هو مبارك وسعيد. وهذا كله يعطى نوراً جديداً لقول الرسول «وُهب لكم لأجل المسيح، لا أن تؤمنوا به فقط، بل أيضاً أن تتألموا لأجله» (فى١:٢٩).

"إنى أعتبره مسيحياً حقاً ذاك الذى لا يخجل من الإنجيل، ولا يجلب العار عليه"[14]

[متى هنرى]

القسم الثانى

تأثير تلميذ المسيح

مت ٥ : ١٣ – ١٦

- أنتم ملح الأرض
- أنتم نور العالم

١٣

أنتم ملح الأرض

"أنتم ملح الأرض. ولكن إن فسد الملح فبماذا يملَّح؟ لا يصلح بعد لشيء إلا لأن يُطرح خارجاً ويُداس من الناس"

(مت ٥:١٣)

بعد أن قدم الرب فى التطويبات خصائص أتباعه وصفاتهم. فإنه يوضح الآن تأثيرهم على الذين حولهم. فالمؤمن ليس فقط مختلفاً عن الـمُحيطين به، بل هو أيضاً مؤثر فيهم، وتأثيره مزدوج: كملح وكنور. والرب اختار هذين التشبيهين الشائعين والواضحين؛ الملح والنور، لأن كليهما صامت فى فعله، لكن قوى وأكيد فى تأثيره. وكأن الرب بهذه الأقوال يعلِّم تلاميذه أنه لا يريدهم اعتزال العالم واحتجابهم عن الناس واختفائهم فى الصوامع، كما فهم البعض خطأ. بل يذكِّر تلاميذه بأنهم يجب أن يؤثروا تأثيراً صالحاً على الناس كملح للحفظ، وكنور للهداية.

لاحظ أن الرب لم يكن يوجه حديثه هنا إلى البشر بصفة عامة، ولا هو قال لسامعيه: ينبغى أن تكونوا ملحاً للأرض ونوراً للعالم. لكن الرب وجّه حديثه لتلاميذه. فالنعمة وحدها تخلّص، وعندما يخلص الخاطئ يصبح خليقة جديدة؛ يصبح تلميذاً للمسيح؛ يُظهر البر العملى كملح الأرض، ويشهد للآخرين كنور للعالم.

دعنا نركز حدثنا الآن على الشق الأول فقط، أعنى قول الرب «أنتم ملح الأرض. ولكن إن فسد الملح فبماذا يُملّح».

أنتم ملح الأرض

والملح فى ذاته

أبيض : رمز النقاوة والطهر.

ذراته صغيرة ومكسرة : رمز التواضع والانسحاق.

سريع الذوبان : صورة للوداعة.

رخيص : صورة لعدم تقدير الناس بصفة عامة لأتباع المسيح.

إنهم، كما قال عنهم السيد فى التطويبات التى سبق أن تأملناها؛ مساكين بالروح، وودعاء رحماء، وأنقياء، صانعو سلام ومع ذلك فإنهم مُضطهدون ومُفترى عليهم. لكن ما أقوى تأثيرهم «أنتم ملح الأرض».

والملح كان له تقدير عند الأقدمين؛ فاعتبره الفُرس رمزاً للفضل والنعمة (عز٤:١٤)، وأسماه اليونانيون "إلهى". أما الرومان فأعطوه كأجر لجنودهم، ومن هذه العادة جاءت الكلمة الإنجليزية *salary* بمعنى "أجر". والعرب اعتبروه رمزاً للصداقة "عيش وملح". وأما العبرانيون فاتخذوه رمزاً للعهد (لا٢:١٣).

والملح له على الأقل تأثيرات ثلاثة هامة:

١ - رغم رخص ثمنه، إلا أنه هو الذى يعطى للطعام طعماً، وبدونه يصبح الأكل غير مقبول ولا مُستساغ «هل يؤكل المسيخ* بلا ملح؟» (أى٦:٦). هكذا المؤمنون فرغم أنهم عادة أقل الناس قدراً، لكن العالم بدونهم لا طعم له.

٢ - ثم إن الملح يسبب العطش. وهكذا فإن المؤمن بحياة البر والتقوى التى يعيشها يُوجد فى نفوس المُحيطين به تعطشاً حقيقياً إلى ماء الحياة، فيجذب الآخرين إلى المسيح الذى عنده وحده ينبوع الحياة.

٣ - الملح، لاسيما قبل اختراع المبردات، كان وسيلة أساسية للحفظ من الفساد والتعفن. والواقع ما أشد حاجة العالم اليوم إلى أتباع مُخلصين للمسيح يوقفون زحف الفساد ويعيقون انتشار التعفن الأدبى والروحى.

ليكن لكم فى أنفسكم ملح

قبل أن أتحدث عن تأثير الملح، أشير إلى كلام المسيح فى مرقس٩:٤٩، ٥٠ «كل واحد

* المسيخ أى ما لا طعم له

يملح بنار، وكل ذبيحة تملح بملح. الملح جيد ولكن إذا صار الملح بلا ملوحة فبماذا تُصلحونه؟ ليكن لكم فى أنفسكم ملح. وسالموا بعضكم بعضاً».

العبارة الأولى «كل واحد يملح بنار» هى عبارة عامة تشمل جميع البشر «كل واحد»، وأما النار فإنها صورة لدينونة الله. أما العبارة الثانية «وكل ذبيحة تملح بملح» فإنها تشمل القديسين فقط، المعتبرين هنا أنهم «ذبيحة». فالذبيحة، أو كل ما يُقدَّم لله، ينبغى أن يكون متوافقاً مع طبيعة الله كقول الرب قديماً «لاتُخلِ تقدمتك* من **ملح عهد إلهك**. على جميع قرابينك تقرب **ملحاً**» (لا٢:١٣). وهذا معناه أن ما يوقف الفساد فى المؤمن، ليكون متوافقاً مع الله، هو ملح القداسة. أما الآخرون من البشر بصفة عامة فلن يوقف الفساد المستشرى فى كيانهم سوى نار الدينونة الأبدية. ويا لرعب المصير!

وعندما يقول الرب «ليكن لكم فى أنفسكم ملح» يقصد أنه لا يجب أن ننتظر أن يقول لنا أحد عما ينبغى أن نفعله وما لا ينبغى أن نفعله، بل ليحكم الواحد منا على الطبيعة الساقطة داخل نفسه. عند ذلك سيأتى السلام «وسالموا بعضكم بعضاً»، وذلك لأن الحكمة التى من فوق هى أولاً طاهرة ثم مسالمة (يع٣:١٧).

الملح ووقف انتشار الفساد

يُخبرنا الكتاب المقدس أن العالم من بدايته كان مسرحاً لشر الإنسان وفساده. وفى أيام نوح «فسدت الأرض.. إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض» (تك٦:١١، ١٢). وبعد دينونة الطوفان، عندما بدأ العالم بداية جديدة، عاد وفسد فى أيام لوط بشرور سدوم وعمورة المُرعبة (تك١٩). ونحن لا نعجب لما نراه فى عالم نهاية القرن العشرين من فساد أدبى مريع رغم التقدم العلمى المُذهل، فتقرير الله على هذا العالم أكثر من مرة «الكل قد زاغوا معاً فسدوا» (مز١٤:٣ ؛ ٥٣:٣).

ولو تُرك أى مجتمع لنفسه فإنه سريعاً سيصبح كالسمكة الفاسدة، أو اللحم الذى أنتن. ومع أن هناك أساليب متعددة أوجدها الله لمنع انتشار الفساد، كالحياة الأسرية، والحكومات،.. إلا أن المؤمنين هم أقوى الوسائل لمنع انتشار الفساد.

- تُرى كيف يوقف المؤمنون زحف الفساد وانتشاره؟ دعنى أقدم مثلاً عملياً لتوضيح ذلك.

* قربان الدقيق فى لاويين ٢ يشير إلى ناسوت المسيح وحياته العطرة الفريدة. ومن مثل المسيح فى كل تفاصيل حياته كان مُملحاً فى قداسة كاملة؟!

هب أن جماعة أخذت تتحدث معاً حديثاً فاسداً وغير لائق. وفجأة ظهر فى المشهد مؤمن تقى. ما الذى يحدث؟ فى الحال تجد أن الحديث توقف. إن ذلك الأخ لم يَقُل شيئاً، ولا طلب منهم تغيير الحديث. لكن نفس وجوده أحدث التغيير، أو بالحرى أوقف سريان الفساد.

إن مهمة الملح الأساسية مهمة سلبية. فالملح لا يعالج ما فسد، لكنه يوقف زحف الفساد. وهكذا مهمة المسيحى فى المقام الأول سلبية. الله لم يطلب منه تحسين العالم، فهذه ليست مهمة الملح. إن كل مهمته هى وقف استشراء الفساد.

لكن ما الذى حدث؟ لقد فسد المجتمع الذى نعيش فيه بطريقة تراجيدية. ونحن المسيحيين نستنكر ونستهجن ونشجب فساد المجتمع، نعيب زماننا والعيب فينا. كان الأجدر بنا أن نلوم نفوسنا وما وصلنا إليه من ضعف. فهل يلوم أحد قطعة اللحم التى لم تملَّح إذا استشرى فيها الفساد؟ أكان يمكن أن يحدث شيء بخلاف هذا؟ إن السؤال الذى كان ينبغى أن يُسأل هو: أين الملح؟

إن فسد الملح فبماذا يملح؟

إن للملح طعماً حريفاً زاعقاً، والمجتمع الفاسد لا يحب ذلك، والمسيحيون - بالأسف - فضلوا مُهادنة العالم والاستحواذ على رضى الناس. إن مأساة المؤمنين حقاً أنهم تشبهوا بأهل العالم، ففقد الملح ملوحته. كان ينبغى أن يكون التمايز بين المسيحى وغيره واضحاً صارخاً، وحتى لو كره الناس ذلك فإنهم إذ «يشتمون (سيرتنا) الصالحة فى المسيح»، وإذ يفترون (علينا) كفاعلى شر، يمجدون الله فى يوم الافتقاد من أجل (أعمالنا) الحسنة التى يلاحظونها (١بط٣:١٦، ٢:١٢).

وعندما يقول المسيح هنا «إن فسد الملح فبماذا يملَّح؟» لا يشير إلى مؤمن فقد خلاصه، بل إلى مسيحى فقد تأثيره التقوى على الآخرين. عندما يتشبه المؤمن بأهل العالم فإنه سيفقد تأثيره عليهم، تماماً كما يفقد الملح ملوحته. وصورة ذلك نجدها فى لوط، عندما ذهب ليكلم أصهاره، فكان كمازح فى أعينهم.

أيها المؤمن الذى فقدت تأثيرك؛ أسفى عليك، فالله لم يعد يحتاج إليك، والناس لم تعد تحترمك، تماماً كما يفعلون بالملح الذى فسد وفقد المعنى من وجوده. فالملح الذى بلا ملوحة لا علاج له، ولا فائدة أخرى منه. ولهذا فإنه لا يصلح بعد لشيء إلا لأن يُطرح خارجاً ويُداس من الناس!

لاحظوا أن المسيح لم يَقُل لتلاميذه أنتم عسل العالم، أو أنتم سكر الأرض. ليس المطلوب منا أن ننزع مرارة الأرض أو نضفى عليها حلاوة. مهمتنا المحددة هي وقف الفساد. فهل وعينا ذلك؟

التطبيق النبوى

الأرض فى لغة الكتاب المقدس هى دائرة الامتياز الخصوصى بالمقابلة مع العالم الواسع، إنها المكان الذى عينا الرب عليه دائماً. ولقد كانت الأرض هى دائرة الشعب الأرضى فى أيام المسيح، لكنهم إذ رفضوه فقد طُرحوا خارجاً، وظلت أورشليم مدوسة من الأمم وستظل كذلك حتى تكمل أزمنة الأمم (لو٢١:٢٤).

ولقد شغلت المسيحية مكان اليهودية فى الشهادة لقرون كثيرة، فأصبحت هى المكان الذى يتمتع سواء عملياً أو مجرد اعتراف بنور من الله. لكن هل حال المسيحية اليوم أفضل من اليهودية قديماً؟. آه ما أكثر مَنْ يحملون اسم المسيح زوراً دون حياة حقيقية فى الداخل. وعندما يأتى المسيح لاختطاف عروسه سوف يتقيأ المسيحية الاسمية من فمه. وكل من يحملون اسم المسيح دون تلمذة حقيقية له، سيُطرحون خارجاً ولا أمل لواحد منهم فى الخلاص، وتتحول المسيحية كمجموع إلى جثة ميتة سرعان ما يصيبها الفساد والتعفن.

لكن العالم لازال ينتظره عصره الذهبى فى المستقبل. ونجد صورة ذلك فى إبراء مياه أريحا الردية وأرضها المُجدبة بواسطة الملح فى الصحن الجديد (٢مل٢:١٩-٢٢). فإن كانت أريحا تمثل العالم الواقع تحت اللعنة (تك٣:١٧؛ يش٦:٢٦) فإن الملح فى الصحن الجديد؛ صورة للبقية التائبة الراجعة إلى الله فى العهد الجديد الذى سيقطعه الرب معهم، هؤلاء سيكونون بركة لكل الأرض. ونحن نعلم طبعاً أن أساس كل بركة فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل هو عمل ذلك الفادى الكريم «حمل الله الذى يرفع خطية العالم» (يو١:٢٩)؛ له كل المجد.

14

أنتــم نــور العــالم

"أنتم نور العالم. لا يمكن أن تُخفى مدينة موضوعة على جبل ولا يوقدون سراجاً ويضعونه تحت المكيال بل على المنارة فيضيء لجميع الذين في البيت. فليضئ نوركم هكذا قدام الناس لكى يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذى فى السموات"

(مت٥: ١٤-١٦).

تأملنا فى الفصل السابق فى تأثير المؤمنين على مَنْ حولهم باعتبارهم ملحاً، وسنتأمل بنعمة الرب الآن فى تأثيرهم باعتبارهم نوراً.

العلاقة بين الملح والنور

الملح تأثيره سلبى، والنور إيجابى.

الملح يعمل من الداخل، بينما النور يكشف من الخارج.

الملح يحفظ من الفساد، لكن النور يُظهر حقيقة الأشياء.

الملح باعتباره مانعاً للفساد يتجاوب مع البر، والنور الذى ينتشر فيبدد الظلام من حوله يمثل النعمة فى نشاطها المُبهج.

والمؤمنون يتألمون من أجل البر(ع١٠) باعتبارهم ملح الأرض، ويتألمون من أجل المسيح (ع١١) باعتبارهم نور العالم.

ملح الأرض الرخيص والمتكسر يوضح لنا ما يجب أن نكون عليه من وداعة وتواضع، ونور العالم العالى والـمُشرق يذكرنا بما يجب أن نتحلى به من رفعة روحية تسمو فوق الدنايا والصغائر.

وأخيراً إن كانت هناك خطورة من أن يفقد الملح ملوحته، فإن النور الذى فينا ممكن أن يغدو ظلاماً كقول الرب «إن كان النور الذى فيك ظلاماً، فالظلام كم يكون؟» (مت ٦: ٢٣). ويا للكارثة!!

«أنتم نور العالم»

ما أعظم هذه الكلمات الثلاث! لقد نظر الرب إلى تلاميذه البسطاء الذين لم يكونوا فى يومهم سوى أدنى الناس وأقلهم، وقال لهم هذه الكلمات المملوءة بالتحدى العظيم «أنتم نور العالم»!

أيها الأخ الحبيب : هل وعيت كلمات المسيح الرائعة هذه «أنتم نور العالم»؟ إن الخطر الكبير علينا هو أن نعتبر، إذا قرأنا مثل هذه الكلمات، أن هذا التكليف العظيم تقع مسئوليته على أكتاف أشخاص آخرين سوانا، أو كأنه قاصر على فئة من المؤمنين لا تتعداهم. هذا ليس صحيحاً بالمرة، فمسئوليته تقع على كل مؤمن ومؤمنة فى الوقت الحاضر.

ويالها من مسئولية. إن العالم اليوم يغط فى الظلام المخيف، وينتظره قتام الظلام إلى الأبد، والمطلوب من كل مؤمن حقيقى بالمسيح أن يهدى النفوس المتعبة إلى المسيح مُريح التعابى ومخلص الخطاة.

ولا يقلل من هذه المسئولية كون العالم لا يشعر أنه فى ظلمة، بالعكس، إن ما يضاعف المسئولية على المؤمنين، ويزيد من صعوبة التكليف الذى أمامهم، هو أن العالم اليوم يفتخر باستنارته. فالاستنارة هى الكلمة التى تلذ للمفكرين أن يستخدموها عند وصفهم لأحوال العالم ابتداء مما أسماه المؤرخون بعصر النهضة أو التنوير. لكن العالم رغم استنارته العلميه، يرزح فى ظلمة روحية كثيفة، أكثر من أى وقت مضى!

صحيح إن العالم استطاع أن يحطم الذرة، ويكتشف القوة النووية الجبارة. لكن أين هى الأخلاق التى تضمن حصر استخدام هذه القوة فى نفع البشرية وخدمتها، لا فى تدميرها وإبادتها؟ نعم أين هى الأخلاق فى عالم أصبح الإرهاب والقتل يمثلان المادة الكبُرى من

أخبار وسائل إعلامه؟!

وصحيح أن الطب تطور بفضل اكتشاف العديد من العلاقات العضوية والحيوية، لكن ماذا عن العلاقات الأسرية المنهارة؟!

وصحيح أنه بفضل تطور وسائل النقل والمواصلات تقاربت المسافه بين البلدان والقارات بل والكواكب الأخرى، لكن فى نفس الوقت تباعدت المسافة بين الشقيقين، وأهم من كل ما سبق، ما أوسع الشقة التى تفصل الإنسان عن الله، وتنتظره هوة عظيمة تُبعده تماماً عن محضر الله حيث ترن فى الأبدية أصداء كلمات المسيح المُرعبة «تباعدوا عنى يا جميع فاعلى الظلم»!

لهذا يقول المسيح لتلاميذه «أنتم نور العالم». وعلى قدر اشتداد الظلمة تكون الحاجة للنور. وفى الليلة الليلاء يُفتقَد البدر!

كيف ينير المؤمنون؟

المؤمنون بالطبيعة مثل غيرهم من البشر، كانوا يعيشون فى الظلمة (مت ٤: ١٦)، بل هم أنفسهم كانوا ظلمة (أف ٥: ٨) أى أن ما يميزهم طبيعياً هو الظلام. وإن كان النور فى الكتاب المقدس هو تعبير عن الفرح والسرور، فإن عكسه الظلمة التى هى تعبير عن الجهل والحزن، بل عن كل ما هو مُضاد لله الذى هو نور، وهو أبو الأنوار (يع ١: ١٧). وعندما ولد المؤمنون من الله حدث تغيير فى حياتهم، كقول الرسول بولس «كنتم قبلاً ظلمة، أما الآن فنور فى الرب» (أف٥:٨) لقد صاروا يعيشون فى النور، والنور يعيش فيهم. وأصبحت الطبيعة الإلهية التى هى محبة، والتى هى نور تميزهم الآن.

والمسيح عندما يقول هنا «أنتم نور العالم» فإنما يشير إلى فترة غيابه عن الأرض، لأنه قال مرة «أنا هو نور العالم، مَنْ يتبعنى فلا يمشى فى الظلمة» (يو ٨: ١٢) وأيضاً «ما دمت فى العالم فأنا نور العالم» (يو ٩: ٥). فالنور الحقيقى* هو المسيح نفسه (يو١:٩). والمؤمنون نظراً لحياة المسيح فيهم أصبحوا الآن نوراً فى الرب.

الله فى مطلق لاهوته هو النور. والمسيح بمجيئه إلى العالم أصبح نور العالم أى الشمس. فالشمس التى هى مصدر النور للأرض، والمركز الذى حوله تدور الأرض وباقى المجموعة الشمسية، والتى بدونها يمسى كل ما حولنا مُظلماً بارداً ميتاً، تمثل المسيح (ملا ٤: ٢،

* هذا برهان واضح على لاهوت المسيح، لأن «الله نور وليس فيه ظلمة البتة» (١يو١:٥).

مت١٧: ٢؛ رؤ١: ١٦). لكن شكراً لله الذى كما جعل النور الأكبر (الشمس) لحكم النهار، فإنه جعل النور الأصغر (القمر) لحكم الليل. ففى ليل غياب واحتجاب المسيح عن العالم فإن الكنيسة تشغل وضع القمر إذ تعكس للأرض نور سيدها المحجوب عن الأبصار، والمؤمنون أفراداً هم الكواكب التى تدور حول الشمس، أو هم النجوم التى تهدى المسافرين ليلاً فى الفيافى وفى البحار.

هذا هو المقصود من القول «أنتم نور العالم»، فالمؤمنون هم كذلك طوال فترة غياب المسيح عن العالم، وحتى الوقت الذى فيه تشرق شمس البر والشفاء فى أجنحتها، عندما يظهر المسيح من جديد للعالم.

مسئولية تلاميذ المسيح

من أول أصحاح فى الكتاب المقدس، ومن أول أيام هذا العالم عندما أوجد الله النور فى المشهد، يقول الوحى «فصل الله بين النور والظلمة» (تك١: ٤) ومن هذا نتعلم أن الله يريد أن يكون أولاده مميزين ومختلفين عن باقى الناس «بهذا أولاد الله ظاهرون وأولاد إبليس» (١يو٣: ١٠)، نعم نختلف فى الطباع والعادات والمشارب عن «أهل الدنيا» أولئك «الذين يفتكرون فى الأرضيات».

فى هذا يقول الرسول بولس للمؤمنين فى فيلبى «فى وسط جيل معوَّج وملتوٍ تضيئون بينهم كأنوار فى العالم» (فى٢: ١٥). فالمؤمنون كأنوار هم مشهورون وواضحون وعيون الجميع عليهم. ولا عجب فإنهم لآيات (تك١: ١٤) بل هم أنفسهم آيات وعجائب (إش٨: ١٨)، وكذلك «رجال آية» (زك٣: ٨).

وبناء على كل ما سبق فإنه يجب أن يميز تلاميذ المسيح حالة السمو الأدبى والروحى. فالنور يجب أن يكون مرتفعاً، ولهذا شبَّه الرب تلاميذه بمدينة موضوعة على جبل، وسراج موضوع على المنارة.

كما يجب أن يكون المؤمن واضحاً فى شهادته مثل "نار على علم"، أى مثل مدينة مُنيرة فوق جبل. كما يجب ألا نغطى النور الذى فينا بمشغوليات الحياة المختلفة لأنهم «لا يوقدون سراجاً ويضعونه تحت المكيال». وكما حذر الرب من إخفاء النور بمشغوليات الحياة (المكيال)، فقد حذر فى مرقس٤: ٢١ ولوقا٨: ١٦ من شيئين آخرين هما: "السرير" (الكسل)، و"الإناء" (الاهتمام بإشباع وإمتاع الجسد).

والرب عندما شبَّه تلاميذه بمدينة موضوعة على جبل، فقد كان يشير إلى تأثيرهم على «الذين هم من خارج» التائهين فى ظلمة هذا العالم. وعندما يشبهم بسراج على المنارة ليضيء لجميع الذين فى البيت، فإنه يشير إلى تأثيرهم المُبهج المُريح على «الذين هم من داخل».

«ليضئ نوركم»!

ليس النور هو الأعمال الحسنة كما يفتكر البعض، فالمسيح بقوله «ليضئ نوركم هكذا قدام الناس» لا يقصد طبعاً أن نُظهر أعمالنا الحسنة للناس، بالعكس، فالرب فى نفس هذه العظة يحذرنا من أن نصنع برنا قدام الناس لكى ينظرونا (مت ٦: ١). إن النور الذى يجب أن نحرص على أن يضيء للناس هو الشهادة. فتلاميذ المسيح الأمناء، مع أنهم يتميزون بالوداعة كسيدهم، إلا أنهم مثله أيضاً فى جسارة الإيمان لا يخفون الشهادة، بل يعترفون الاعتراف الحسن.

دعنى أوضح ذلك ببعض الأمثلة: إذا كنا نتناول الطعام فى مكان عام هل نحرص أن نشكر الله أمام الجميع قبل الأكل، أم أننا نتحاشى ذلك؟ (أع ٢٧: ٣٥). هل نخجل أن نفتح الكتاب المقدس قدام الآخرين؟ هل نحن مستعدون دائماً لمجاوبة كل مَنْ يسألنا عن سبب الرجاء الذى فينا بوداعة وخوف؟ (١بط٣: ١٥).

لو كان القصد هو الإعلان عن أعمالنا الحسنة ،فإن الناس سيمدحوننا نحن ويعود المجد علينا. أما إذا ضاء نورنا، وشهدنا للمسيح فى حياتنا، فإن الناس سيربطون بين الأعمال الصالحة التى يلاحظونها فينا، وبين اعترافنا بالمسيح، وبذاك يعود المجد لله وحده.

«ليضئ نوركم هكذا قدام الناس. لكى يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم* الذى فى السماوات». وعندما يجمع الرب بين النور والأعمال الصالحة فى هذه الآية فإنه يقدم لنا درساً فى غاية الأهمية. لأنه ما هى شهادتنا عن المسيح إن لم تصحبها شهادة الحياة؟ ثم ما هى الحياة المباركة، إذا كان فم صاحبها مُغلقاً عن الشهادة للمسيح؟ أما إذا اجتمع الاثنان معاً؛ الشهادة والأعمال الصالحة، فستتم فينا كلمات الرسول «وسط جيل معوج وملتوٍ تضيئون بينهم كأنوار فى العالم، متمسكين بكلمة الحياة» (فى ٢: ١٥. ١٦).

* أول مرة يرد فيها اسم "الآب" فى هذه الموعظة، بل وفى كل العهد الجديد. وهو يرد فى الموعظة ١٧ مرة.

«لا أكاد أتصور حالة موت روحى أكثر من حالة أشخاص يقرأون موعظة المسيح فوق الجبل باسترخاء واستمتاع. إن هؤلاء بكل يقين هم «المستريحون فى صهيون»[15]»

(كليف س. لويس)

القسم الثالث

بر تلميذ المسيح

٥ : ١٧ – ٤٨

- ○ المسيح والناموس
- ○ المسيحى والناموس
- ○ الغضب والقتل
- ○ الشهوة والزنى
- ○ الطلاق
- ○ الصدق والحلف
- ○ المسيحى ومبدأ المعاملة بالمثل
- ○ المسيحى ومحبة الأعداء

١٥

المسيح والناموس

"لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل.
فإنى الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لايزول حرف واحد
أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل"

(مت ٥: ١٧، ١٨).

بداية من متى ٥: ١٧ يبدأ قسم جديد من موعظة المسيح على الجبل عنوانه الملك وشريعته الأسمى. فالقسمان السابقان من الموعظة اللذان تأملنا فيهما حتى الآن (ع٣-١٦) كان موضوعهما: مَن هو المسيحى؟ أما القسم الجديد فموضوعه ماذا يفعل المسيحى؟ (ع١٧-٤٨).

وتُعتبر الأعداد الأربعة الأولى من هذا القسم (ع١٧-٢٠) بمثابة مقدمة له، ثم تليها التطبيقات العملية كما سنرى، وتحتوى المقدمة على فكرتين:

١ - ع١٧ ، ١٨ المسيح والناموس

٢ - ع١٩ ، ٢٠ المسيحى والناموس

فيشرح الرب له المجد فى البداية موقفه من الناموس بهذه العبارات الحاسمة: «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل».

ما جئت لأنقض

وبداية نحب أن نسأل عن معنى «الناموس والأنبياء» فى عبارة الرب هنا «لا تظنوا

أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء». إنها تعنى ببساطة كل أسفار العهد القديم (انظر مثلاً لو١٦: ٢٩، ٣١، ٢٤: ٢٧؛ أع١٣: ١٥..) ويسمى فى أحيان أخرى «ناموس موسى والأنبياء والمزامير» (لو٢٤: ٤٤، ٤٥) أو للتبسيط يسمى أيضاً «الناموس» فقط (يو١٠: ٣٤).

ومع أن الرب قال هنا صراحة «لاتظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء» إلا أن هذا الظن الذى فى غير محله لازال يردده بعض الجهلاء اليوم. فيقولون إن الله أعطى البشر الشريعة اليهودية، ومع الوقت نسخها الله وأعطى شيئاً أكثر تطوراً، أو طرازاً أحدث، وهكذا دواليك. لكن هذا الفكر يجب نبذه إذ فيه طعنٌ فى الله، كأنه، تبارك اسمه، يتطور. وحاشا أن يكون كذلك. والمسيح هنا يقول «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء». فلم يأتِ المسيح لينقض ما سبق ويؤسس شيئاً جديداً، كلا. لا لينقض أتى بل ليكمل.

لعل اليهود وقد رأوا تصرفات الرب، وسمعوا كلماته، اعتبروه مُصلحاً ثورياً جاء ليهدم كل تقاليد السالفين، وتعاليم الكتبة والفريسيين، وليغيِّر العوائد والسُنة، ولينقض الناموس والأنبياء. والأرجح أن مشكلة السبت ظهرت مبكراً فى خدمة الرب الجهارية (مر٢: ٢٣-٢٨). وهم قبل ذلك تساءلوا فيما بينهم «ما هو هذا التعليم الجديد؟» (مر١: ٢٧). ولعل حادثة المرأة التى أمسكت وهى تزنى تعبِّر عن إحساسهم بأن هناك بين المسيح وناموس موسى خصومة «موسى فى الناموس أوصانا أن مثل هذه تُرجم، فماذا تقول أنت؟» (يو٨: ٥). لكن المسيح هنا يؤكد أنه لم يأتِ؛ بثورة حمراء كانت أم بيضاء، وها هو يقرر بكل وضوح سلطان الناموس، بل إن من الأصحاح السابق كان الرب قد عبَّر عن رأيه فى المسألة. فهو فى التجربة من الشيطان فى البرية لم يدخل فى مناقشة معه، بل بالنسبة للمسيح كان كل شىء محسوماً فى الناموس، واقتباس آية واحدة منه كان كافياً لرّد المجرّب على نحره!

كلا. إن المسيح هنا يؤكد أنه لا خصومة بينه وبين موسى، ولا بين العهدين القديم والجديد، ولا بين الإنجيل والناموس. فلقد أتى المسيح أولاً ليكمِّل الناموس والأنبياء، ثم إنه أتى أيضاً ليكون هناك إنجيل يُكرز به. المسيح هو نقطة الالتقاء بين العهدين القديم والجديد. وبينما يشهد الناموس للإنجيل (رو٣: ٢١) فإن الإنجيل أيضاً يشهد للناموس (رو٣: ٣١). لهذا كله قال المسيح «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أوالأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمّل».

مامعنى «أكمل»؟

فى البداية يجب أن نؤكد أن المسيح لم يأتِ لكى يكمل الناموس بمعنى أن الناموس كان ناقصاً ويحتاج إلى إضافة شيء عليه، لأن «ناموس الرب كامل» فى ذاته (مز١٩:٧). كما أنه لم يأتِ ليضيف إلى أقوال الأنبياء أقوالاً جديدة، فهذا كان يكفى فيه العديد من الأنبياء ولم يكن يستلزم تجسد الابن الأزلى. كلا، لا يمكن أن يكون هذا هو المعنى المقصود. فما هو المعنى المقصود إذاً؟

بالنسبة للناموس فقد أكمله الرب يسوع بالمعانى الآتية:

أولاً: **فى حياته** - يقول الرسول بولس «لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه، مولوداً من امرأة، مولوداً **تحت الناموس**» (غل٤:٤). ويعلن الوحى أنه منذ إعطاء الناموس لم يستطع أحد من البشر أن يكمله «كما هو مكتوب أنه ليس بار ولا واحد.. ليس من يعمل صلاحاً ليس ولا واحد... ونحن نعلم أن كل ما يقوله الناموس فهو يكلم به الذين فى الناموس، لكى يستد كل فم» (رو٣: ١٠-١٩). لكن الرب يسوع هو وحده الذى استطاع أن يكمل الناموس تماماً. لقد اتهمه اعداؤه مراراً بأنه نقض الناموس إذ كسر السبت، لكن المسيح لا نقض الناموس ولا كسر السبت. لقد واجههم الرب وتحداهم أكثر من مرة ليجدوا فى الناموس ما يمنع فعل الخير أو يحرّم الشفاء فى السبت فلم يستطيعوا.

وقديماً عندما أعطى الله الناموس لموسى، وكان الشعب وقتها يرقصون حول العجل الذهبى فإن موسى الذى أخذ الناموس فوق الجبل كسره أسفل الجبل. لم يقدر موسى أن يدخل إلى الشعب الخاطئ بلوحى الشريعة وإلا كان قد قضى على كل الشعب. ثم صعد موسى إلى الجبل مرة ثانية. وفى تلك المرة طلب الرب من موسى أن يضع لوحى الشريعة داخل التابوت وكأن الله يقول: لو أعطينا هذا الشعب الخاطئ الناموس ملايين المرات فإن مصيره الكسر فى كل مرة. لكن فى داخل التابوت ممكن للوحى الشريعة أن يُحفظا. وكان تابوت العهد رمزاً لربنا يسوع المسيح الذى قال «أن أفعل مشيئتك ياإلهى سُررت. **وشريعتك فى وسط** أحشائى» (مز٤٠:٨).

ثانياً: **فى موته** - فالناموس يدين الخطية، ويطلب لغفرانها الذبائح الدموية لأنه «بدون سفك دم لا تحصل مغفرة» (عب٩:٢٢) لكن أيمكن أن دم ثيران وتيوس يرفع

خطايا؟ أم أن فيها كل سنة ذكر خطايا؟ (عب١٠: ٣، ٤). تُرى حتى متى كان سيل هاتيك الدماء الحيوانية سيستمر؟ ثم ما هو الغرض منها؟ نفهم من كلمة الله أن هذه كلها كانت موضوعة فقط لوقت الاصلاح، إلى أن يجيء المسيح ويقدم ذبيحة نفسه (عب٩: ١٠).

إذاً فموت المسيح أكمل للناموس أحكامه، وللرموز مدلولها!

ونفس الأمر بالنسبة للنبوات. ففى حياته وفى موته تمم المسيح كل النبوات التى سبق الأنبياء وتنبأوا بها عنه (انظر مت ٢٦: ٢٤ . ٥٤؛ لو٢٤: ٤٤؛ أع١٣: ٢٧، ٢٩، ...)

فى يوحنا١٩: ٢٨-٣٠ بصدد مشهد الصليب يقول البشير «بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد كمل، فلكى يتم الكتاب قال أنا عطشان» - لاحظ أنه ليس ليروى غليله قال أنا عطشان، بل «ليتم الكتاب» ثم يضيف البشير قائلاً «فلما أخذ يسوع الخل قال قد أكمل»!!

فمولده العذراوى فى بيت لحم، وحياة الافتقار والتواضع، واحتقار الناس له وكراهيتهم إياه، ثم كل أحداث خيانة الأمة وقتلهم إياه، ودفنه، وقيامته، وصعوده. كل هذه سبق أن تنبأ بها الأنبياء فى العهد القديم. تخيّل هذا الكم الهائل من النبوات عن المسيح فى العهد القديم (نحو ٣٣٣ نبوة) ولم يأتِ المسيح. لو حدث ذلك لكان كل العهد القديم يُشبه إصبعاً يشير إلى الفراغ والعدم، يشير إلى لا شيء. فلما أتى المسيح كمَّل الناموس والأنبياء!

ثالثاً: **فى قديسيه** - فبقوة الروح القدس فينا يمكننا نحن الآن أن نتمم حكم الناموس (أى مطلب بره) كما سنوضح بالتفصيل بعد قليل (أنظر رو٨: ٤). وعندما يقطع الرب عهداً جديداً مع بيتى إسرائيل ويهوذا «يقول الرب أجعل نواميسى فى أذهانهم وأكتبها على قلوبهم» (عب٨: ١٠؛ إر٣١: ٣٣) فليس على ألواح حجرية سيُكتب الناموس فى ذلك الوقت السعيد، بل سيكتبها الرب على ألواح قلوبهم اللحمية!

لا يزول حرف أو نقطة

يستطرد المسيح قائلاً «فإنى الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» (ع١٨). وبهذا الكلام القاطع أكد

الرب على ثبات وقدسية الأسفار الموحى بها. كما قال فى مناسبة أخرى «لا يمكن أن يُنقض المكتوب» (يو ١٠: ٣٥).

نعم.. لقد وضع الرب ختم المُصادقة على كل أسفار العهد القديم. وأكد لا على وحى مضمونها فحسب (كما يريدنا بعض اللاهوتيين أن نؤمن)، بل على وحيها اللفظى. فأى كلام أوضح من هذا «لا يزول حرف واحد أو نقطة* واحدة». وعندما نقول "*الوحى اللفظى***" فإننا نعنى هذا أن الروح القدس عندما أوحى لكتبة الوحى بالكتابة فإنه قادهم حتى فى اختيار الألفاظ فى كل تعبير كتبوه كما أراد هو.

إلى أن تزول السماء والأرض

إن الناموس، وقد أعطاه الرب لشعب أرضى، ينظم الحياة على الأرض. والنبوة، وأسفار العهد القديم كله، تتحدث عن هذا المشهد المنظور (لا سيما الأرض) وتصل بنا حتى بركتها الألفية، وكتابة الناموس على قلب الشعب وأذهانهم. ثم ماذا بعد ذلك؟ تتحدث النبوة بعد ذلك عن أن هذا المشهد كله سيزول، وهكذا ستزول السماء المخلوقة والأرض مُفسحة المجال للأبدية. وفى الأبدية لا مجال؛ لا للناموس ولا للأنبياء، المسيح وحده عنده «كلام الحياة الأبدية» (يو٦: ٦٨).

لذلك قال المسيح فى مناسبة أخرى «السماء والأرض تزولان ولكن **كلامى لا يزول**» (مت٢٤: ٣٥). نعم السماء والأرض ستزولان يوماً، وعندها لن يكون هناك لزوم لا للناموس ولا للأنبياء، بعد أن يؤديا دورهما ويتم كل ما كُتب فيهما، أما كلامه هو؛ «كلام الحياة الأبدية»، فلن يزول مطلقاً.

---

* اللغة العبرية مثل العربية قد تغيّر وجود النقطة ووضعها فى المعنى. فما أبعد الفارق مثلاً بين الجمل والحَمَل.

** انظر الفصل الثالث من كتاب "وحى الكتاب المقدس" للمؤلف، الطبعة الثالثة، تحت عنوان "الوحى ومعناه".

١٦

المسيحى والناموس

"فمَنْ نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلّم الناس هكذا يُدعى أصغر فى ملكوت السماوات. وأما مَنْ عمل وعلّم فهذا يُدعى عظيماً فى ملكوت السماوات. فإنى أقول لكم إنكم إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السماوات"

(مت٥:١٩، ٢٠)

عرفنا أن الرب بدأ، اعتباراً من متى٥:١٧، قسماً جديداً فى موعظته ممكن أن نعطيه عنوان «الملك وشريعته الأسمى» ويحتوى على فكرتين:

الفكرة الأولى: المسيح والناموس (ع١٧، ١٨).

والفكرة الثانية هى المسيحى والناموس (ع١٩، ٢٠).

ولقد عرفنا من الفصل السابق موقف المسيح من الناموس، ولكن تُرى ما هو موقف المسيحى من الناموس؟

لقد حسمت أجزاء كثيرة من الوحى هذه القضية، أعنى موقف المسيحى من الناموس (أنظر رو١٠:٤؛ غل٣:٢٤؛ أف٢:١٥؛ كو٢:١٤). ولقد أوضح الرسول فى رسالة رومية هذه الأمور:

١- أن الناموس لا يبرر الإنسان (رو٣).

٢- أن المسيحى ليس تحت الناموس «الخطية لن تسودكم لأنكم لستم تحت الناموس

بل تحت النعمة» (رو٦:١٤).

٣- وذكر صراحة أن المسيحي مات بالنسبة للناموس (رو٧:٤).

لقد كان الناموس مؤدبنا إلى المسيح، وأما الآن فنحن لسنا بعد تحت مؤدب (غل٣:٢٤، ٢٥).

لكن هل لأننا لسنا تحت الناموس بل تحت النعمة فإن المسيحي يكسر الناموس؟ هذا لم يفعله المسيح وبالتالي لا يفعله المسيحي. فالمسيح قال «لا تظنوا أني جئت **لأنقض** الناموس» ثم تحوَّل إلى تلاميذه وقال لهم «فمن **نقض** إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلَّم الناس هكذا يُدعى أصغر في ملكوت السماوات». كما أنه قال «ما جئت لأنقض بل **لأكمل**» من ثم قال لتلاميذه «وأما **من عمل** وعلَّم فهذا يُدعى عظيماً» وطلب من تلاميذه براً يزيد على بر الكتبة والفريسيين.

ونلاحظ أن رومية ٦ يعلمنا أننا لسنا تحت الناموس (ع١٤).

لكن في رومية٧ يتحدث الرسول عن الطبيعة الجديدة فيقول «أُسَرّ بناموس الله» (ع٢٢).

ثم في رومية ٨، بعد أن تحدث عن القوة بروح الحياة قال «لكي يتم حكم الناموس فينا» (ع٢-٤)، والمقصود بحكم الناموس (بالمفرد) هو مطلب الناموس العادل؛ أي الطاعة.

من هذا نفهم أن المؤمن ليس تحت الناموس بمعنى أنه ليس في عهد الأعمال (غل٣)، وأن خلاصه لا يتوقف على حفظه للناموس. لقد «افتُدي من لعنته» (غل٣:١٣)، إلا أن خلاصنا يبرهن على ذاته بأننا نطيع الله ونتمم كل مطاليب الناموس الأدبية. بل أن الروح القدس ينشئ فينا من جديد ذات الحياة السامية؛ حياة المسيح.

الأعظم والأصغر في ملكوت السماوات

لقد درج الرابيون أيام المسيح على تقسيم الناموس إلى وصايا صغرى ووصايا كُبرى دون أي سند كتابي لما فعلوه. صحيح ليس لكل وصايا الناموس نفس الثقل (مت٢٣:٢٣)، لكن لها جميعاً نفس الاحترام والتقديس ووجوب التنفيذ. ولهذا قال المسيح «كان ينبغي أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك». ولما سأل الرب واحد من الفريسيين وهو ناموسي: يا معلم أية وصية هي العُظمى في الناموس، قال له يسوع: تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك. هذه هي الوصية الأولى والعُظمى. ثم أضاف «والثانية مثلها. تحب قريبك كنفسك» (مت٢٢:٣٤-٣٩).

لهذا يقول المسيح «فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلّم الناس هكذا يدعى أصغر فى ملكوت السماوات». فنظراً لثبات الناموس حيث أنه القانون الإلهى لتنظيم الحياة هنا على الأرض، فإنه غير قابل للنقض، بل إن العظمة فى الملكوت تُقاس بمقدار التوافق مع الناموس حتى فى ما يعتبره الناس أنه الوصايا الصُغرى!

لكن هناك فكراً ثانياً؛ فلقد أشار الرب فى ع١٧، ١٨ إلى الناموس والأنبياء، لكن فى العددين التاليين موضوع دراستنا تحدث عن ملكوت السماوات، وأشار إليه ثلاث مرات. وكأن المسيح انتقل بفكر سامعيه من الأدنى إلى الأعلى، من الناموس والأنبياء الذين كانوا حتى يوحنا المعمدان، إلى أمر جديد بدأ يوحنا المعمدان أيضاً بالإعلان عنه، وأقصد به ملكوت السماوات (أنظر مت١١: ١١-١٣؛ لو١٦: ١٦؛...).

ولهذا فالأرجح جداً أن الرب فى هذين العددين ١٩، ٢٠ لا يتحدث عن وصايا الناموس، بل وصايا الملكوت؛ أو بالحرى وصايا الملك. فها الملك فى وسطهم، وهو مزمع أن يعطى وصاياه بسلطان «سمعتم أنه قيل... أما أنا فأقول». وإن كان الناموس ثابتاً ولا يمكن أن يُنقض، فكم بالحرى وصايا الملك. أيمكن نقضها؟! وهو نفس السمو بالفكر الذى ورد فى عبرانيين ٢: ٢، ٣ «إن كانت الكلمة التى تكلم بها ملائكة قد صارت ثابتة (أى كلمة الناموس).. فكيف ننجو نحن إن أهملنا خلاصاً هذا مقداره قد ابتدأ الرب بالتكلم به؟!».

كان الرب مزمعاً أن يتحدث إلى تلاميذه عن وصاياه هو، وفى آخر عظة الجبل قال لهم «مَنْ يسمع أقوالى هذه ويعمل بها» (٧: ٢٤، ٢٦). وفى آخر الإنجيل طلب من الرُسل أن يتلمذوا جميع الأمم، ويعمدوهم... ويعلّموهم أن يحفظوا جميع ما **أوصيتكم به**». ووصايا الملك هذه، هى التى تحدث عنها الرسول يعقوب بعد ذلك باعتبارها «الناموس الكامل، ناموس الحرية» (يع١: ٢٥؛ ٢: ١٢).

ولقد اعتبر بولس، بالروح القدس، أن وصاياه هى وصايا الرب (١كو١٤: ٣٧). فلتحذر يا من تنقض وصايا الرب هذه، ويا من تعلم الناس هكذا. تحذر لأن المسيح هنا يقول عنه إنه «يُدعى أصغر فى ملكوت السماوات».

وعلى النقيض من ذلك من عمل وعلّم فهذا يُدعى عظيماً. ونلاحظ الترتيب هنا، فالعمل يسبق التعليم. هكذا كان المسيح «مقتدراً فى الفعل والقول» (لو٢٤: ١٩، انظر أيضاً أع١: ١). والرسول بولس يذكّر ابنه تيموثاوس بأنه قد اتبع لا تعليمه فحسب، بل أيضاً سيرته (٢تى٣: ١٠) من ثم يحرضه أن يلاحظ نفسه (أولاً)، ويلاحظ التعليم (ثانياً)، وبذلك يخلص نفسه والذين يسمعونه أيضاً (١تى٤: ١٦).

البر المرفوض

بعد أن فضح الرب فساد تعليم الكتبة والفريسيين فى ع١٩ ، فإنه كشف أيضاً ضحالة برهم فى ع٢٠ إذ قال «فإنى أقول لكم. إنكم إن لم يَزِد بركم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السماوات».

لكن لماذا كان بر الكتبة والفريسيين مرفوضاً من الله؟ إنه مرفوض لسببين: كماً ونوعاً. أو مرفوض لأنه بر الظاهر والمظاهر.

فى أصحاح٥ يوضح لنا النقطة الأولى. فهم كانوا يهتمون بالفعلة ذاتها ولا يبالون بالقلب، كانوا ينقون خارج الكأس والقصعة، وهما من داخل مملوءان اختطافاً ودعارة. ثم فى أصحاح ٦ سيكشف لنا النقطة الثانية. فليس فقط برهم رديئاً، بل ودوافع هذا البر أيضاً رديئة. فكانوا يفعلون ما يفعلون ليراهم الناس لا الله الذى يرى فى الخفاء، ولينالوا مديح الناس لا مدح السيد، وكان غرضهم مجد ذواتهم لا المجد الذى من الإله الواحد، ويالها من كبرياء مُقنّعة!

ولقد كان هذا الكلام غريباً تماماً على السامعين. فلقد كان عند اليهود قول شائع، إنه إن كانت السماء لا يدخلها سوى اثنين، فإن واحداً منهما يكون كاتباً والآخر فريسياً. وها الرب يقول: إن لم يَزِد بركم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السماوات.

ويا لها من صدمة شديدة على السامعين فى ذلك اليوم، لكنها صدمة مقصودة ومحسوبة. فالرب فى كل العظة كان يريد أن يوجد لدى السامعين الجوع الروحى، ويريد إشعارهم بحاجتهم العميقة فى مواجهة مطاليب الله القدوس، ويريد تخليصهم من الشعور بالاكتفاء الذاتى؛ الأمر الذى يمثل العقبة الكُبرى عند الكثيرين للإتيان إلى المسيح، ظناً منهم أنه ببعض الممارسات الدينية يكون كل شىء على ما يُرام.

المطلوب لدخول الملكوت

فإن كان بر الكتبة والفريسيين لا يصلُح، فأى بر يا تُرى هو الذى يصلح. إن بولس الرسول الذى عاش قبل تعرفه على المسيح ناموسياً مدققاً، وقال عن نفسه إنه من جهة البر الذى فى الناموس بلا لوم، علم عن يقين أن هذا البر لا يصلح قط، فصرَّح فى فيلبى٣: ٧-٩ قائلاً «ما كان لى ربحاً فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة... لكى أربح المسيح وأوجد فيه. وليس لى برى الذى من الناموس بل الذى بإيمان المسيح البر الذى من الله بالإيمان».

ويرتبط بهذا البر الاكتسابى بر آخر هو البر العملى، وهو ما يتحدث عنه الرب هنا «إن لم يَزِد **بركم**» - ونلاحظ أن البر الاكتسابى نابع من وجودى فى المسيح «أوجد فيه» أما البر العملى فينتج من وجود المسيح فىَّ «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فىَّ» (غل٢: ٢٠).

والواقع أن المستوى الراقى الذى سيذكره الرب فى باقى الأصحاح الخامس لا يمكن لإنسان كائن مَنْ كان أن يعيشه من نفسه، لكن فقط لو كان المسيح يحيا فيك، سيكون بوسعك أن تعيش هذه الحياة، وسيكون برك أزيد عن الكتبة والفريسيين، بل ومختلفاً عنهم أيضاً.

١٧

الغضب والقتل

"قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل. ومن قتل يكون مستوجب الحكم. وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم. ومن قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع. ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم. فإن قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكّرت أن لأخيك شيئاً عليك، فاترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولاً اصطلح مع أخيك. وحينئذ تعال وقدم قربانك. كُنْ مُراضياً لخصمك سريعاً ما دمت معه في الطريق، لئلا يسلمك الخصم إلى القاضي ويسلمك القاضي إلى الشرطي فتلقى في السجن. الحق أقول لك لاتخرج من هناك حتى توفى الفلس الأخير"

(مت ٥:٢١-٢٦)

عرفنا مما سبق أن القسم الثالث من موعظة الجبل بدأ من متى٥ :١٧ حيث ذكر المسيح أنه لم يأتِ لينقض الناموس، وأن تلاميذه أيضاً لا يجب عليهم أن ينقضوه، فمع أننا «لسنا تحت الناموس»، لكن «يتم فينا حكم الناموس»، بل وأكثر، كما سنرى الآن.

من ثم يتقدم المسيح في باقي الأصحاح الخامس من انجيل متى ليقدم ستة تطبيقات فيها يؤكد أنه يعمّق مطاليب الناموس، لا ينقضها. وفيها نرى أن تعاليم المسيح أعظم من تعاليم الناموس، على قدر سمو المسيح نفسه على موسى، فوصايا المسيح الملك هي «الناموس

الكامل». ولأنها مقدمة لمن تمتع ببركة الولادة من فوق، وعطية الروح القدس، فإنها أيضاً «ناموس الحرية» (يع١: ٢٥). ولا عجب أن يطالب المسيح تلاميذه بأكثر مما كان مطلوباً من الشعب تحت الناموس، فالذى تمتع بالنعمة أكثر، هو باليقين مسئول على ذات القياس أن يُظهر هذه النعمة فى تعامله مع الآخرين.

قيل للقدماء.. أما أنا فأقول

والمسيح يكرر هذه العبارة فى كل تطبيق من تطبيقاته الستة التى تشغل باقى الأصحاح. وهذه التطبيقات هى:

١ - لا تقتل (ع٢١-٢٦)
٢ - لا تزن (ع٢٧-٣٠)
٣ - من طلق امرأته (ع٣١، ٣٢)
٤ - لا تحنث (ع٣٣-٣٧)
٥ - عين بعين (ع٣٨-٤٢)
٦ - تحب قريبك وتبغض عدوك (ع٤٣-٤٨)

وهذه التطبيقات الستة عبارة عن؛ وصيتين من الوصايا العشر: «لاتقتل»، «لا تزنِ»، ومبدأين هامين فى الناموس: الطلاق والصدق، ومبدأين عامين: الرحمة والمحبة.

ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن الرب لم يَقُل «قرأتم فى الكتاب أو فى الناموس»، فغالبية الشعب لم يكونوا يقرأون الكتاب بأنفسهم لأنهم لم يكونوا يعرفون العبرية، بل كانت لغتهم أيام المسيح هى الأرامية، فاعتمدوا فى تعليمهم على ما يتلقونه شفاهاً من كهنتهم وكتبتهم. لقد كانوا إذاً يتعاملون مع ناموس الله من خلال نظارة الكتبة والفريسيين. فالمشكلة ليست فى ناموس الله بل فى تفسير أولئك الكتبة والفريسيين له.

وأقوال المسيح هنا لا تعتبر نقضاً لنصوص الناموس، فالمسيح كان قد قال لتوّه «ما جئت لأنقض بل لأكمل».. فالمسيح مثلاً لم يقل"سمعتم أنه قيل لا تقتل ولا تزن، أما أنا فأقول لكم إنه بوسعكم القتل عند الضرورة، ويمكنكم الزنا فى بعض الحالات"، حاشا. ولنتحول الآن إلى أولى هذه التطبيقات الستة لنرى ماذا فعل هؤلاء المعلمون بناموس الله.

يقول المسيح «سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل. ومن قتل يكون مستوجب الحكم». لقد وضع أولئك المعلمون آيتين إلى جوار بعضهما، فبدل أن توضح كل منهما الأخرى فإنهما

شوهتا المعنى الذى يقصده الله. «لا تقتل» هذه وصية فى الشريعة (خر ٢٠: ١٣)، «ومن قتل يكون مستوجب الحكم» هذه موجودة فى مكان آخر (عد٣٥: ٣٠، ٣١). وأن تربط وصية عدم القتل فى ناموس الله، لا بالله نفسه كاشف القلوب وعارف السرائر، بل بالمجمع الذى لا يرى إلا الأفعال ولا يأخذ إلا بالقرائن، فهذا يشوه المعنى الذى صار كالآتى. إنك لو قتلت ستتعرض للمساءلة والحساب، وإذا ثبتت التهمة ستتعرض للموت، وهذا يفتح الباب لمن يقتل دون دليل يُمسك عليه. كما يفتح الباب لأن تكره شخصاً وتبغضه من كل قلبك، دون فعلة القتل ذاتها.

هذه هى مشكلة الكتبة والفريسيين. لا يهمهم إلا الأفعال ولا يبالون بحالة القلب «أما الرب فإنه ينظر إلى القلب» (١صم١٦: ٧) لأنه «من الداخل من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة.. قتل» (مر٧: ٢١).

وكما كرر الرب ست مرات عبارة «قيل للقدماء»، فإنه كرر أيضاً ست مرات عبارة «أما أنا فأقول لكم». إنه هنا يتكلم كمن له سلطان، فهو فى الملكوت يشغل مركز الملك، وبالتالى فهو مصدر التشريع وصاحب السلطان.

وإن كان الكتبة والفريسيون بما يملكون من بر سطحى؛ بر القشرة الخارجية والمظاهر، لا يعنيهم سوى عملية القتل ذاتها، وطالما لم يصل الأمر إلى فعل القتل يكون كل شىء على ما يُرام، لكن ها الملك، الذى يُسَرّ بالحق فى الباطن (مز٥١: ٦). يضيف إلى وصية الناموس أبعاداً جديدة؛ عرضاً وطولاً وعمقاً وعلواً. فهو لايتعامل فقط مع مايظهر من الإنسان بل مع ما هو فى الداخل. ليس ما يعمله فقط، بل أيضاً حالته. وفى مكان آخر قال الرب للفريسيين «أنتم الذين تبررون أنفسكم قدام الناس ولكن الله يعرف قلوبكم» (لو١٦: ١٥). فالله لا يرى الهدية التى فى أيدينا، بل القلب الذى أتى بها.

الوصية السادسة فى منظار المسيح

لقد بدأ المسيح بالوصية السادسة من الوصايا العشر «لا تقتل» لأن خطية القتل كانت أول خطية وردت فى الكتاب المقدس بعد السقوط؛ أول ثمرة مُرّة من شجرة الخطية جناها الإنسان خارج الجنة، حيث قام قايين على أخيه هابيل وقتله (تك٤). ثم لأن عقوبة الموت لمن يقتل كانت أولى جميع العقوبات التى قررها الله، حتى قبل الناموس (تك٩: ٥، ٦).

وإذا عُدنا إلى خطية قتل قايين لأخيه هابيل نرى أن الغيظ هو الذى دفع قايين إلى جريمته

البشعة. إذاً فلقد كان الغيظ هو الدرجة الأولى فى السلم التى انتهت بجريمة قتل الأخ. والرب هنا كأنه يتتبع الخطية إلى منبعها ليوقفها، وينبش عميقاً فى قلب الإنسان ليجتث جذورها. ونفس الأمر فعله يوحنا الرسول، فبعد أن تحدث عن ذبح قايين لأخيه (١يو٣:١٢) يتتبع جرثومة المرض فيقول «كل من يبغض أخاه فهو قاتل نفس. وأنتم تعلمون أن كل قاتل نفس ليس له حياة أبدية ثابتة فيه» (١يو٣:١٥).

والمسيح الذى يهمه فى ملكوته، ليس فقط ألا تتم فعلة القتل، بل يريد أن يكون القلب متوافقاً معه، يقول «أما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم. ومَنْ قال لأخيه رقاً يكون مستوجب المجمع. ومَنْ قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم».

هنا يذكر المسيح شروراً ثلاثة، ترتفع فيها نغمة الشر والكراهية؛ الأول «مَنْ يغضب على أخيه» غضباً فى غير محله. والثانى «مَنْ قال لأخيه رقاً»، وهى كلمة أرامية تعنى فارغ العقل؛ لقد تطور الأمر هنا من مجرد مشاعر إلى لفظة تحمل معنى التحقير. والثالث «مَنْ قال يا أحمق»، أو جاهل لا يستحق أن يعيش، ويربط البعض بين هذه الكلمة «أحمق» والكلمة المترجمة «مَرَدة» فى عدد ٢٠:١٠، وبسببها حُرم موسى من دخول أرض الموعد.

الغضب يحمل بذرة القتل، وكلمات التحقير تحمل معها روح القتل، واستنزال اللعنة يحمل معه الرغبة فى القتل.

بصفة عامة لا يليق بالمؤمن الغضب. لكن ليس كل غضب خطية، فهناك غضب مقدس إذا كان هذا الغضب لمجد الله. قيل عن موسى قديماً أنه لما أبصر الشعب يعبدون العجل الذهبى «حمى غضب موسى» (خر٣٢:١٩،٢٢). وسيدنا الحليم أيضاً غضب (مر٣:٥). ومن هذا نتعلم أنه لا يجوز التساهل فى أمور مجد الله. أما فيما عدا ذلك فلا يجوز لنا أن نغضب.

لهذا لم ينفِ الرسول يعقوب الغضب نهائياً بل قال «ليكن كل إنسان.. مبطئاً فى الغضب، لأن غضب الانسان لايصنع بر الله» (يع١:١٩، ٢٠). قال أحدهم: إن الغضب يختلف عن كل شىء آخر فى أنه لا يولد صغيراً ثم يكبر، بل أنه يكون فى أشد قوته وعنفوانه فى البداية. لهذا دعنا نحذر من الغضب.

وفى نفس هذا الاتجاه يقول الرسول بولس «اغضبوا، ولا تخطئوا. لا تغرب الشمس على غيظكم» (أف٤:٢٦). وهو تحريض لنا على الغضب لِما فيه مجد الله، مع تحذيرنا من

الخطأ عندما نغضب. فإن غضبت من الشر لا تغضب من فاعليه أنفسهم، وفى كل الأحوال «لا تغرب الشمس على غيظكم».

ولنلاحظ أن المسيح بعد أن حذرنا من الغضب فقد أردف ذلك بعبارة «مَنْ قال لأخيه رقا.. ومن قال يا أحمق». آه، ما أقربنا من الخطأ باللسان إذا تملّكنا الغضب.

لكن يقول قائل: كيف يحذرنا المسيح من عبارة «يا أحمق». وهو استخدم نفس التعبير فى متى٢٣: ١٧ «أيها الجهال* والعميان..» والإجابة البسيطة: إن الرب فى متى ٢٣ كان يتكلم بأسلوب قضائى، ولقد أوقع القضاء على الأمة كلها فعلاً فى آخر هذا الأصحاح. إن القاضى عندما يحكم بالإعدام على شخص لا يكون إذ ذاك قاتلاً. وبالنسبة للمسيح نقول: هل من حق أحد سواه أن يدين؟ (أنظر يو٥: ٢٢؛ أع١٠: ٤٢؛ يع٤: ١١، ١٢). ولو فعلنا ذلك ألا نكون قد سلبنا المسيح أحد أمجاده باعتباره الديان؟

الانتقال من السلبى إلى الإيجابى

إن المسيح، بعد أن تعقب هذا الشر إلى منبعه، فلقد تتبعه أيضاً حتى مصبه «السجن.. حتى توفى الفلس الأخير».

ولقد تحوّل الرب بعد ذلك من الناحية السلبية إلى الناحية الإيجابية. وكأنه يقول إنه لا يكفى أن تخلو حياتك من هذه الشرور الثلاثة: الغضب، والشتيمة، والتجديف، بل تحوّل إلى الإيجابية، واسعَ لإزالة أسباب حدوثها. لا توقف اندلاع مظاهر العنف فقط، بل عالج سر التعب نفسه، ولا تكتفِ بأن تلاشيها منك، بل اجتهد أن تلاشيها من أخيك أيضاً.

ولكى يشرح المسيح ما يقصده، استعان، باعتباره المعلم الذى ليس له نظير، بصورتين توضحان ما سبق:

الصورة الأولى: لشخص ذهب إلى الهيكل ليقدم قربانه وبعد أن وصل إلى هناك بالقربان تذكّر أن بينه وبين أخيه خصومة. فماذا يفعل؟ هل يقدم قربانه أم يذهب لكى يصطلح مع أخيه؟ أيهما له السبْق والأهمية؟ يقول المسيح «اذهب **أولاً** اصطلح مع أخيك».

الصورة الثانية: شخص فى طريقه مع الخصم إلى المحكمة. ماذا يفعل حال كونه فى

---

* الكلمة "جُهال" الواردة فى متى ٢٣: ١٧، هى بعينها كلمة "أحمق" فى الأصل اليونانى.

الطريق إلى القاضى؟ أيستمر فى الطريق أم يجتهد ليفعل شيئاً آخر؟ وما هى مخاطر الاستمرار فى هذا الطريق؟

الصورتان رائعتان تكمل إحداهما الأخرى رغم تباينهما الظاهرى. فالأولى ذهاب إلى الهيكل، بينما الثانية ذهاب إلى المحكمة! الأولى ذهاب إلى الأخ، بينما الثانية ذهاب مع الخصم. وفى وضع الصورتين السابقتين إلى جوار بعضهما نتعلم دروساً مهمة؛ فالأخ المُساء إليه قد ينقلب إلى خصم! والذهاب إلى دور العبادة قد ينتهى بالذهاب إلى جهنم!!

لكن الصورتين السابقتين تقدمان لنا معاً فكرة متكاملة. فالأولى توضح لنا أهمية تسوية المشاكل مع الأخ، والأخرى تبيّن لنا فوريتها. فعن الأهمية يقول الرب «اترك قربانك قدام المذبح واذهب **أولاً** اصطلح مع أخيك»، وعن الفورية يقول «كُن مراضياً لخصمك **سريعاً** ما دمت معه فى الطريق».

نعم إن مُصالحة الأخ أهم من القربان، ويجب أن تتم الآن، قبل فوات الأوان!

أولاً اصطلح مع أخيك

يوضح الرب هنا فى أسلوب لا لَبس فيه، أنه لا يرضى بذبائح وتقدمات شخص فى خصومة مع أخيه. وهو عين ما قاله الرب فى إشعياء١:١١-١٥ «لماذا لى كثرة ذبائحكم يقول الرب. اتخمت من محرقات كباش وشحم مُسمنات وبدم عجول وخرفان وتيوس ما أُسَر.. فحين تبسطون أيديكم أستر عينى عنكم وإن كثّرتم الصلاة لا أسمع». ويوضح سبب ذلك إذ يقول «أيديكم ملآنة دماً». أليست هذه هى ديانة قايين الذى كان قربانه لازال فوق المذبح، ودماء أخيه القتيل تسيل فوق الأرض! أيقبل الرب تقدمة من شخص كهذا؟!

ومرة ثانية يقول فى عاموس٥:٢٢-٢٤ «إنى إذا قدمتم لى محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى بها وذبائح السلامة من مسمناتكم لا ألتفت إليها. أبْعدْ عنى ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع». فلقد كان الرب يريد شيئاً أسبق من هذا وأهم منه «وليجرِ الحق كالمياه والبر كنهر دائم».

ومرة ثالثة فى إرميا٧:٨-١٠ «ها إنكم متكلون على كلام الكذب الذى لا ينفع. أتسرقون وتقتلون وتزنون وتحلفون كذباً.. ثم تأتون وتقفون أمامى فى هذا البيت الذى دُعى باسمى عليه، وتقولون قد أنقذنا؟!».

هذا كان فى العهد القديم، لكن فى نور العهد الجديد تعلمنا أن «مَنْ يبغض أخاه فهو

قاتل نفس» (١يو٣: ١٥). ويحذرنا المسيح من مجرد الغضب بلا لزوم على إخوتنا. فهل نستغرب بعد ذلك لماذا عبادتنا غير مُشبعة لقلب الله؟ ولماذا لا يُستجاب الكثير من صلواتنا (مز٦٦: ١٨؛ ١يو٣: ٢٠-٢٢)؟!

ألا تمتد كلمات المسيح هنا لتشمل العلاقة مع إخوتنا فى الاجتماع (١تى٢: ٨)؟ هل يقبل الرب عبادة شخص فى خصومة مع أخ؟ ثم ألا تمتد كلمات المسيح هنا لتشمل العلاقات الزوجية أيضاً؟ أليس روح الشجار والخصام فى البيت بين الزوج وزوجته تعيق صلواتنا (١بط٣: ٧)؟! لنتذكر أن الرب هنا يحذرنا من أن يكون لأخينا شيء علينا.

لاحظ أن الرب يفترض هنا أن الشخص قد أحضر قربانه ووصل به فعلاً إلى المذبح. ثم فجأة تذكر أن لأخيه شيئاً عليه، فهل يقدمه؟ أيشفع هذا القربان له عند الله إزاء ظلمه لأخيه؟ أما يستطيع على الأقل أن يقدم قربانه لله ثم بعد ذلك على مهل يسوِّى المسألة مع أخيه؟ الإجابة: كلا «اترك قربانك قدام المذبح واذهب أولاً اصطلح مع أخيك».

لقد قال صموئيل لشاول الملك «هل مسرة الرب بالمحرقات والذبائح كما باستماع صوت الرب؟» (١صم١٥: ٢٢). ونحن كم من المرات كنا نظير شاول لا نعمل ما يطلبه الرب منا، ونظن أن عبادتنا ستكون تعويضاً عند الرب على هذا النقص الذى فينا. لكن هل تظن أن مظاهر التقوى أمام الله تعوّض عن الإساءة التى نعملها للناس؟!

أولاً اصطلح مع أخيك ثم بعد ذلك تعال قدم قربانك. إن الرب فى نعمته لم يَقُل خُذ قربانك ولا تَعُد ترى وجهى، بل بكل محبة يقول: اترك قربانك قدام المذبح، وسوِّ المشكلة مع أخيك، ثم عُد إلىَّ ستجدنى فى انتظار عودتك!

كن مراضياً لخصمك سريعاً

يستكمل الرب تعليمه الهام هنا فى الصورة الثانية والتى يحذر فيها من التأخير فى تسوية المشاكل. ويشدد الرب على إتمام ذلك بأسرع وقت «سريعاً ما دمت معه فى الطريق»، أن نعكف على ما هو للسلام، وأن نجتهد لأجل الصُلح، أو بلغة الرسول بطرس «ليطلب السلام ويجِّد فى إثره» (١بط٣: ١١).

ويحذر الرب من الخصم المُساء فى حقه «لئلا يسلمك الخصم إلى القاضى ويسلمك القاضى إلى الشرطى فتُلقى فى السجن». وواضح أنه على قدر عظمة الخصم تكون الخصومة معه أخطر! فإذا عرفنا ذلك فكم يصبح من الخطر بمكان أن يجعل أحدنا الله خصماً

له! إن المسيح الذى يتوسل إلى الإنسان ليتوب فيخلص، هو بنفسه الذى سيكون غداً القاضى. إنه اليوم يخلِّص بالنعمة، لكن غداً سيدين بالعدل. «فتُلقى فى السجن. الحق أقول لك لا تخرج من هناك حتى توفى الفلس الأخير». وحيث أن الإنسان المحدود لا يمكن أن يفى الله غير المحدود حقوقه، فهذا معناه أنه لن يخرج من جهنم مطلقاً، وأن دخان عذابه فيها سيصعد إلى أبد الآبدين*.

ويذكّرنا المسيح بأننا الآن فى الطريق فعلاً «لأن الإنسان **ذاهب** إلى بيته الأبدى» (جا١٢:٥). وما أقصر الحياة. لذا من الأهمية بمكان تسوية أمورنا الأبدية قبل فوات الأوان، بل وقبل أى شىء آخر، لا سيما وأن الترضية تمت تماماً فى صليب المسيح وما علينا إلا أن نأخذ بالإيمان نصيبنا من السلام الذى عُمل (رو٥:١).

لذا يقول المسيح: اترك قربانك واصطلح مع إلهك. اترك تديّنك الذى لا يُسرّ الله واصطلح معه بربنا يسوع المسيح (٢كو٥: ٢٠).

التطبيق النبوى

لقد أعلن الرب فى الآيات١٩، ٢٠ أن بر الكتبة والفريسين لا يصلح لدخول ملكوت السماوات. وها هو يأتى بأولى التطبيقات على هذه الحقيقة. فهل يملك الإنسان اليهودى هذا البر الذى يطلبه الملك؟

يوضح الرسول بولس أن اليهود كانوا يجهلون بر الله ويطلبون أن يثبتوا بر أنفسهم، ولهذا فإنهم لم يُخضعوا لبر الله. فلما جاءهم المسيح كانوا متمسكين بشكليات العبادة، وذلك الفادى الكريم الذى قبل أن يصير أخاً لهم عادوه ورفضوا أن يصطلحوا معه! بل فى جهلهم وعنادهم كانوا على وشك أن يجعلوا الرب، المزمع أن يموت عنهم، ويقدم بنفسه نيابة عنهم الذبيحة التى أمر بها الناموس؛ كانوا على وشك أن يجعلوه عدواً لهم. فخصمهم، أولئك التعساء، هو الله نفسه، سواء فى الناموس الذى كسروه، أو فى النعمة التى احتقروها!

* يستند البعض بما ورد فى هذه الآية متى٥:٢٦، والآيات المقابلة لها فى لوقا ١٢:٥٧-٥٩، ليدعموا بها تعليم المطهر. وهو مكان - على حد زعمهم - يذهب إليه بعض المؤمنين ليسددوا حساب الخطايا التى لم يعترفوا بها ولم تُغفر لهم. ولكن واضح تماماً من كلمة الله أن هذا الفكر ليس له أدنى سند كتابى. ولقد أُدخل هذا التعليم الوثنى (حيث نجد ما يشابهه فى ميثولوجيا مصر واليونان والرومان) إلى كنيسة روما بدءاً من عام ٦٠٠م على عهد البابا جريجورى الكبير، لكنه لم يُعد تعليماً رسمياً للكنيسة الكاتوليكية إلا سنة ١٤٣٩م فى مجمع فلورنسا، ثم صار تعليماً أساسياً له قدسيته وأهميته الخاصة فى مجمع ترنت عام ١٥٤٦م[١٦].

ويحكى لنا نفس انجيل متى كيف من البداية استقبلوا المسيح بمظاهر العداوة (مت٢). لقد عاملوا الملك نفسه كخصم لهم، فوقع عليهم القضاء سنة ٧٠م، وهم الآن قومياً فى السجن، والقساو ة حصلت جزئياً لإسرائيل (رو١١: ٢٥).

لذلك فإن الرب ينصحهم هنا «كُن مراضياً لخصمك سريعاً ما دمت معه فى الطريق». وعبارة «ما دمت معه فى الطريق» تشير إلى الفرصة القصيرة التى كان الرب فيها بينهم يطلب رجوعهم إليه، لكنهم بكل أسف لم يستفيدوا منها (لو١٩: ٤٢).

«لئلا يسلمك الخصم إلى القاضى، ويسلمك القاضى إلى الشرطى، فتُلقى فى السجن» - والقاضى هو الرب باعتباره الديان (تث٣٢: ٣٦)، أما الشرطى فإنه يمثل أدوات العقاب (إش١٠: ٥،٦،١٥). وأخيراً فإن السجن يمثل ضيقهم فى الشتات خلال عصورهم المتعاقبة، والتى ستنتهى بأفظع ضيقة تسمى فى الكتاب «ضيقةيعقوب» (إش٤٢: ٢٢؛ إر٣١: ٢٧؛ زك٩: ١١،١٢).

يقول الرب لهم «لا تخرج من هناك حتى توفى الفلس الأخير»، وهو ما سيحدث معهم فعلاً فى الضيقة العظيمة (إش٤٠: ٢).

إذاً فلقد كان اليهود فى زمان المسيح يفتخرون بالناموس، والناموس يطلب براً لا يمتلكونه، ولا يرضى إلا بذبيحة. وكان المسيح على استعداد لتقديم نفسه باعتباره تلك الذبيحة. لكنهم بالأسف كانوا فى خصومة معه، لذلك فإن الداعى لهم بالمحبة تحوَّل إلى خصم لهم وعدو. (إش٦٣: ١٠ مع مت٢٢: ٣-٧).

لكن بعد اجتيازهم فى الضيقة العظيمة سيملك الرب عليهم، وفى مُلكه السعيد سيتم هذا الناموس الملوكى؛ ليس أن الذى يَقتُل يُقتل، بل «الذى يغتاب صاحبه سراً هذا أقطعه» (مز١٠١: ٥).

١٨

الشهوة والزنى

"قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن. وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه. فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك. لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم. وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك. لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم"

(مت ٥:٢٧-٣٠).

لا زلنا نتأمل فى القسم الثالث من موعظة المسيح على الجبل (مت٥:١٧-٤٨)، وهو القسم الذى يدور حول البر الذى ينبغى أن يُظهره المسيحى، والذى يزيد على بر الكتبة والفريسيين.

لقد تأملنا فى الفصل السابق فى أول هذه الفروق؛ بين ما قيل للقدماء وما يقوله المسيح، وكان عن الوصية «لا تقتل»، والآن نتحدث عن فارق آخر يدور حول وصية «لا تزنِ».

والقتل والزنا هما خطيتان بشعتان، وهما موضوع الوصيتين السادسة والسابعة من الوصايا العشر. والله الخالق بالوصية السادسة أراد أن يحمى الحياة، ثم بعدها مباشرة فى الوصية السابعة أراد أن يحمى العلاقة الزوجية (وهى أيضاً جزء من خليقة الله)!

لقد تميز الإنسان الطبيعى، بكل أسف، بهاتين الخطيتين. فالإنسان بعد السقوط مباشرة تهور فى هاتين الخطيتين حتى لم يحتمله الله، فجلب عليه دينونة الطوفان. ويُخبرنا الكتاب أن الأرض فى أيام نوح تميزت بالقسوة والفساد، وامتلأت بالظلم والنجاسة.

ولازالت هذه سمة العالم اليوم كما تحكى صفحات الجرائد، وكما يُبَث فى المسلسلات ويُعرض فى الأفلام. وهذه هى سمة الإنسان فى الغيم والصحو؛ ففى وقت الغيم يغضب، وفى وقت الصفو يشتهى! وسيستمر الحال هكذا إلى ما بعد الاختطاف. وفى فترة الضيقة العظيمة، فإن الناس، رغم ضربات الله التى ستقع عليهم، لن يتوبوا «عن قتلهم.. ولا عن زناهم» (رؤ٩: ٢١). ويُختم الكتاب المقدس بوضع القتلة والزناة جنباً إلى جنب، ضمن الذين نصيبهم خارج المدينة السماوية، فى البحيرة المتقدة بنار وكبريت (رؤ٢١: ٨، ٢٢: ١٥).

قيل للقدماء.. أما أنا فأقول

يقول المسيح «سمعتم أنه قيل للقدماء لا تَزنِ». وبالنسبة للكتبة والفريسيين فإن كل ما كانوا يركزون عليه هو ألا تتم فعلة الزنا ذاتها. وأما ما دون ذلك فلم يكن عندهم ذا موضوع. أما الرب الذى «يعرف خفيات القلب» (مز٤٤: ٢١)، والذى «ينظر إلى القلب» (١صم١٦: ٧)، والذى يطلب القلب «أم٢٣: ٢٦» فلم يكن هذا يكفيه. وآيات الكتاب المقدس التى تركز على حالة القلب وطهارته، سواء فى العهد القديم أو العهد الجديد، أكثر من أن تحدها صفحات معدودة.

وكما بيَّن الرب فى أقواله السابقة (ع٢١-٢٥) تركيزه على روح النعمة والوداعة، بما يتجاوز كثيراً الوصية «لا تقتل»، هكذا يفعل الآن بالنسبة للطهارة. وإن كانت خطية القتل فى مفهوم المسيح تمتد لتشمل مشاعر الغضب وكلمات التحقير، فإن خطية الزنا تشمل النظرات المُثيرة للشهوة. فنحن قد لا نمارس القتل فعلاً، ومع ذلك نمارسه بمشاعرنا ولساننا، هكذا أيضاً قد نمارس الزنا بقلوبنا وأفكارنا!

والرب يسوع هنا يوضح بما لا يدع أى مجال للبس أن المهم فى نظره ليس الأفعال وحدها بل الرغائب أيضاً، لا العمل فحسب، بل الأفكار والتخيلات أيضاً، ليس المطلوب فقط ألا نمارس بل ألا نشتهى!

هذا هو فكر الله كما هو مُعلن فى الكتاب المقدس. إنه يعلمنا ألا نعتبر فى المقام الأول الخطايا التى نفعلها، بل مبدأ الخطية الساكن فينا. فالخطايا هى بمثابة الأعراض الظاهرة للمرض الداخلى والذى هو الخطية. والطبيب الماهر لا يشغله فى المقام الأول الأعراض بل المرض ذاته. فليست الأعراض هى التى تقتل عادة بل المرض. والأعراض قد تختلف من الواحد إلى الآخر، لكن الكل مُصاب بنفس المرض؛ أعنى الخطية.

العين مدخل القلب

يقول المسيح «أما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه» (ع٢٨).

ونلاحظ هنا أمرين:

١- أن الرب هنا لا يمنع النظر إلى المرأة على الإطلاق، بل يمنع النظرة الشهوانية. كما وردت الآية فى الترجمة التفسيرية «مَنْ ينظر إلى امرأة بقصد أن يشتهيها».

٢- أن صيغة الفعل «ينظر» بحسب الأصل تفيد الاستمرار والاسترسال وتذكرنا بكلمات الرسول «لهم عيون مملوة فسقاً، لا تكف عن الخطية» (٢بط٢: ١٤).

إن نظرة قبيحة تشعل الشهوة فى قلب الإنسان. وآه كم من أبطال فى الإيمان أسقطتهم عيونهم فى خطية الزنا الحرفى (قض١٦: ١؛ ٢صم١١: ٢-٤)، لكن أضعافهم مرات بلا عدد أسقطتهم عيونهم فى خطية زنا القلب! فالعين هى مدخل القلب، والقلب منه مخارج الحياة (أم٤: ٢٣)!!

لتوضيح ذلك، لنأخذ مثلاً أيوب البار. إنه يقول فى البداية «عهداً قطعت لعينىَّ فكيف أتطلع فى عذراء»، ثم يستطرد قائلاً «إن حادت خطواتى عن الطريق **وذهب قلبى وراء عينى**»، من ثم يختم هذا المسلسل الرهيب بالقول «إن غوى قلبى على امرأة أو كمنت على باب قريبى» (أى٣١: ١، ٧، ٩). ونحن نعرف أن أيوب لم يقع فى هذه الخطية البشعة، والتى يقول عنها إنها رذيلة، وإثم يعرض للقضاة، كما ويصفها بأنها نار تأكل حتى إلى الهلاك وتستأصل كل محصوله (أى٣١: ١١، ١٢). لكن ما سر عدم وقوع أيوب فى هذه الخطية؟ السر أنه منعها من المنبع. فهو يوضح أن قلبه لم يُغوَ، ولماذا لم يُغوَ قلبه؟ لأن قلبه لم يذهب وراء عينيه، وذلك لأنه قطع العهد لعينه أن لا يتطلع فى عذراء!

ونلاحظ أن الرب هنا لم يقل أن من ينظر إلى امرأة فقد تُسبب له تلك النظرة الوقوع فى خطية الزنا، بل إن هذه النظرة هى نوع من الزنا. لقد وقع صاحبنا فى هذه الخطية المرذولة فعلاً. وما أخطر هذا!

«اهربوا من الزنى»

ما أبشع هذه الخطية فى نظر الله. ولنستعرض الآن القليل من الآيات التى توضح بُغضة الرب لها:

«لا تضلوا، لا زناة ولا عبدة أوثان ... يرثون ملكوت الله» (١كو٦:٩، ١٠).

«وأما الزنا وكل نجاسة أو طمع فلا يُسمَّ بينكم كما يليق بقديسين ... فإنكم تعلمون هذا أن كل زانٍ أو نجس.. ليس له ميراث فى ملكوت المسيح والله.. لأنه بسبب هذه الأمور يأتى غضب الله على أبناء المعصية» (أف٥:٣، ٥، ٦).

«لأن هذه هى إرادة الله قداستكم. أن تمتنعوا عن الزنا.. أن لا يتطاول أحد ويطمع على أخيه فى هذا الأمر، لأن الرب منتقم لهذه كلها.. إذاً من يُرذل لا يرذل إنساناً بل الله» (١تس٤:٣-٨).

«وأما العاهرون والزناة فسيدينهم الله» (عب١٣:٤).

وأمام تحذيرات كهذه ما أخطر ما يقوله المسيح هنا «إن كل مَنْ ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه». إن مشاهدتنا لأى منظر دنس سيستخدمه الشيطان حتماً ليجرّنا به إلى الخطية. لكن لنعلم أنه لا توجد خطية فى التجربة طالما أننا قاومناها وانصرفنا فى الحال عنها مستندين على قوة الروح القدس. ونحن هنا نتذكر كلمات لوثر: إنك لا تستطيع أن تمنع الطيور من أن تحلق فوق رأسك، لكنك تستطيع أن تمنعها من أن تعشش فى شعرك[١٧].

وفى الواقع إن إمكانية التصوّر والتخيل عند الإنسان هى واحدة من أعظم وأكرم العطايا التى ميَّز الله بها الإنسان عن الحيوان، وإليها يعود الفضل فى كثير من الأعمال العظيمة، وينبغى أن نشكر الله عليها وأن نخصصها لمجد اسمه لا إهانته. لكن ما الذى حدث من بداية تاريخ الإنسان؟ «ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض، وأن كل **تصوّر أفكار قلبه** إنما هو شرير كل يوم» (تك٦:٥).

إن الوقوع فى الأفعال الدنسة لا يأتى مطلقاً من فراغ بل تسبقه تخيلات دنسة، وهذه لابد وأن تكون سبقتها نظرات دنسة! وكلام الرب هنا فى موعظة الجبل يؤكد أن عين القلب تُثار بعين الرأس. والرب يريد منع الخطية من المنبع، فنتجنب كل سُبل الإثارة.

وإذا كان الرب يحذرنا من النظرة التى تقود إلى الوقوع فى الخطية، أفلا ينبغى أن تحترس النساء مما يرتدين لئلا يكون مُثيراً للشهوات والغرائز. فارق كبير أن تحاول الفتاة أن تبدو جذابة (وهذا أمر طبيعى) وأن تكون مُثيرة بالملابس الفاضحة (وهذا شر). إن الكتاب المقدس يعلمنا أن الذى يقع فى الخطية مذنب، لكن ذنب الذى تسبب فى الوقوع فى الخطية أكبر «الذى أسلمنى إليك له خطية أعظم» (يو١٩:١١). قال أحد الأفاضل: إن الرجال يسقطون فى الخطية، لكن الشياطين هم الذين يجربونهم[١٨].

اقلع عينيك واقطع يدك

يستطرد الرب فيقول «فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك كله فى جهنم. وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك كله فى جهنم».

وقد يقول واحد «إن هذا الكلام صعب. مَنْ يقدر أن يسمعه؟»،. لكن دعنى أؤكد أن المسيح كان يعنى هذا الكلام فعلاً بدليل أنه كرره مرة أخرى فى متى١٨: ٨، ٩ حيث هناك أضاف أيضاً الرِّجْل إلى جوار العين واليد مؤكداً أنه خير للواحد أن يدخل الحياة أقطع أو أعرج أو أعور من أن يُلقى فى النار الأبدية وله يدان أو رجلان أو عينان.

لكن لنعد إلى الآية موضوع دراستنا فى موعظة الجبل. لماذا اختص الرب فى حديثه هنا بالعين واليد دون سائر الأعضاء؟

لأن العين هى أهم أجهزة الاستقبال فى الإنسان، واليد هى أهم أعضاء العمل. والخطية الأولى فى الجنة استخدمت فيها أمنا حواء العين واليد. فلقد رأت المرأة الشجرة بعينيها، من ثم مدت يدها وأخذت، ثم أعطت رجلها فأكل، وكان السقوط. وكأن الرب هنا يعود بنا إلى أصل الداء، ويعالج المرض من الجذور!

ثم إن العين هى أغلى أعضاء الجسم، أيوجد شىء أعز وأغلى على الإنسان من عينه؛ عينه اليمنى؟! واليد أليست هى أهم أعضاء الجسم؟! تذكَّر أن الذين كانوا يسمعون الرب فى ذلك اليوم كان معظمهم من الكادحين، ومن الطبقة العاملة؛ فما أهم اليد اليمنى بالنسبة لهم؟

لكن هناك ما هو أغلى وأهم؛ أغلى من العين اليمنى، وأهم من اليد اليمنى. إنها النفس الوحيدة الغالية. قال المسيح «خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك كله فى جهنم».

لكن هل يُفهم كلام المسيح هنا حرفياً؟ هذا ما فعله بعض الغُلاة، بل وفى تاريخ الكنيسة بعض ممن زادت غيرتهم على حكمتهم نفذوه فى أنفسهم فعلاً. لكن واضح أن هذا الكلام لا يُفهم حرفياً، بل هو كلام مجازى وذلك للأسباب الآتية:

١- إنك لو قلعت العين اليمنى سيمكنك أن تنظر نفس المناظر بالعين اليسرى. ولو قلعت العينين فلا زال القلب يقدر أن يفكر ويتخيل. والخطية كما فهمنا سابقاً تنبع من القلب «لأنه من الداخل من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة؛ زنى» (مر٧: ٢١).

٢- إنك لو قلعت العين اليمنى فلن تدخل السماء بعين ناقصة. فعند الاختطاف سيغيِّر الرب شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده (فى٣:٢١) وبأجسادنا الممجدة سندخل السماء.

كلا، نحن لا نفهم هذا الكلام حرفياً، بل أنه يُشبه كلام الرب فى مناسبة أخرى «إن كان أحد يأتى إلىَّ ولا **يُبغض** أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته، حتى نفسه، فلا يقدر أن يكون لى تلميذاً» (لو١٤:٢٦). لا يعنى الرب طبعاً أن نكره كل الناس وألا يكون لنا حبيب، فالمسيح فى موعظة الجبل يعلمنا أن نحب حتى الأعداء، بل الرب يريد أن يقول: إن أى شىء يعطل النفس عن اتّباع الرب، مهما كان عزيزاً، علينا أن نعتبره من هذه الناحية عدواً لنا.

هكذا هنا يؤكد الرب أن النفس أهم من الجسد. فحتى لو فقدت أحد أعضائك الهامة جداً، فنفسك الخالدة أهم. وإن وُجد شىء يُحدرك إلى جهنم، مهما كان ثميناً، فلا تشفق عليه، فلن يعوضك شىء إذا وجدت نفسك فى آخر المطاف مُلقى فى جهنم «لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟ أو ماذا يعطى الإنسان فداءً عن نفسه؟» (مت١٦:٢٦).

أميتوا أعضاءكم

إذا لم نأخذ كلام المسيح السابق حرفياً، فكيف يمكننا أن نفهمه؟ ماذا يقصد الرب بالقول «إن كانت عينك اليُمنى تُعثرك فاقلعها وألقها عنك»؟ إنه يقصد أنه إذا كانت النظرة تعثرك وتغريك على السقوط فى الخطية فاقلع عينك، بمعنى: لا تنظر، تصرف كما لو كانت عينك مقلوعة ولا تقدر أن ترى بها، وأنك أصبحت أعمى لا تقدر أن ترى الأشياء التى أمامك، والتى تجعلك تسقط فى الخطية. ونفس الشىء بالنسبة لليد (أى ما تعمله) والرِّجْل (الأماكن التى تذهب إليها)، إذا كانت يدك أو رجلك تغريك على السقوط فى الخطية فاقطعها وألقها بعيداً عنك؛ بمعنى لا تفعل هذا الشىء، ولا تذهب إلى هذا المكان، تصرف كما لو كانت يدك مقطوعة، وكما لو كانت رجلك مقطوعة، فما عُدت تقدر أن تفعل هذا الأمر، ولا أن تذهب إلى هذا المكان الذى يسبب لك السقوط فى الخطية!

وإلا لو كان علينا أن نقطع كل عضو فى جسدنا يسبب لنا العثرة، فسنقطع كل أعضاء جسدنا عضواً بعد عضو، حتى لا يبقى منا شىء. وهذا ما تم فعلاً فى صليب المسيح «عالمين هذا أن إنساننا العتيق قد صُلب معه» (رو٦:٦) «مع المسيح صُلبت» (غل٢:٢٠).

والواجب علينا هو «احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا. إذاً لا تملكن الخطية فى جسدكم المائت لكى تطيعوها فى شهواته، ولا تقدموا أعضاءكم آلات إثم للخطية، بل قدموا ذواتكم لله كأحياء من الأموات. وأعضاءكم آلات بر لله» (رو٦: ١١-١٣).

نعم لو كان المطلوب أن نضحى بعضو لنخلِّص النفس، فلا ينبغى أن نتردد لأن النفس أهم. لكننا نشكر الله لأن هذه التضحية ليست ضرورية على الإطلاق. فالأمر قد تم - أمام الله - فى صليب المسيح. وأما من الناحية العملية فعلينا أن نعتمد يومياً على نعمة الله، وأن نسلك بالروح فلا نكمل شهوة الجسد (غل٥: ١٦) وبهذا التصرف تكون كمن قلعت عينك بالنسبة للنظر إلى الخطية، وكمن قطعت يدك بالنسبة لفعل الخطية. فى هذا يقول الرسول بولس «أيها الإخوة نحن مديونون (أى ملتزمون)، ليس للجسد لنعيش حسب الجسد، لأنه إن عشتم حسب الجسد (الطبيعة الساقطة فينا) فستموتون (هذا هو نهاية مسار العيشة بحسب الجسد؛ الموت الأبدى). ولكن إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستحيون» (رو٨: ١٢، ١٣). لا يتحدث الرسول هنا عن حقيقة موتنا بل عن عملية الإماتة. فنحن هنا لسنا سلبيين منتظرين شيئاً يحدث معنا، بل إننا مسئولون عن هذه الإماتة. وهذه الإماتة ليست حرفية، لأنها لا تتم بسكين حديد، بل بالروح القدس؛ بأن نمتنع سلبياً عن كل ما يثير، ولا نصنع تدبيراً للجسد لأجل الشهوات، وإيجابياً ننشغل بما يرغب الروح القدس أن يشغلنا به.

يقول المسيح «خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك كله فى جهنم»(ع٢٩ ، ٣٠). أيصل الأمر إلى هذا الحد؟ نعم. وعندما يكرر الرب هذا الكلام مرتين فى آيتين متتاليتين «فلأن الأمر مُقرر من قِبل الله» (تك٤١: ٣٢). والأمر جد لامزاح فيه!

أتعرف ما هى جهنم* كما يصفها لنا الكتاب المقدس؟ إنها ظلمة دامسة، عذاب بلا توقف.. نار بلا نور.. دود لا يموت! هى وحدة مُطْبِقَة «خارجاً»، بعيداً عن محضر الله حيث لا يوجد سوى الصراخ! هناك ذكرى مستيقظة نشطة، مقترنة بحسرة مستمرة بلا توقف.. ذكرى النعيم الذاهب، والحسرة على الفرص الضائعة. هناك لا نوم، ولا طعام، ولا شراب.. لكن الأسوأ من هذا كله أنه لا خروج من جهنم!

تذكر أنه لا بديل عند الله عن القداسة «أقمع جسدى وأستعبده، حتى بعد ما كرزت للآخرين لا أصير أنا نفسى مرفوضاً» (١كو٩: ٢٧).

---

* مزيد من التفصيلات عن جهنم تجدها فى كتاب "الشيطان" للمؤلف، الفصل ٢٣ بعنوان "مصير الشيطان".

تطبيقات عملية

لقد أمدتنا التكنولوجيا الحديثة بالكثير مما يزيد ثقافتنا ومعارفنا. فماذا يفعل المؤمن إزاءها إذا كانت هذه الأشياء أيضاً تؤثر سلبياً على حياتنا الروحية؟

الإجابة القاطعة خير لك أن تدخل الحياة أقطع أو أعرج أو أعور من أن تُلقى في جهنم النار ولك يدان أو رجلان أو عينان (مت١٨: ٨، ٩).

لا تُغَذِّ الجسد بالأفلام المُثيرة النجسة، ولا بقراءات تقودك إلى الخطية ولو بالفكر أو التخيّل. بل دعني أقول إنه إذا كانت أجزاء من الجرائد اليومية تؤذي حياتك الروحية فلا تقرأها. وإن لم تستطع فاستغنِ تماماً عن الجرائد. فإن كان الرب قال اقلع عينك اليمنى وألقها عنك، واقطع يدك اليمنى وألقها عنك، فأي شيء بعد ذلك ممكن أن تستبقيه إن كان يتعارض مع حياة القداسة؟!

في هذه الحالة قد يعتبرك الناس غير مثقف، وربما يكون معهم حق، فلكي ما نصل إلى السماء قد يستلزم الأمر أن نكون معوّقين ثقافياً (ناقصي عيناً أو يداً أو رجْلاً) لكن أفضل أن ندخل الحياة بهذا النقص عن أن نكون في منتهى اللباقة والثقافة ونجد أنفسنا في آخر المطاف في جهنم!

نعم أفضل أن نعاني نوعاً من التخلف الثقافي في هذه الحياة، عن أن نعاني الهلاك الأبدي. فكم الأبدية أهم من الزمان! وكم القداسة أهم من الثقافة! إن أية خسارة في هذه الدنيا محتملة في سبيل «أن ندخل الحياة» التي هي بالحقيقة حياة!!

إن المسيح في تعليمه هنا يؤكد أن الخطية تقود إلى جهنم، وأن الطريق إلى جهنم قد يبدأ بنظرة، فشهوة.

علينا إذاً أن نختار بين أحد أمرين:

الإماتة أو الهلاك! المسيح أو الناس! الحياة أو جهنم!

١٩

الطلاق

"وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق، وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزنى. ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى"
(مت ٥: ٣١، ٣٢)

لا زلنا نتأمل فى القسم الثالث من موعظة المسيح على الجبل (مت٥ :١٧-٤٨)، وهو القسم الذى يدور حول البر الذى ينبغى أن يُظهره المسيحى، والذى يزيد على بر الكتبة والفريسيين.

بدأ الرب بالحديث عن القتل لأنه أول خطية ذُكرت فى الكتاب المقدس بعد الطرد من الجنة، وبعدها تحدث عن الزنا ليُرينا نظرة الله لبشاعة تلك الخطية التى كثيراً ما ارتبطت فى الكتاب بخطية القتل. والآن يتحدث عن الطلاق، وإساءة استخدامه، ذلك لأنه يؤدى، كما سنرى الآن، إلى نفس تلك الخطية البشعة، أعنى الزنا. كما أن الخيط المشترك فى كليهما هو خيط الشهوة.

والحديث عن الطلاق هو حديث غير مُسرٍّ. فبالحقيقة لا يوجد نكد أشد إيلاماً من نكد زواج غير موفق، ولا مأساة سببتها الخطية قدر دمار الزواج الذى أبدعه الخالق فى البداية لإسعاد الانسان.

لكن الرب هنا يقول كلمته. وكلمته، لو وعينا، هى دائماً لخيرنا؛ لخير الأفراد، ولخير الأسر، ولخير المجتمع.

وكلمة الرب هنا ليست كلمته الوحيدة فى المسألة ولو أنها تُعتبر تلخيصاً للموضوع. وفى انجيل متى ١٩ نجد تفصيلات أكثر عن رأى المسيح فى هذا الموضوع الخطير.

نظرة المسيح للزواج

لقد أتى الفريسيون إلى الرب (مت١٩) ليجربوه قائلين له: هل يحّل للرجل أن يطلّق امرأته لكل سبب. فأجاب وقال لهم «أما قرأتم أن الذى خلق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى. وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً. إذاً ليسا بعد اثنين بل جسد واحد. فالذى جمعه الله لا يفرقه انسان».

وخلفية السؤال أنه كانت بين اليهود فى أيام المسيح مدرستان للفكر فى مسألة الطلاق استناداً على ماورد فى تثنية٢٤. الأولى اتخذت موقفاً صارماً متشدداً فى تفسير كلمة «عيب» (تث٢٤: ١) واعتبرته عيباً جوهرياً؛ عدم أمانة فى العلاقات الزوجية. أما الثانية فاتخذت موقفاً متسيباً فيكفى أن تكون المرأة طباخة غير ماهرة، أو أنها تحرق طعام زوجها ولو مرة واحدة، أو حتى لو فقدت جاذبيتها بالنسبة للرجل وأحب غيرها. هذه وغيرها كانت أسباباً كافية – فى نظرهم – للطلاق، وكان الفريسيون أميل إلى هذا الرأى لما فيه من سهولة واتساع.

لهذا أراد الفريسيون أن يعرفوا رأى المسيح، إلى جانب أى من المدرستين هو يقف. والرب فى رده على الفريسيين عاد بهم إلى البداءة؛ إلى ما كان قديماً فى الجنة قبل السقوط. فمن البدء خلق الله ذكراً واحداً وأنثى واحدة. هذا هو فكر الله إذاً من جهة الزواج. ويقول الوحى «ويكون الاثنان جسداً واحداً». وهذه الآية العظيمة التى قيلت فى الجنة تلخص لنا فكر الله من جهة الزواج كالآتى:

١ – «يكون الاثنان»؛ أى رجل واحد وامرأة واحدة: هذا يلغى فكرة تعدد الزوجات.

٢ – «جسداً واحداً»؛ فالزواج ليس جمعية ممكن أن تُحل، وليس مجرد عقد مدنى يحتاج إلى عقد آخر لفسخه، بل انه ارتباط عضوى وثيق كارتباط الجسد الواحد – وهذا يلغى فكرة الطلاق.

لكن بعد سقوط الانسان فى الجنة. ودخول الخطية إلى العالم، والشهوة إلى القلب، انحرف الانسان عن خطة الله. فظهر تعدد الزوجات (خطية الشهوة) فى نفس الأصحاح (تكوين٤) الذى بدأ بخطية القتل (خطية القسوة). ثم جاء من بعدهما الطلاق الذى جمع بين القسوة والشهوة!

لكن المسيح عاد إلى البداية؛ إلى ما كان فى الجنة قبل دخول الخطية، وما رآه الله أنه حسن. ثم يُعلق الرب قائلاً «فالذى جمعه الله لايفرقه انسان».

هذه الآية لا تعنى - كما يقول بعض المتسيبين والمنحرفين - أن هناك زيجات جمعها الله وأخرى لم يجمعها الله* ، بل تعنى أن الله قصد أن يكون الارتباط بين الرجل والمرأة فى الزواج هو ارتباط دائم. إنه اتحاد الله صانعه ولا يجوز لإنسان أن يهدمه.

وعندما قال الرب هذا تساءل الفريسيون قائلين «فلماذا أوصى موسى أن يُعطى كتاب طلاق فتطلق؟» وهم بذلك كانوا يشيرون إلى ماورد فى تثنية ٢٤ حيث يرد قول الوحى «إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها، فإن لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شىء، وكتب لها كتاب طلاق، ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته. ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر، فإن أبغضها الرجل الأخير وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته، أو إذا مات الرجل الأخير الذى اتخذها له زوجة، لا يقدر زوجها الأول الذى طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجست».

أوصى أم أذن ؟

والرب فى ردّه على كلام الفريسيين أوضح أن موسى لم يوصِ بذلك بل أذن. وفرق كبير بين الوصية والإذن. يقول الرب «إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم. ولكن من البدء لم يكن هكذا».

لنا أن نتصور ماذا يمكن لرجل قاسى القلب وشرير أن يفعل بزوجته إذا أبغضها؟ لاشك أنه سيسيء معاملتها إلى الدرجة التى قد تتعرض فيها حياة تلك الزوجة إلى الخطر. فجاء قانون الطلاق ليعالج تلك المشكلة مع الرجال القساة «من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم».

لقد أعطى الله الناموس للإنسان ليكبح جماح الشر فى نفسه. لكن اللجام الذى يوضع لكبح الطبيعة العتيقة لا يحولها إلى طبيعة جديدة. لقد كان الناموس فى هذا عاجزاً بسبب ضعف الجسد (رو٨:٣). وبكل يقين فإن الناموس لم يعلن لنا الله ولا أعلن لنا قلبه بل أعلن الإنسان وشره «لأن بالناموس معرفة الخطية» (رو٣: ٢٠). وبالتالى فإن «الناموس لم يكّمل شيئاً» (عب٧:١٩).

* يقتبس الرسول بولس هذه العبارات القاطعة عندما يتحدث عن خطية الزنا «أم لستم تعلمون أن من التصق بزانية هو جسد واحد لأنه يقول يكون الاثنان جسداً واحداً» (١كو٦:١٦). فما أخطر هذه الخطية إذاً؟!

لكن هل فكر الله هو الطلاق؟ هل هذه إرادته؟ إن آخر كلام من الله قبل أن يتجسد ابن الله؛ فى آخر أسفار العهد القديم، يعلن الله بكل وضوح أنه يكره الطلاق (ملا٢:١٦). فما أسخف أن يوجه الفريسيون للمسيح بعد هذا الإعلان الصريح هذا السؤال: «هل يحِّل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب؟» تباً لهم. لقد كان المفروض من هذا الشعب أن يعظم الشريعة ويكرمها، لكنه شعب منهوب ومسلوب قد اصطيد فى الحُفر كله (إش٤٢:٢٢).

بالعودة إلى الشريعة المذكورة فى سفر التثنية نجد تركيز الله هناك على أمرين: الأول أن الرجل إذا طلق امرأته يعطيها كتاب طلاق. وثانياً أنه إذا طلقها لا يقدر لأى سبب كان أن يعود إليها مرة ثانية. وبهذين الأمرين فإن الرب يؤكد على قدسية الزواج.

وقصد الله من كتاب الطلاق ألا تتم مسألة الطلاق بكلمة يقولها الزوج فى تسرع أو لحظة غضب، بل كان يجب أن يكتب الكتاب مما يعطيه فرصة للتفكير والتروى.

وفى الكتاب كان ينبغى أن يكتب سبب الطلاق، فلا يصح أن يكون الطلاق بغير سبب أو نتيجة نزوة طارئة أو مزاج غير معتدل.

وبموجب هذا الكتاب كان يصح للمرأة أن تتزوج بأى رجل كان، إلا رجلاً واحداً ما كان يصح له الزواج بها وهو رجلها الأول الذى طلقها. فلو كانت هناك أسباب جوهرية للطلاق فى المرة الأولى فكيف زالت تلك الأسباب حتى يرجع لها ثانية. وكان هذا من شأنه أن يمنع تسرع الرجل فى اتخاذ قرار الطلاق لأنه لو اتخذه فلن يمكنه الرجوع فيه، وكل هذا كان من شأنه كبح جماح الشر من جهة، وإعطاء القدسية للزواج من الجهة الأخرى.

أما أنا فأقول لكم

يقول المسيح «قيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق. وأما أنا فأقول لكم إن من طلّق* امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزنى. ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى».

وبهذه الكلمات أكد الرب على الفكر الإلهى من جهة دوام الزواج واستمراريته، وهو ما ذكره الرسول بولس بعد ذلك أيضاً «وأما المتزوجون فأوصيهم لا أنا بل الرب أن لا تفارق المرأة رجلها، وإن فارقته فلتلبث غير متزوجة أو لتصالح رجلها، ولا يترك الرجل امرأته» (١كو٧: ١٠، ١١). كما أدخل الرب شيئين جديدين إلى المشهد يتناسبان مع النعمة والحق اللذين بيسوع المسيح صارا.

* فى مرقس ١٠: ١١، ١٢ يطبق المسيح نفس المبدأ على المرأة إذا طلقت زوجها.

فأولاً: لن يُرجم فى المسيحية الزانى أو الزانية: ذلك لأنه فى زمن النعمة يريد الله أن يعطى كل البشر فرصة للتوبة. ليس معنى ذلك طبعاً أن مستوى القداسة فى المسيحية أقل مما كان تحت الناموس؛ العكس هو الصحيح، كما فهمنا من أقوال المسيح السابقة مباشرة. نعم ليس لأن القداسة أقل، بل لأن النعمة أكثر. وهى تفتح الباب أمام أشر الخطاة للتوبة والرجوع الحقيقى إلى الله.

ثانياً: أنه لا سبب مقبولاً عند الله للطلاق إلا سبباً واحداً فقط هو «علة الزنى» بغض النظر عما يقوله الناس، أو يأذن به رجال الدين*، أو تقرره المحاكم. إن الحاكم الأعلى الذى سيقف أمامه كل البشر بدون استثناء للحساب بما فيهم القضاة ورجال الدين، يقول هنا كلاماً لا يحتمل تأويلاً. لا سبب للطلاق إلا علة الزنا.

تذكر، يا من تبدل من كلام الملك الواضح هنا، أن الملك سبق وقال «من نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلّم الناس هكذا يُدعى أصغر فى ملكوت السماوات» فتحذر!

إن فعلة طلاق واحدة كما قال المسيح هنا قد تعرض أربعة أشخاص كى يعيشوا فى خطية زنا مستمرة «من طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تزنى (إذا تزوجت من رجل آخر، لأنها لازالت فى نظر الله زوجة للأول) ومن يتزوج بمطلقة يزنى (لأنها لازالت فى نظر الله مرتبطة بالزوج الأول)».

هذا يجعلنى أختم بكلمتين:

الكلمة الأولى لغير المتزوجين: إن الزواج فى المسيحية هو ارتباط العمر فلا تقدم عليه إلا بعد صلوات وتسليم الأمر كُلية للرب «فى كل طرقك اعرفه وهو يقوّم سبلك» (أم٣:٦).

والكلمة الثانية للمتزوجين: مع أننا نعيش فى زمن انهيار القيم الإلهية وأصبح من المألوف أن يضرب الناس بكلام الرب هذا عرض الحائط، لكننى أقول لك إن ***الخالق*** فى تكوين٢ قرر اتحاد الزوجين معاً اتحاداً لا ينفصم، **والديان** فى متى٥، ١٩ قرر عدم جواز فصل وتفريق ما وحده الله وجمعه. إننا نقول بكل صراحة وبكل أسف أيضاً إن نظرة الناس اليوم للطلاق هى انهيار مأساوى على أعلى مستوى.

---

* أسفى على رجال الدين الذين أباحوا الطلاق بسبب تغيير الملة(!) ما أبعدهم عن الكتاب وصاحب الكتاب الذى قال «إن كان أخ له امرأة **غير مؤمنة** وهى ترتضىَ أن تسكن معه فلا يتركها. والمرأة التى لها رجل **غير مؤمن** وهو يرتضى أن يسكن معها فلا تتركه. لأن الرجل غير المؤمن مقدس فى المرأة والمرأة غير المؤمنة مقدسة فى الرجل» (١كو٧:١٢-١٤).

وإننا لا نجد من كلمات نختم بها حديثنا عن هذا الموضوع الحساس، أفضل مما فعله يوحنا ذهبى الفم عندما ربط كلام المسيح عن الطلاق هنا بالتطويبات التى بدأ بها الموعظة، فقال: إن الوديع وصانع السلام والمسكين بالروح والرحيم؛ كيف يطرد زوجته، وكيف يطلقها ؟ وذاك الذى اعتاد أن يكون صانع سلام؛ كيف يكون فى انشقاق مع جسده ؟!

٢٠

الصدق والحلف

"أيضاً سمعتم أنه قيل للقدماء لا تحنث بل أوفِ للرب أقسامك، وأما أنا فأقول لكم: لا تحلفوا البتة؛ لا بالسماء لأنها كرسى الله، ولا بالأرض لأنها موطئ قدميه، ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم. ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء. بل ليكن كلامكم نعم نعم، لا لا. وما زاد على ذلك فهو من الشرير"

(مت ٥: ٣٣-٣٧).

لا زال الرب فى هذه الأقوال يحدثنا عن البر الذى على تابعيه أن يُظهروه، والذى ينبغى أن يزيد على بر الكتبة والفريسيين. فيما سبق تكلم الرب عن مسألتى الغضب والشهوة، وفى الأقوال التى سنتأملها الآن يتكلم عن خطايا الفم واللسان.

تعليم الكتبة والفريسيين

يقول الرب «سمعتم أنه قيل للقدماء لا تحنث بل أوف للرب أقسامك» وهذا الكلام الذى قيل للقدماء أو بواسطتهم، لم يَرِد حرفياً فى أسفار العهد القديم، بل ورد كلاماً استمد منه الأقدمون هذا التعليم «لا تحنث (أى لا تمتنع عن تنفيذ ما أقسمت به) بل أوف للرب أقسامك».

فيرد مثلاً فى سفر الخروج ٢٠: ٧ «لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً، لأن الرب لا يبرئ مَنْ نطق باسمه باطلاً».

وفى سفر اللاويين١٩:١٢ «لا تحلفوا باسمى للكذب فتدنس اسم إلهك. أنا الرب».

وفى سفر العدد ٣٠:٢ «إذا نذر رجل نذراً للرب أو أقسم قسماً أن يُلزم نفسه بلازم، فلا ينقض كلامه، حسب كل ما خرج من فمه يفعل».

وفى سفر التثنية ٢٣:٢١ «إذا نذرت نذراً للرب إلهك فلا تؤخر وفاءه، لأن الرب إلهك يطلبه منك فتكون عليك خطية».

ما الذى يفعله معلمو اليهود إزاء هذا الحظر المشدد؟ لقد فهموا أن كل ما ينطقون به مصدراً باسم الجلاله فهم مُلتزمون به.. وهم كانوا يوقرون اسم الله، فهكذا قال المسيح عنهم «هذا الشعب.. يكرمنى بشفتيه» (مت١٥:٨). ولهذا فهم تجنبوا الحلف باسم الله، وابتدعوا أقساماً أخرى؛ أقساماً بالمخلوق لا بالخالق لكى يتمكنوا من الكذب! بل واستنبطوا طريقة للتحايل كشف الرب عنها فى عظة أخرى له وردت فى متى٢٣.

لقد أوضح الرب فى متى ٢٣ أن معلمى اليهود جعلوا فارقاً بين أقسام وأقسام، فهناك أقسام مُلزمة وأخرى غير مُلزمة، فيقول الرب «ويل لكم أيها القادة العميان القائلون من حلف بالهيكل فليس بشىء (أى لا ضرر عليه إن حنث) ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم. أيها الجهال والعميان أيما أعظم؛ الذهب أم الهيكل الذى يقدس الذهب؟ ومن حلف بالمذبح فليس بشىء، ولكن من حلف بالقربان الذى عليه يلتزم..» وبذلك فإن معلمى الشريعة سهلوا للناس طريق الكذب، وقننوا الخداع تحت ستار اكرام اسم الله!!

هذا هو أحد جانبى المشكلة التى يتحدث عنها الرب هنا، والجانب الآخر هو أن البعض يقسم باسم الله، لكنه يستخدم ذلك الاسم الجليل المجيد بصورة خالية تماماً من التوقير، وكأن اسمه القدوس مضغة تلوكها الشفاه المدنسة بلا تقدير. ولازلنا للآن نسمع الكثيرين ينطقون بالاسم الكريم فى الجد والهزل على السواء، ونسمع الحلف باسم الله كبداية لكلام الكثيرين، ومزاحهم وفكاهاتهم أيضاً، بل أحياناً أغنياتهم الماجنة، بل وسبابهم فى أحيان أخرى!!

يقول المسيح «إن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين» (مت١٢:٣٦). والمقصود بالكلمة البطالة الكلمة العاطلة التى لا لزوم لها. فإن كانت الكلمة التى بلا لزوم أمراً خطيراً، فكم هو أخطر جداً أن ينطق الانسان باسم الله بلا هدف، دون لياقة أو تقدير!!

هذه هى المشكلة المزدوجة. فكيف عالج الرب يسوع هذا الأمر؟ وما هو تعليم المعلم العظيم بخصوص هذه المسألة؟

أقول لكم لا تحلفوا البتة

استمع إلى كلام الرب يقول «أما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة» ثم يقول «بل ليكن كلامكم نعم نعم، لا لا» والرب يقصد من ذلك أننا فى أحاديثنا اليومية وكلامنا مع الآخرين لا يجب أن نستخدم الأقسام على الاطلاق. فنحن لا يجوز لنا أن نقرن اسم الله إلا بما يليق به من إجلال وتوقير.

كما عالج الرب أيضاً مسألة الأقسام بغير اسم الله فيقول «لا تحلفوا البتة: لا بالسماء لأنها كرسى الله، ولا بالأرض لأنها موطئ قدميه، ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم». وكأن الرب يقول إن الانسان لن يفلت من المسئولية سواء أقسم باسم الله أو أقسم بأى شيء من خليقته؛ فالكل مرتبط به، ويستمد قدسيته فى الحلف لارتباطه بالله ومسيحه. فأنت إذا أقسمت بالسماء فهى عرش الله، وإذا أقسمت بالأرض فإنها موطئ قدميه، وإذا أقسمت بأورشليم فإنها مدينة الملك العظيم. بل حتى لو أقسمت برأسك؛ صحيح هى رأسك أنت بمعنى أنها ليست رأس شخص آخر، لكن لا تنسَ أنها ملك الله بالخليقة وأنها تحت سلطانه وسيطرته؛ فأنت لا تقدر أن تغير لون شعرة واحدة من رأسك من بيضاء إلى سوداء، أو من سوداء إلى بيضاء.

ونفس الأمر ينصرف على باقى الأشياء العزيزة على الإنسان والتى يحلف بها، فهل حياة الانسان أو أي شيء من الأشياء العزيزة لديه، هى خاضعة له؟ فلماذا نعطى للأشياء غير الثابتة، الكرامة التى لا تليق لغير الله وحده؟

وهكذا فقد منع الرب الحلف اطلاقاً فى المعاملات اليومية والأحاديث بين الناس وبعضهم البعض. ولماذا الأقسام؟ لماذا لا نكتفى بأن نقول نعم إذا أردنا إثبات الأمر، وأن نقول لا إذا أردنا نفيه؟ أليس استخدام الأقسام يعنى أننا نتوقع من الآخرين عدم الثقة فى كلامنا، الأمر النابع من عدم صدق القلب؟

هذا يأتى بنا إلى أمر خطير مرتبط بما سبق، أعنى به الكذب. فالكتاب المقدس مليء بالتحذيرات من هذه الخطية البشعة والتى هى إحدى سمات الإنسان البارزة «إنما باطل بنو آدم، **كذب بنو البشر**» (مز٦٢: ٩)، وأيضاً «أنا قلت فى حيرتى **كل إنسان كاذب**» (مز١١٦: ١١؛ رو٣: ٤). ولاعجب فإن غير المؤمنين هم من أب هو إبليس وشهوات أبيهم يريدون أن يعملوا.. متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له، لأنه كذاب وأبو الكذاب (يو٨: ٤٤).

هذه الخطية التى يستخف الناس بها ويظنونها قليلة القدر فى نظر الله، بل والتى يمتدحونها أحياناً ويعتبرونها نوعاً من الذكاء أو الدبلوماسية، والتى لونّها البشر؛ فعملوا منها الأسود والأبيض، نعم كم هذه الخطية مستهجنة مستقبحة من الله. يقول الرب «الكبرياء والتعظم وطريق الشر **وفم الأكاذيب أبغضت**» (أم٨:١٣، انظر أيضاً أم٦:١٦، ١٧، ٢٢:١٢). ويُختم الكتاب المقدس بإعلان القضاء الرهيب على الكذابين إذ يقول «وأما الخائفون وغير المؤمنين والرجسون والقاتلون والزناة والسحرة وعبدة الأوثان **وجميع الكذبة** فنصيبهم فى البحيرة المتقدة بنار وكبريت الذى هو الموت الثانى» (رؤ٢١:٨). وأيضاً «لأن خارجاً (أى خارج المدينة السماوية) الكلاب والسحرة والزناة والقتلة وعبدة الأوثان وكل من يحب ويصنع كذباً» (رؤ٢٢:١٥).

وماذا عن القسم فى المحاكم؟

بعض المؤمنين يمتنعون نهائياً عن أداء القسم أمام الجهات الرسمية مهما كانت الكُلفة، وذلك من منطق توقيرهم لكلمات المسيح هنا. ونحن مع أننا نمتدح إخلاصهم ورغبتهم فى طاعة المسيح، لكننا نحب أن نعرف ما هو الفكر الكتابى فى هذه المسألة؟

فى البداية دعنا نرفض الفكر بأن القسم شر فى ذاته. فنحن نجد العديد من آيات الكتاب تشير إليه إيجابياً لا سلبياً، الأمر الذى سيكون من العسير أن نفسره لو قُلنا إن القسم شر فى ذاته. فمثلاً يقول الوحى «الرب إلهك تتقى، وإياه تعبد وباسمه **تحلف**» (تث٦:١٣)، وأيضاً «إن رجعت يا إسرائيل يقول الرب.. وإن **حلفت حى هو الرب** بالحق والعدل والبر فتتبرك الشعوب به، وبه يفتخرون» (إر٤:١، ٢).

ثم إن العديد من رجال الله فى الكتاب استخدمه: فإبراهيم استحلف عبده، كبير بيته، بإله السماء وإله الأرض ألا يأخذ زوجة لابنه اسحق من بنات الكنعانيين. وداود حلف ليوناثان (تك٢٤:١، ١صم٢٤) ولم يكن فى أى من التصرفين ما يعيب.

بل إن الله نفسه أقسم أكثر من مرة؛ تشير الرسالة إلى العبرانيين إلى ثلاثة من هذه الأقسام هى قسم الغضب، وقسم البركة، وقسم الكهنوت (عب٣:١١، ٦:١٧، ٧:٢١). وغنى عن البيان أن الله ما كان ليقسم لو أن فى القسم ما يعيب. ثم فى آخر أسفار الكتاب المقدس؛ سفر الرؤيا نقرأ عن ملاك قوى أقسم بالحى إلى أبد الآبدين الذى خلق السماء وما فيها والأرض وما فيها والبحر وما فيه (رؤ١٠:٦). ومن كل ما تقدم نفهم يقيناً أن القسم فى ذاته ليس شراً.

ثم لو كان الرب يريد منع القسم فى كل الظروف وكل الأحوال لما كان هناك لزوم لأن يستطرد الرب قائلاً «لا بالسماء.. ولا بالأرض، ولا...» كان يكفى أن يقول «لاتحلفوا البتة».

يقول الأخ وليم كلى فى شرحه لإنجيل متى: لست أظن أبداً أن المسيحى يكون على صواب عندما يرفض أداء الأقسام أمام المحاكم، بل أعتقد أنه يخطئ برفضه أداء هذا القسم أمام السلطات التى تتطلبه قبل أداء الشهادة، فليس فى هذا القسم ما يُعثر الضمير[١٩].

لقد استخدم الله الأقسام أحياناً، طبعاً لا ليزيد مصداقية كلامه، حيث أن الله ليس انساناً فيكذب (عد٢٣: ١٩)، بل ليزيد ثقتنا نحن «إذ أراد الله أن يُظهر أكثر كثيراً لورثة الموعد عدم تغير قضائه توسط بقسم» (عب٦: ١٧). لقد قبل - تبارك اسمه - أن ينزل إلى مستوانا ويستخدم القسم، وذلك لا يرجع إلى شىء فيه، بل إلى ما فينا نحن من عدم تصديق. والرب فى كلامه فى عظة الجبل يركز على أن نكون صادقين وأمناء فى كلامنا بحيث لا يكون هناك احتياج لاستخدام الأقسام وليس أن نرفض نحن استخدام الأقسام. نعم لن نحتاج مع من نتعامل معهم إلى الأقسام، فهم إذ سيلاحظون صدقنا سيعرفون أننا مُلتزمون بالكلمة المجردة، لكن لماذا تطلب من السلطة القضائية التى لا تعرفك أن تصدقك فى عالم سمته البارزة هى الكذب؟!

ليكن كلامكم نعم نعم، لا لا

مما تقدم لاحظنا الفارق الشاسع بين ما يتطلبه المسيح من بر فى تابعيه وبين بر الكتبة والفريسيين. هؤلاء يكفيهم أن تتفادى اسم الجلالة، وتكذب كما تشاء. أما المسيح فيطلب منا بدون أن نستخدم اسم الجلالة أن نتكلم بالصدق كما لو كان كلامنا مسبوقاً بقسم. هؤلاء يكفيهم ألا تحنث، أما المسيح الذى ينظر إلى الداخل والقلب فإنه يسر بالحق فى الباطن (مز٥١: ٦) والصدق فى الظاهر (أم٨: ٦-٨). أما قيل عن المسيح قدوتنا إنه لم يكن فى فمه غش أو مكر (إش٥٣: ٩، ١بط٢: ٢٢)؟! ولهذا لا يلزم أن نحلف لنكون صادقين، بل يجب ألا يخرج من أفواهنا إلا الصدق. إن احترامنا وتوقيرنا لله الذى يسمع كل كلماتنا ويشهد على كل تعهداتنا سيجعلنا نحترم كل ما تنطق به شفاهنا، والناس من حولنا سيشعرون بذلك، وبهذا سيعود المجد على ربنا وسيدنا.

وحيث أننا ملتزمون بكلامنا فلا يكون للأقسام لزوم. «لتكن نعمكم نعم ولاكم لا لئلا تقعوا تحت دينونة» (يع٥: ١٢).

لقد سمح الله بالطلاق تحت الناموس بسبب قساوة القلب، كما سمح بالأقسام أيضاً بسبب عدم أمانة القلب، لكن قصد الله أسمى من هذا وذاك. فليساعدنا الرب لنكون أمناء وصادقين، وكل ما نقوله يثبت علينا دون حاجة إلى أقسام.

ليُعطنا الرب نعمة لكي نقصد ما نقول ونقول ما نقصد. ليُعِنّا لتكون نعمنا نعم ولانا لا. وعندما تكون الكلمة المجردة وافية بالمطلوب مؤدية للغرض، فلماذا نسرف في الكلام بأن نضيف أي شيء آخر إليها ؟!

٢١

المسيحى ومبدأ المعاملة بالمثل

"سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر، بل مَنْ لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضاً. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً. ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين. من سألك فاعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده"

(مت ٥: ٣٨-٤٢).

لا زال الرب فى هذا الجزء يشرح البر الذى يجب أن يمتلكه تابعوه، والذى يجب أن يزيد على بر الكتبة والفريسيين. تأملنا حتى الآن فى أربعة عناصر هى: القتل والزنا والطلاق والحنث (أى عدم الوفاء بالأقسام)، ورأينا الفارق الكبير بين الناموس والنعمة، وبين تعاليم كل من الأقدمين والمتأخرين وتعاليم المسيح فى هذه الأمور الأربعة.

وها قد وصلنا الآن فى تأملاتنا فى عظة الجبل إلى القمة، تلك القمة التى جعلت الكثيرين يقدّرون العظة ويُعجبون بها، كما وجعلت آخرين يستاءون منها ويهزأون بها. إن قمة السمو الأدبى والروحى فى هذه العظة نجده فى هذه الأقوال وتلك التى تليها؛ أعنى ما طالبنا المسيح أن نُظهره من نحو المسيئين إلينا (ع٣٩) ومن نحو الأعداء (ع٤٤). ونحن لا نجد فى أى جزء آخر من هذه العظة تحدياً أعظم مما نجده هنا، ولا تَبَايُنَ للتعاليم المسيحية عن غيرها أوضح مما نجده هنا. كما لا نشعر فى أى جزء آخر بحاجتنا الشديدة لمعونة الرب فى حياتنا ولملء الروح القدس قدر ما نشعر به ونحن أمام هذه الأقوال!!

عين بعين وسن بسن

يقول الرب «سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن» هذه الأقوال وردت فى العهد القديم ثلاث مرات:

ففى خروج٢١: ٢٢-٢٥ «إذا تخاصم رجال وصدموا امرأة حبلى فسقط ولدها ولم تحصل أذية، يُغرَّم كما يضع عليه زوج المرأة ويدفع عن يد القضاة، وإن حصلت أذية تعطى نفساً بنفس وعيناً بعين وسناً بسن ويداً بيد ورجلاً برجل وكيّاً بكيّ وجرحاً بجرح ورضّاً برض»

وفى لاويين٢٤: ١٩، ٢٠ «وإذا أحدث إنسان فى قريبه عيباً، فكما فعل كذلك يُفعل به، كسر بكسر وعين بعين وسن بسن. كما أحدث عيباً فى الانسان كذلك يحدث فيه».

وفى تثنية١٩: ١٨-٢١ «فإن فحص القضاة جيداً وإذا الشاهد شاهد كاذب قد شهد بالكذب على أخيه، فافعلوا به كما نوى أن يفعل بأخيه، فتنزعون الشر من وسطكم، ويسمع الباقون فيخافون ولا يعودون يفعلون مثل ذلك الأمر الخبيث فى وسطك. لا تشفق عينك. نفس بنفس، عين بعين، سن بسن، يد بيد، رجل برجل».

وبمراجعة هذه الأقوال مع قرائنها نفهم الآتى :-

أولاً : أن الله قصد منها حماية الضعفاء من الأقوياء، وتحذير الأقوياء من الافتراء، كقول الرب «يسمع الباقون فيخافون، ولايعودون يفعلون مثل ذلك الأمر الخبيث» (تث١٩: ٢٠).

ثانياً : أن الله أعطى هذا الأمر للقضاة وليس للأفراد، كيما يقوم القاضى بتنفيذه، لكن الرب لم يقصد منها أبداً، كما فسرها البعض، إباحة الانتقام الشخصى من المُسيء.

ثالثاً : كما قصد الله أيضاً أن لا يبالغ القاضى عند توقيع الجزاء، فالضرر الذى أحدثه الجانى لا يجازى بما يزيد عليه، بل بمثله فقط. فإتلاف العين لا يجازى عليه بالقتل مثلاً، بل العين بالعين، والسن بالسن، وهكذا.

وواضح أن القصد من هذه الشريعة، كما هو باستمرار فى الناموس، كبح جماح الإنسان ورغبته فى الانتقام، الأمر الذى تمثل ببشاعته، أيام كان فى الأرض طغاة، فى لامك، إذ قال لامرأتيه متباهياً «إنى قتلت رجلاً لجرحى، وفتى لشدخى. إنه يُنتقم لقايين سبعة أضعاف، وأما للامك فسبعة وسبعين» (تك٤: ٢٣، ٢٤).

هذا ما جاء به الناموس الذى «لم يُوضع للبار بل للأثمة» (١تى١: ٩)، فهل عند المسيح؛ المعلم الوديع والممتلئ نعمة شيء أسمى؟ وهذا ما قيل للقدماء، فهل وصف المسيح لأتباعه «طريقاً أفضل»؟ سوف نرى ..

أما أنا فأقول لكم

يقول المسيح «وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر» أى لا تأخذ حقك بنفسك ولا تنتقم لنفسك من الشخص الشرير.

وقبل أن نشرح أقوال المسيح التالية، تلك الأقوال التى سببت الحيرة لدى أذهان الكثيرين، نقول بداية إنه لا ينبغى أن نفهمها حرفياً، بل ينطبق عليها نفس ما طبقناه على كلمات المسيح السابقة فى ع٢٩ ، ٣٠ «إن كانت عينك اليُمنى تُعثرك فاقلعها وألقها عنك.. وإن كانت يدك اليُمنى تُعثرك فاقطعها وألقها عنك» وسوف نعود بعد قليل لتأكيد هذا الفكر.

شيء آخر جدير بالاعتبار؛ هو أن هذه الآيات لا تمنع المقاومة على الإطلاق. فيعلمنا الكتاب أن نقاوم إبليس (يع٤:٧،١بط٥:٩). ويذكر الرسول أنه قاوم بطرس مواجهة لأنه كان ملوماً (غل٢:١١)، وأن المؤمنين أظهروا روح الانتقام من الذى جلب الإهانة على اسم الرب (٢كو٧:١١). ثم أن المسيح لم يلغ مبدأ المعاملة بالمثل، لأنه مبدأ بار وعادل، بل إن المسيح فى نفس عظة الجبل قال «لأنكم... بالكيل الذى به تكيلون يُكال لكم». لكن المسيح هنا يتحدث عن معاملاتنا الواحد مع قريبه، فتعاملاتنا معاً ينبغى أن يميزها النعمة لا البر. ثم إن المسيح أيضاً فى كلامه هنا لم يلغ فكرة الحكومات، وهى أسبق من الناموس، إذ أنها من أيام نوح (تك٩:٥ ، ٦) وتستمر حتى فى المُلك الألفى وإلى نهاية الزمان. يقول الرسول بولس عن الحاكم «إنه لا يحمل السيف عبثاً إذ هو خادم الله منتقم للغضب من الذى يفعل الشر» (رو١٣:٤). فالحاكم ينتقم للشر ولهذا يُعتبر خادم الله، لكن ليس مبدأ الحكومات هو الذى يناقشه الرب هنا، بل سلوك التلميذ.

شيء آخر أريد أن أُشير إليه؛ هو أنه حتى فى العهد القديم حذر الرب من روح النقمة. يقول الرب «لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك» (لا١٩:١٨)، بل لقد كانت هناك لمحات النعمة فى تعامل الأفراد معاً. وسنكتفى الآن للتدليل على ذلك ببعض الآيات من سفر الأمثال «لا تَقُل إنى أجازى شراً. انتظر الرب فيخلصك» «لا تَقُل كما فعل بى هكذا أفعل به. أرُدُّ على الإنسان مثل عمله» «إن جاع عدوك فاطعمه خبزاً، وإن عطش فاسقه ماء. فإنك تجمع جمراً على رأسه والرب يجازيك» (أم٢٠:٢٢ ، ٢٤:٢٩ ، ٢٥:٢١،٢٢).

أخيراً أقول إن الرب هنا، كما فى كل الموعظة، ينظر إلى حالة قلوبنا وليس فقط إلى ما نفعله. إنه لا يعالج الثمار المُرَّة أولاً، بل الجذور. فيقول لنا «لا تقاوموا الشر» فالشيء الطبيعى إذا وقع الظلم على إنسان، أن يتولد فى داخله رَدّ فعل لهذا الظلم يعبر عنه تعبيرات متفاوتة. والانتقام يُعتبر واحداً من أحلى أطايب الطبيعة البشرية، كثيراً ما

نشاهده حتى بين الأطفال. فماذا يجب أن يكون رَّد الفعل لدى تابعى المسيح إذا وقع عليهم الظلم؟ هل كما يفعل البعض رّد الصاع صاعين؟ هل هى المعاملة بالمثل على مبدأ العين بالعين والسن بالسن؟ كلا، بل «لا تقاوموا الشر» أو بلغة الرسول بولس «لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء» وأيضاً «لا يغلبنك الشر بل اغلب الشر بالخير» (رو١٢: ١٩ , ٢١).
ثم يأتى الرب يسوع بأربع حالات على سبيل المثال لا الحصر لِما يمكن أن يحدث معنا.

أربعة أمثلة

يقول الرب «أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضاً. ومَنْ أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً. ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين. ومن سألك فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده».

والرب فى هذه الأمثلة الأربعة يبدأ بما هو أشد إلى ما هو دون ذلك، ما هو حسيٌ ثم ما هو معنوى. يبدأ بلطمة على الخد؛ أى اعتداء يقع على الجسد. ثم أخذ الثوب؛ أى اعتداء على الممتلكات. ثم تحدث بعد ذلك عن التسخير؛ أى الاعتداء على الحرية. وأخيراً تحدث عن الملكية؛ مَنْ يسألنا ومن يريد أن يقترض منا.

وهذه الأمثلة نفهمها أدبياً ومعنوياً لا حرفياً.

المثال الأول: «من لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضاً». لاحظ أنك لُطمت على الخد الذى لا تتوقع أن تُلطم عليه. فالإنسان عادة يستخدم يمينه فى اللطم فتقع اللطمة على الخد الأيسر. فإذا لطمك شخص على خدك الأيمن فهذا معناه أنك لُطمت من حيث لا تتوقع. ماذا أنت فاعل إزاء تَعدٍ وقع عليك من حيث لا تحتسب؟! أو قد تكون اللطمة على الخد الأيمن بظهر اليد، وفى هذه الحالة فإنها لا تشتمل على عنصر الألم، قدر ما تحمل من عنصر التحقير. والتحقير كما نعلم يضاعف فينا الرغبة فى الانتقام. ماذا تفعل عندما تُهان وتُحتقر من الآخرين؟ الجواب: لا تفعل شيئاً على الإطلاق، بل استمر فى طريقك ولو كان سكوتك سيجعل المزيد من الظلم يقع عليك، فلقد قال الرب «لى النقمة أنا أُجازى يقول الرب» (رو١٢: ١٩).

المثال الثانى: «من أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً». وعبارة «أراد أن يخاصمك» تعنى حرفياً «أراد محاكمتك». ولكى نفهم قوة المعنى علينا أن نفهم الجو اليهودى الذى منه نطق الرب بهذه الأقوال. لقد كان غالبية

الشعب أيام المسيح لا يمتلكون سوى ثوبين (وهو القميص الداخلى) أما الرداء (أو الثوب الخارجى) فلم يكونوا يمتلكون سوى واحد منه؛ يرتدونه من الخارج فى النهار، ويكون غطاءهم فى الليل. وكان الناموس يسمح بأخذ الثوب لكنه يحرِّم أخذ الرداء الذى هو الثوب الخارجى (خر٢٢: ٢٦، ٢٧؛ تث٢٤: ١٢، ١٣). ومن هذا نفهم أن هذا الشخص يريد محاكمتك رغم أن الحق معك، والقانون فى صفك. ماذا تفعل؟ يقول المسيح هنا: تنازل عن حقوقك. وهو نفس ما يقوله الرسول «لماذا لا تُظلمون بالحرى؟ لماذا لا تُسلبون بالحرى؟» (١كو٦: ٧). أليس علة الكثير من المتاعب بين البشر، حتى بين الأشقاء، بل وبين القديسين فى بعض الأحوال أن لا أحد يريد أن يُظلم؟!

المثال الثالث: «من سخّرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين» - كان قانون الحكومة المحتلة فى ذلك الوقت يجيز للجندى الرومانى أن يسخّر أيّاً من أفراد الشعوب المُستعبدة لحكمهم، لكى يحمل له حملاً مسافة ميل* واحد. ها هو الرب يقول: إذا كان القانون يجبر على الميل الأول، فإن تابع المسيح عليه أن يذهب ميلاً ثانياً. والمعنى الأدبى المقصود من ذلك هو أنه إذا كان فى البلاد قوانين معمول بها، فعلى المسيحى ليس فقط أن يخضع لها (فهذا هو الميل الأول) بل أن يبادر هو من تلقاء ذاته لتنفيذها. فالمسيحى الحقيقى، بخلاف الآخرين، لا يتهرب من قوانين البلاد الخاصة بالجمارك أو الضرائب مثلاً، بل إنه يبادر من تلقاء ذاته ليفعلها بسرور. وكم يندهش موظفو الدولة عندما يجدون المؤمن الأمين يرفض التهرب من القوانين أو التحايل عليها، بل يؤدى كافة المطلوب منه. إنه نفس موقف الجندى الرومانى الذى يجد شخصاً مستعداً أن يذهب معه ميلاً ثانياً.

المثال الرابع: «من سألك فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده». وهذه أيضاً لا ينبغى أن تُفهم بحرفيتها المُطلقة بأن نعطى أى إنسان. فلا يجوز مثلاً أن نعطى شخصاً ليشترى سجائر، أو نعلم أنه سيُنفق المال على ما يضر بدنه من المسكر أو المخدرات. كما لا يجوز أن نساعد انساناً كسولاً لا يريد أن يعمل، فالكتاب المقدس يعلمنا أن من لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضاً (٢تس٣: ١٠). يقول الوحى «سعيد هو الرجل الذى يترأّف ويقرض» ثم يردف قائلاً «يدبر أموره بالحق» (مز١١٢: ٥). كلا، ليس قصد الرب أن نعطى أمثال هؤلاء، بل أن نكون

* الميل الرومانى أقل قليلاً من الميل الإنجليزى الذى هو نحو ١٦٠٠ متراً

مستعدين للعطاء والبذل بغض النظر عن قدرة المقترض على رَدّ ما اقترضه.

خلاصة ما تقدم

لكى نفهم هذه الأقوال التى كثيراً ما أُسيئ فهمها بطريقة صحيحة، ينبغى ألا نفصلها عن باقى أجزاء الوحى. وفى البداية نكرر ما قُلناه إن الرب لم يكن يقصد حرفية الكلام، والرسول بطرس قال «تُلطمون ... فتصبرون» (١بط٢: ٢٠)، ولم يقل تُلطمون فتديرون الخد الآخر. بل إن المسيح نفسه عندما لُطم فى المحاكمة لم يُدِر خده الآخر للضارب. وواضح أنك لو أدرت للمعتدى خدك الآخر (حرفياً) فإنك ستُعرِّض ذلك المعتدى للوقوع فى خطية أخرى، وبذلك تكون قد أوقعت عليه ضرراً غير مباشر، وهو ما لم يكن ممكناً للمسيح أن يفعله قط. كلا إن المسيح لم يُدرْ خده الآخر للضارب، بل على العكس قال له «إن كنت قد تكلمت ردياً فاشهد على الردى، وإن حسناً فلماذا تضربنى؟» (يو١٨: ٢٣). والرب فى هذا الرَّد لم يُثِرْ احتجاجاً على كرامته المُهدرة، بل كان يحاول أن يوقظ ضمير ذلك الخادم الذى ضربه دون ذنب. لكن لما لم يتيقظ ضمير ذلك الخادم الشرير، فإن المسيح لم يحاول مُطلقاً أن يقاوم الشر. وفى باقى قصة الصليب نقرأ كيف بصقوا عليه، كيف عصبوا عينيه ثم ضربوه، كيف استهزأوا به وتهكموا عليه كما أرادوا، كيف ألبسوه إكليلاً من شوك، ومع كل مجده وقوته ضبط نفسه وظل ساكتاً، كان فى كل ذلك يسلِّم لمن يقضى بعدل (١بط٢: ٢٣)، فظلوا يمارسون الأذى إلى أن كفوا!!

وفى تاريخ الكنيسة، هناك من فهموا كلام المسيح هذا حرفياً، وحاولوا تطبيقه حرفياً. لعل أشهرهم ذلك الراهب الذى ترك نفسه للسعات الناموس وهو يرفض تماماً أن يقتله لأنه فهم من كلام المسيح أن عليه أن يحتمل وأن لايقاوم الشر! لكنى أعتقد أنه مما تقدم يمكننا نحن الآن أن نكون قد فهمنا قصد الرب بصورة أفضل. فلقد كان قصده أن يتحلى تلميذ المسيح بروح الصفح والمسامحة؛ تلك الروح التى جعلت داود يمتنع عن قتل شاول الملك الذى كان يسعى جاهداً لقتل داود (١صم٢٦)، والتى جعلت أليشع يولم وليمة للجنود الآتين للقبض عليه (٢مل٦: ٨-٢٣)، والتى جعلت استفانوس يصلى لأجل قاتليه (أع٧: ٥٩، ٦٠).

والأمثلة الأربعة التى تأملناها، شأنها شأن كل موعظة الجبل، تتعامل مع دواخل قلوبنا، كما ومع تفصيلات حياتنا. إنها تتعامل مع الدواخل العميقة ومع التفاصيل الدقيقة، وفى هذا وذاك ينبغى أن نكون مختلفين جذرياً عن باقى البشر «الأمر الذى فيه يستغربون» (١بط٤: ٤)، وتلخصها هذه المبادئ الأربعة:

١ - عدم الانشغال بالذات والكرامة الشخصية.

٢ - عدم الانشغال بالحقوق بل بالواجبات.

٣ - عدم التهرب من قوانين الدولة بل المبادرة بتنفيذها.

٤ - الاستعداد للبذل والعطاء.

وليس فى هذه التعليمات ما يتعارض مع حمل الحاكم للسيف للانتقام من فاعلى الشر، فإلى أن يأتى الإنسان إلى نعمة الله، ينبغى أن يكون تحت ناموس الله. ذلك لأن نعمة الله لا تتعامل إلا مع شخص وصل إلى نهاية ذاته، وانحنى باتضاع أمام الله تحت الشعور بذنبه الثقيل. كما وليس فى هذه الأقوال ما يتعارض مع تعاوننا مع أجهزة الدولة لإرساء العدل فى البلاد. ويرى لوثر[٢٠] أنه يجب التوفيق بين هذين التوجهين؛ أعنى التعاون مع الدولة لإقرار الأمن وهو ما يجعلنى مثلاً أبلّغ عن السارق، وبين طلب المسيح هنا ألا نقاوم الشر. وما المانع فى التوفيق بينهما؟ ألم يَقُل المسيح «أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله» (مر١٢: ١٧).

علّق أحدهم على ذلك بأنه يمكننا أن نعمل الشاى للّص الذى ضبطته متلبساً بسرقة بيتى، لحين حضور البوليس ليقبض عليه[٢١].

٢٢

المسيحى ومحبة الأعداء

"سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك؛ وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماوات، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين. لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم؟ أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك؟ وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأى فضل تصنعون؟ أليس العشارون أيضاً يفعلون هكذا؟ فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى فى السماوات هو كامل"

(مت ٥: ٤٣–٤٨)

ها نحن قد وصلنا إلى خاتمة الأصحاح الخامس، والذى فيه يتكلم الرب عن البر الذى ينبغى أن يظهر فى تابعيه والذى ينبغى أن يزيد عن بر الكتبة والفريسيين، فنوع بر أولئك لا يُعنى إلا بالمظاهر دون الجوهر، ولا تشغله سوى الأفعال دون الاهتمام بحالة القلب. وهو عكس ما يطلبه المسيح من تابعيه.

سمعتم أنه قيل للقدماء

يبدأ الرب هذه الفقرة الجديدة بالقول «سمعتم أنه قيل للقدماء تحب قريبك وتبغض عدوك».

ونحن نجد فى الناموس فعلاً القول «تحب قريبك» (لا١٩:١٨) لكن عبثاً نفتش على عبارة «تبغض عدوك». هنا أيضاً نجد واحدة من تلك التشويهات التى أدخلها الرابيون، أى معلمو الشريعة، على تعاليم الوحى، والتى دلت على عدم فهمهم لروح المكتوب ولا لقلب صاحب الكتاب! وتشويه الرابيين يذكرنا بأسلوب الشيطان القديم فى الجنة عندما حذف من كلام الله وأضاف إليه وحوّر فيه (تك٣). هكذا فعل الرابيون أيضاً فى هذه الوصية.

فهُم أولاً: حذفوا من الآية كلمة «كنفسك*»؛ فقالوا فقط«تحب قريبك»، ولا عجب فديانتهم تدور حول الذات فكيف يحبون أحداً كأنفسهم؟!

ثانياً: حوّروا فى قصد الرب واختزلوا فى حدود القريب إلى أقل حد ممكن، ولم يعرفوا، كما سأوضح بعد قليل، أن الرب يقصد بالقريب كل من أستطيع أن أصل إليه لأساعده. ولعل سؤال الناموسى الذى قام ليجرب الرب، والواردة قصته فى لوقا ١٠:٢٥-٣٧ تدل على ذلك. لقد سأل ذلك الناموسى الرب سؤالاً طالما تردد فى مجالس الرابيين واختلفت وجهات نظرهم فيه «مَنْ هو قريبى؟»، أما الرب ففى مَثَل السامرى الصالح أوضح لنا فعلاً قلب الله وفكره فى هذا الأمر.

ثالثاً: اخترع الرابيون من عندهم عبارة «تبغض عدوك» التى لم تَرِد مطلقاً فى الناموس، وتجاهلوا كلام الرب الصريح فى بداية الأصحاح الذى وردت فيه عبارة «تحب قريبك كنفسك» (لا١٩:١٨) كيف أن الرب طلب تَرك زوايا الحقل فى الحصيد للغريب وليس فقط للفقير واليتيم والأرملة (لا١٩:٩، ١٠).

من أين استقى الرابيون هذا الفكر؟

لقد كانت الشريعة فى العهد القديم تحتوى على بعض الفصول الكتابية، إذا أُسىء تفسيرها ممكن أن توصل الإنسان إلى ذلك الفكر المتقدم وهو «تُبغض عدوك».

١- لقد طلب الله من شعبه عند دخولهم لامتلاك الأرض أن يستأصلوا الشعوب الكنعانية. صحيح لقد قصّر الشعب فى تنفيذ تلك المهمة، لكن يبقى أن الرب طلب منهم أن يستأصلوا كل سكان الأرض الكنعانيين (تث٢٠:١٦-١٨،...).

٢- طلب الله من شعبه ألا يعقدوا عهداً مع الأموريين، ولا يسمحوا بدخول الموآبى

* الآية: «تحب قريبك كنفسك» تعتبر من أكثر الآيات وروداً فى أسفار العهد الجديد (انظر: مت١٩:١٩، ٢٢:٣٩، مر١٢:٣١، لو١٠:٢٧، رو١٣:٩، غل٥:١٤، يع٢:٨).

والعمونى فى جماعة الرب إلى الجيل العاشر. وكذلك طلب منهم عدم التعامل بالإحسان مع المديانيين (خر٣٤: ١١ ، ١٢؛ تث٧: ٢ ، ٢٣: ٣،...)

٣- فى شريعة القاتل نفساً سهواً؛ أعطى الرب الحق لولى الدم بتعقب القاتل وسمح بقتله ما لم يسرع ليحتمى فى إحدى مُدن الملجأ (عد٣٥)

٤- ما يُعرف عند المفسرين بمزامير الانتقام التى فيها يستنزل المرنم لعنات الله على الأشخاص موضوع المزمور، ولعل أشهر تلك المزامير؛ مزمور٦٩. ١٠٩ ، ١٣٧.

ولتوضيح ما تقدم نقول:

يذكر لنا لاويين١٨: ٢٤، ٢٥ سبب طلب الرب من شعبه إبادة سكان الأرض. لقد كان شرهم ونجاستهم بسبب وثنيتهم فوق التصور. ونحن نعرف أن الرب سبق أن أهلك مُدن الدائرة؛ سدوم وعمورة والمدن التى حولهما، بسبب تهورهم فى الخطية والنجاسة، لكنه صبر على شعوب كنعان، والسبب كما قال الله لابراهيم «لأن ذنب الأموريين ليس إلى الآن كاملاً» (تك١٥: ١٦). لكن لما خرج الشعب من أرض مصر كان قد كمل مكيال ذنبهم. وكأن الله فى رحمته تأنى عليهم كل هذه القرون لكى يتوبوا فيرحمهم، فلما أصروا على تجاهل الله واستمروا فى نجاستهم فإن الله كقاض بار وعادل أصدر الأمر باستئصالهم وإبادتهم.

ولنفس السبب حذر الرب من التعامل مع بعض الشعوب الوثنية لئلا يُصادوا برجسهم ويتعلموا منهم ممارساتهم الدنسة القاسية، وهذا بكل أسف ماحدث فعلاً من الشعب كما هو مسجل فى التوراة.

أما شريعة مُدن الملجأ فلا علاقة لها بقول الرابيين «تبغض عدوك». صحيح هو قتل، وبالتالى يحل قتله بحسب الشريعة القديمة التى سنها الله الخالق من أيام نوح بعد الطوفان (تك٩: ٦). لكن واضح أنه لا توجد عداوة فى المسألة، فالقاتل ما كان يحق له الاحتماء فى إحدى مُدن الملجأ إذا كان مبغضاً لأخيه أو قتله عمداً. والمسألة كلها رحمة بالنسبة لشخص قتل سهواً وهو غير مُبغض لأخيه، لهذا الشخص رتب ناموس الله حماية له إلى أن يتم موت الكاهن العظيم، وحينئذ يرجع إلى أرضه.

أما بالنسبة لمزامير الانتقام فإنها تطلب توقيع القضاء الإلهى العادل لا على أعدائى أنا، بل على أعداء الله. فأقصى وأشر أنواع القضاء نقرأ عنها مثلاً فى مزمور٦٩ حيث يقول المرنم «لتصر مائدتهم قدامهم فخاً وللآمنين شَركاً، لتظلم عيونهم عن البصر وقلقل متونهم دائماً. صب عليهم سخطك وليدركهم حمو غضبك. لتصر دارهم خراباً وفى خيامهم لا يكن ساكن..» هل تسأل ما سر هذه القسوة الرهيبة؟ الإجابة تعرفها بمجرد أن تقرأ المزمور كله،

فهو يتكلم عن الآلام القاسية التى احتملها الرب يسوع لما كان على الصليب. ونحن نذكر أن المسيح طلب الغفران لقاتليه لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون. فهل معنى ذلك أن كل البشر سوف يخلصون، بغض النظر عن موقفهم من المسيح؟ وهل تظن أن البركة فى النهاية ستعم البشر جميعاً سواء قبلوا المسيح أو رفضوه؟ حاشا. فهناك دينونة رهيبة تنتظر مَنْ داس ابن الله ومَنْ ازدرى بروح النعمة (عب١٠:٢٩).

أتحسبه تناقضاً أن المسيح الذى علمنا أن نحب أعداءنا نطق قبل الصليب بعظة الويلات (مت٢٣)؟ وهل محبة الله التى اتجهت فى ملئها إلى كل البشر تتعارض، مع ارسال الله للأشرار غير التائبين إلى جهنم؟ طبعاً لا. وبهذا المعنى علينا أن نفهم مزامير الانتقام. إنها لا تتحدث عن أعدائنا نحن، بل أعداء الله. إنها كما عبَّر عنها أحدهم[٢٢]: هى العداوة الكاملة (أى التى لا عيب فيها) والبغضة العادلة؛ تلك العداوة والبغضة التى ستبلغ ذروتها عندما تتصاعد فى السماء أصوات الهللويات لأن الله دان الزانية العظيمة التى أفسدت الأرض بزناها، وانتقم لدم عبيده من يدها (رؤ١٩).

الصورة الحقيقية للناموس

وقبل أن نشير إلى كيفية معالجة المسيح لفكر الرابيين فى هذا الصدد، يهمنا أن نتذكر كم يمتلئ العهد القديم بالأقوال الرائعة عن محبة الأعداء والاهتمام بشئونهم. فمثلاً يقول أيوب وهو أحد القديسين الذين عاشوا قبل الناموس «إن كنت قد فرحت ببلية مبغضى أو شَمَتُّ حين أصابه سوء، بل لم أدع حنكى يخطئ فى طلب نفسه بلعنة» ثم ينتقل ألى الجانب الإيجابى فيقول «إن كان أهل خيمتى لم يقولوا من يأتى بأحد لم يشبع من طعامه، غريب لم يبت فى الخارج، فتحت للمسافر أبوابى» (أى٣١:٢٩-٣٢).

ثم دعنا الآن نمر سريعاً على بعض الأقوال فى الناموس التى تؤيد هذا الفكر:

فى سفر الخروج٢٣:٤ . ٥ يقول الله «إذا صادفت ثور عدوك أو حماره شارداً ترده إليه. إذا رأيت حمار مبغضك واقعاً تحت حمله وعدلت عن حله فلابد أن تَحُلَّ معه». وهى أقوال كثيرة الشبه بما يجب أن نعمله إذا صادفنا نفس هذه الأشياء التى تخص أحد اخوتنا (انظر تث٢٢:١-٤). فهل من هذا نستنتج أن الله يعلمنا أن نبغض أعداءنا ؟!

بل استمع أيضاً إلى كلمات الرب فى سفر اللاويين ١٩:٣٣ . ٣٤ «إذا نزل عندك غريب فى أرضكم فلا تظلموه. كالوطنى منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم وتحبه كنفسك لأنكم كنتم غرباء فى أرض مصر».

ثم استمع إلى أقوال الحكيم فى سفر الأمثال «لا تفرح بسقوط عدوك ولا يبتهج قلبك إذا عثر لئلا يرى الرب ويسوء ذلك فى عينيه فيردُّ عنه غضبه» (أم٢٤: ١٧، ١٨) وأيضاً «إن جاع عدوك فاطعمه خبزاً وإن عطش فاسقه ماء، فإنك تجمع جمراً على رأسه والرب يجازيك» (أم٢٥: ٢١، ٢٢). وهذه الآية الأخيرة هى بعينها التى اقتبسها الرسول بولس فى العهد الجديد مُبرهناً أنه ليس من شيم المسيحى أن يكره إنساناً (رو١٢: ٢٠). فهل هذه الأقوال السابقة تجعلنا نفهم أن الله علم فى الناموس أن نبغض أعداءنا؟!

أما أنا فأقول لكم

من الأقوال السابقة فهمنا أن الناموس ولو أن طابعه العام هو البر لا النعمة التى ظهرت بظهور ربنا يسوع المسيح، ذاك الذى أتى إلينا مملوءاً نعمة وحقاً، لكنه مع هذا لم يعلمنا أن نبغض أعداءنا. لكن تُرى كيف عالج الرب سوء تفسير الرابيين للناموس؟ وما هو تعليم المسيح الكُلى النعمة فى هذا الصدد؟ وما هو النور الجديد الذى أتى به المسيح فى موعظة الجبل العظيمة؟

لقد سبق أن تكلم المسيح فى البداية عن القتل، وقال إن المسيحى ليس فقط، كما يقول الناموس، لا يقتل بل أيضاً لا يغضب. ثم انتقل إلى قانون العقوبات وأظهر أن المسيحى ليس فقط، كما يطلب الناموس منه، لا يبالغ فى العقوبة، بل على العكس؛ إنه لا يقاوم الشر إطلاقاً. إنه شخص يُظهر نعمة الله فى كل الظروف.

أما الآن فقد انتقل المسيح من السلبيات إلى الإيجابيات. فأخلاق الإنسان المتدين تركز على السلبيات؛ مثل الفريسى الذى قال فى صلاته لله: إنه لا يخطف ولا يظلم ولا يزنى. أما المسيحى فإنه تميزه الإيجابيات. لذلك فكما أشار المسيح فى الأعداد التى سبقت الأعداد موضوع دراستنا إلى المسيحى ومبدأ المعاملة بالمثل، موضحاً أنه على أتباعه ألا ينتقموا لأنفسهم على الإطلاق، مُشيراً إلى أربعة أمثلة سلبية، تأملناها فى الفصل السابق، فإنه فى الأعداد التى ندرسها الآن يأتى بأربعة أمثلة إيجابية. فيقول «أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم». وهذه الأمثلة الأربعة هى كالآتى:

أحبوا: هذه لها علاقة بالمشاعر الداخلية.

باركوا: هذه لها علاقة بالكلام

أحسنوا: لها علاقة بالعمل

صلوا: هذه لها ارتباط بالوقت والقلب والذهن، وهى قمة المشاعر والكلام والعمل.

وكأن المسيح هنا يمسك بأيدى تلاميذه ويسير معهم نحو الكمال الذى ينشده فى أتباعه منتقلاً بهم من السلبيات إلى الإيجابيات؛ فليس فقط لا نقاوم الشر، بل علينا أن نُظهر المحبة للأعداء! نعم، ليس فقط نحسن إلى مَنْ يبغضنا، أو نفعل الخير معه، بل «أحبوا أعداءكم»!! ويالها من كلمات سامية راقية.

إنها كلمات سماوية لا تصدر إلا من شخص سماوى «انسكبت النعمة على (شفتيه)» «حلقه حلاوة وكله مشتهيات» (مز٤٥:٢؛ نش٥:١٦). فهو يريدنا هنا ليس فقط أن نحوّل الخد الآخر لضاربنا، بل أيضاً أن نحب هذا الشخص، ليس فقط أن نحتمل، بل أيضاً أن نخدم!! وحقاً كما قال واحد من القديسين: أن ترُد الخير بالشر مبدأ شيطانى، وأن ترُدْ الخير بالخير مبدأ إنسانى، أما أن ترُد الشر بالخير فهذا مبدأ إلهى[٢٣]!

والرب لم ينطق بهذه الأقوال السامية فقط لكنه عاشها أيضاً. فهو إن كان قد قال «أحبوا أعداءكم» فهذا ما أظهره فى كل حياته المباركة فوق الأرض والتى فيها تمت كلماته بروح النبوة «بدل محبتى يخاصموننى أما أنا فصلاة. وضعوا علىَّ شراً بدل خير وبُغضاً بدل حبى» (مز١٠٩:٤، ٥). وإن كان قد قال «باركوا لاعنيكم» فلعلنا نتذكر موقفه من تلميذه الخائن يهوذا. وإن كان قد قال «أحسنوا إلى مبغضيكم» فإننا لا ننسى موقف النعمة العجيب مع العبد ملخس الذى كان ضمن مَنْ أتوا ليلقوا القبض عليه، وكيف أبرأ يسوع أذنه (لو٢٢:٥٠،٥١). وإن كان قد قال «صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم» فنحن لا يمكن أن ننسى موقفه من صالبيه؛ فإن أول ما نطق به بعد صلبه كان «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (لو٢٣:٣٤)!! تُرى أين أقف أنا وتقف أنت بالمقابلة مع هذا المستوى العظيم الراقى؟!

أبناء أبيكم

يردف المسيح قائلاً «لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماوات». لاحظ أن المسيح لم يَقُل لكى تصيروا أولاد الله، لأننا لا يمكننا بأفعالنا أن نصبح أولاد الله، لكنه يقول «لكى تكونوا أبناء أبيكم» أى لكى تُظهروا بحياتكم العملية حقيقة ما أنتم عليه، ولكى تبرهنوا أنكم فعلاً كذلك. إنها تُشبه إلى حد ما القول الوارد فى ٢كورنثوس٦:١٧، ١٨ «لذلك اخرجوا من وسطهم واعتزلوا يقول الرب ولا تمسوا نجساً فأقبلكم، وأكون لكم أباً وأنتم تكونون

لى بنين وبنات يقول الرب القادر على كل شيء».

وماذا يفعل الله أبونا؟ يقول الرب «فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين». ما أعظم جود الرب ورحمته! فهو يُحسن حتى إلى أولئك الذين يكفرون به. أليست نسمات الأشرار فى يديه؟ «وهو يعطى الجميع حياة ونفساً وكل شيء.. لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد» (أع١٧: ٢٥، ٢٨).

والرب اختار من بين عطاياه الصالحة للإنسان؛ الشمس والمطر وهما أعظم عطايا الله لهذا العالم، ذلك لأن كلا من الشمس والمطر لايتوقفان مطلقاً على الناس؛ سواء اختبأ الناس منهما أو استهانوا بهما. إن السماء تُشرق شمسها أو تمطر مطرها دون أن تتأثر بالناس قط، بل على العكس هى تجبر الناس على أن يتأثروا هم بها.

آه، كم من المرات توقف عطاؤنا أو على الأقل تأثر بموقف الناس منا. نعطى للذين يقدروننا، ويتوقف العطاء أو يقل إذا لم نجد التقدير المنتظر. والمسيح هنا يعلمنا أن هذا يجعلنا مختلفين عن أبينا الذى يشرق شمسه ويمطر مطره على البشر جميعاً دون ارتباط بحال الأفراد وما هم عليه من استحقاق أو عدمه.

ثم إن الرب اختار الشمس والمطر أيضاً نظراً لتأثيرهما العجيب على الأرض الميتة، كيف يجعلانها تلد وتنبت، وكيف يغيران وجه الأرض القاسية. وكأنه يريد أن يقول لنا إنه بمحبتنا للنفوس؛ المحبة التى لا تعرف سوى أن تعطى، والتى تعطى بلا توقف، وتعطى بدون مقابل، وتعطى بغض النظر عما تقابل به، فإننا سنرى حتماً نتائج باهرة بشرط المثابرة والاستمرار «فلا نفشل فى عمل الخير لأننا سنحصد فى وقته إن كنا لا نكّل» (غل٦: ٩).

وهل الله يا أخى العزيز فى عطائه لمن لا يستحقون توقف عند حد أن يشرق شمسه، وأن يرسل وابل أمطار عزه؟ ألم يرسل الله ابنه الوحيد إلى العالم لكى نحيا به؟ (١يو٤: ٩، ١٠). أولم يرسل أيضاً الروح القدس إلى العالم. إن المسيح مشبّه فى الكتاب بالشمس، فهو «شمس البر» (ملا٤: ٢)، والروح القدس مشبّه فى الكتاب المقدس بالمطر (إش٤٤: ٣، زك١٠: ١)؛ وما أعظم هاتين العطيتين. العطية الأولى مذكورة فى يوحنا ٣، والعطية الثانية مذكورة فى يوحنا ٤. ففى يوحنا ٣: ١٦ يقول المسيح «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى **بذل ابنه الوحيد** لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية». ثم فى يوحنا ٤: ١٠ قال المسيح «لو كنت تعلمين **عطية الله** ومن هو الذى يقول لك أعطينى لأشرب لطلبتى أنت منه فأعطاك ماء حياً» ونفس هاتين العطيتين مذكورتان فى غلاطية٤: ٤، ٦ «أرسل الله ابنه ... أرسل الله روح ابنه». فما

أسعدنا بهاتين العطيتين!

أى فضل لكم؟

يواصل المسيح كلامه لكى يوضح نفس الحق بصورة أخرى. فهو كما قدم لنا الحق بصورة إيجابية، قائلاً لنا: إننا يجب أن نتشبه بأبينا السماوى فنحب كل الناس حتى الأعداء. فإنه يقدم الآن الحق بصورة سلبية إذ يقول «لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم؟ أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك؟ وإن سلّمتم على إخوتكم فقط فأى فضل تصنعون؟ أليس العشارون أيضاً يفعلون هكذا؟». وعبارة «أى فضل تصنعون*؟» تعنى أى عمل زائد عن غيركم تصنعون؟ وكأن المسيح ينتظر من تابعيه ألا يكونوا مثل باقى الناس!

فى الآيات السابقة التى تتحدث عن مبدأ المعاملة بالمثل، رأينا وقتها أن المبدأ الإنسانى هو ردّ الشر بمثله. وفى الأقوال موضوع دراستنا الآن نجد أن المبدأ الإنسانى هو ردّ الخير بالخير. والمسيحى فى هذا وفى ذاك مختلف عن البشر. نعم إنه مبدأ إنسانى ويصلح لهذا العالم تماماً، ذلك المبدأ القائل «نصادق من يصادقنا ونعادى من يعادينا». لكنه وإن كان يصلح لهذا العالم، فإنه لا يصلح أبداً لملكوت السماوات.

فى بداية حديث المسيح عن بر تابعيه، ذكر أنهم ليسوا مثل الكتبة والفريسيين، والآن ونحن فى آخر أقواله عن هذا الموضوع يذكر أنهم ليسوا مثل العشارين والوثنيين. وهذا معناه أن المسيحى الحق ليس مثل باقى البشر على الإطلاق، بل إذ أنه ابن لله، فإنه يتشبه أدبياً بالله أبيه. نعم نحن لا نتمثل بالعالم الذى نعيش فيه، بل بالمسيح الذى يعيش فينا، ولا نستمد مبادئنا من العالم الذى يحيطنا، بل بالآب الذى فوقنا «فكونوا متمثلين بالله كأولاد أحباء» (أف٥: ١). والمسيحى ليس فقط يعمل أكثر من الآخرين، ولا حتى يعمل ما لا يعمله الآخرون، بل إنه يعمل ما لا يقدر سوى الآب السماوى أن يفعله، وذلك لأننا صرنا شركاء الطبيعة الإلهية، ولأن الروح القدس يسكن فينا!

أليس للمسيح الحق أن يطلب من تلاميذه أكثر مما يقدر الناس الأشرار أن يقدموا؟ إن تلاميذ المسيح يقولون إنهم يمتلكون أكثر من باقى البشر، وما لم يقترن هذ االقول بما يؤيده عملياً، وما لم يتبرهن بالأعمال، فإنه يصبح رياءً باطلاً؛ وهذا يهين المخلص، ويعثر النفوس، ويعطى فرصة للتجديف على الحق. لقد تمتع تلاميذ المسيح بمحبة أبدية، وفُدوا بدم ثمين،

* وردت الآية ٤٧ من متى ٥ فى الترجمة التفسيرية هكذا «إن رحبتم بإخوتكم فقط، فأى شىء فائق للعادة تفعلون؟ أما يفعل ذلك حتى الوثنيون؟».

وسكن فيهم الروح القدس، فكيف لا يقدمون أكثر مما يقدم غيرهم؟ نعم يمكن للمسيحى الحقيقى أن يعمل أكثر مما يعمل غيره، يقول الرسول بولس «أستطيع كل شىء فى المسيح الذى يقوينى» (فى٤: ١٣).

أخى العزيز.. أى فضل تصنع؟ أى ما الذى تفعله أنت أكثر من الآخرين؟ ليتك تجيب على سؤال المسيح هذا وأنت فى محضره.

فكونوا أنتم كاملين

يختم المسيح كلماته هنا بهذا القول «فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى فى السماوات هو كامل». وبداية نقول إن الكمال الذى يطلبه المسيح من تلاميذه هنا، ليس هو طبعاً الكمال المطلق الذى لله دون سواه، ولا هو خلو القلب من مبدأ الخطية، كما يعلّم البعض، بل المقصود منه كمال القلب*. لا الدرجة الكاملة التى لا يمكن أن نصل إليها طالما نحن هنا على الأرض، ونظل نسعى إليها، بل المقصود هو الغرض الواحد وعدم تجزئة القلب.

أخى الحبيب.. هل لك ذلك القلب الكامل؟ أو دعنى أقدم السؤال بأسلوب آخر: هل أنت فى تعاملاتك مع الآخرين مثل باقى البشر، أم أنك فى عطائك مثل أبيك الذى يعطى الجميع بسخاء ولا يعيّر؟ إن المسيحى الحق بحسب ما نتعلمه من هذه الموعظة لا تميزه الأعمال الخارقة، بل الأخلاق الفائقة، وليس مقياسه البشر، بل إنه يتشبه بالآب، وقدوته المسيح، ويحركه الروح القدس.

هل أسمع واحداً يقول، ما أبعدنا عن هذا المستوى، وما أصعب تعاليم هذه الموعظة. دعنى أقول لك إن هذه الموعظة هى مثل صاحبها الذى وضع لسقوط وقيام كثيرين. هذه العظة أيضاً هى كذلك. فكم من أناس سقطوا أمام أقوال هذه الموعظة، وأمام المبادئ السامية التى تحتويها! بل إنى أعتقد أن كل مُخلص إذا قاس نفسه بمقياس هذه الموعظة فإنه لابد سيسقط شاعراً بالفشل، فلا شىء مثبطاً للهمة وداعياً لليأس مثلها. لكنها أيضاً وضعت لقيام كثيرين. بل إن كل الذين سقطوا أمامها لابد ستقيمهم، فهل من عظة مشجعة

* الكمال فى المسيحية أنواع ثلاثة. كمال بلغة كل المؤمنين (عب١٠: ١٤)، وكمال بلغة بعض المؤمنين (فى٣: ١٥)، وكمال لم يبلغه أى واحد من المؤمنين حتى الآن، ولا يمكن لأحد أن يبلغه طالما نحن لا زلنا فى العالم (فى٣: ١٢، ١كو١٣: ١٠، عب١١: ٤٠) وحيث أن الرب هنا يحرّض سامعيه على بلوغ هذا الكمال، فواضح أنه يتحدث عن النوع الثانى؛ لأن النوع الأول يمتلكه جميع المؤمنين بالفعل، والنوع الثالث لن يمتلكه أحد من المؤمنين قبل الوصول إلى السماء.

مثلها ؟ فإنك ما أن تشعر باليأس حتى تجد هذه العظة تقدم لك التهنئة إذ أن أولى كلماتها : « طوبى للمساكين بالروح » !

ألعل كل ما نعمله، سواء صدقة أم صلاة، هو للرب وليس للناس؟ هل نعتبر عين الله؟ هل نحن ببساطة وتجرد نبتغى أن نسرّ ذاك الذى يرى فى الخفاء وبه توزن الأعمال(٣٤)؟

(الأسقف رابل)

القسم الرابع

ديانة تلميذ المسيح

مت ٦ : ١ – ١٨

- تحذير من ديانة المرائين
- المسيحى والصدقة
- المسيحى والصلاة

  ملحق: الصلاة النموذجية
- المسيحى والصوم

٢٣

تحذير من ديانة المرائين

"احترزوا أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكى ينظروكم وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السماوات"

(مت ٦:١)

كان الموضوع الرئيسى فى أصحاح٥ هو علاقة تلاميذ المسيح بالناموس، أما الأصحاح السادس فيحدثنا عن علاقة التلاميذ بالآب وهم فى رحلة الحياة عبر هذا العالم. ويبدأ الأصحاح بالإشارة إلى حياتهم الدينية، ويختم بحياتهم الدنيوية. فيوضح لنا ع١-١٨ علاقة المسيحى بالآب فى ديانته وتعبده، ويوضح لنا ع١٩-٣٤ موقفه من هذا العالم فى همومه واهتماماته. فى القسم الأول يؤكد المسيح أن عينى الآب هما على المؤمن، بينما فى القسم الثانى يعلمنا أن عينى المؤمن يجب أن تتركزا على الآب.

ومع أن المسيح لازال يتحدث فى هذا الجزء المبارك من الوحى عن البر، إلا أنه يتحدث عنه من منظور مختلف عن حديثه فى الأصحاح السابق. فلقد تحول الرب من الحديث عن المشاعر الخفية (ص٥) إلى الحديث عن البواعث الداخلية. فكما أوضح الرب أن أشر الأعمال التى نهى عنها الناموس، كالقتل أو الزنا، قد نقع فيها دون أن نمارسها فعلاً، فإنه يوضح الآن أن أعظم الأعمال، كالصدقة أو الصلاة أو الصوم، قد لا يكون لها أدنى قيمة أمام الله إذا مورست بأسلوب غير صالح. كأن الرب يركز فى أصحاح٥ على مشاعرنا

الداخلية عندما لا نعمل الأعمال الرديئة، ويركز فى أصحاح٦ على بواعثنا الخفية حين نعمل الأعمال الممدوحة. وعندما حدثنا المسيح عن مشاعرنا الداخلية فى أصحاح٥، فقد ختم الأصحاح بتشجيعنا عن أن نكون مثل أبينا (٥:٤٨)، ثم وهو يحدثنا عن بواعثنا الداخلية فى أصحاح٦، فإنه بدأ الأصحاح بتحذيرنا من الولع بمدح الناس كيما ننال مدح أبينا.

أو يمكن القول بأن الرب فى أصحاح٥ حذر أتباعه من تعليم الكتبة والفريسيين الخاطئ وتفسيرهم المنحرف، بينما ركز فى أصحاح٦ عن ممارسات الكتبة والفريسيين الخاطئة وتوجهات قلوبهم المنحرفة. لذلك يميز أصحاح ٥ عبارة «أما أنا» بينما يميز أصحاح ٦ عبارة «أما أنت».

وكما حذرنا الرب فى الأصحاح السابق من التشبه بالفريسيين فى برهم (ع٢٠)، أو الأمم فى ردّ فعلهم (ع٤٦ , ٤٧)، فإنه هنا أيضاً فى أصحاح٦ يحذرنا ألا نتمثل بالفريسيين فى ريائهم (ع٢)، ولا بالأمم فى تكرار الكلام باطلاً فى صلواتهم (ع٧).

ولقد ركز الرب فى أصحاح٥ على كمية البر العملى الذى يجب على تلاميذه أن يظهروه، فلقد قال المسيح فى بداية حديثه عن هذا الأمر «إن لم **يزد** بركم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السماوات» (ع٢٠) وفى نهايته قال «فأى **فضل** تصنعون؟» (ع٤٧) بمعنى: ماذا تفعلون أكثر من غيركم؟ أما فى هذا الأصحاح، لا سيما فى جزئه الأول فيتحدث المسيح عن نوع البر لا كميته. ليس ماذا تفعل بل لماذا تفعل. هل أنت تمارس أعمال البر المختلفة لتنال مديح الناس وإعجابهم؟ إن كان كذلك فليس لِما تفعله أية قيمة فى نظر الله على الإطلاق.

مقدمة القسم الأول من الأصحاح

يعطينا العدد الأول من هذا الأصحاح خلاصة لباقى الأعداد من٢ إلى ١٨ حيث يقول المسيح «احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكى ينظروكم، وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السماوات». والكلمة «صدقتكم» فى هذا العدد هى بحسب أقدم النسخ وأدقها «برّكم* ». والمقصود بها أعمال البر المتنوعة. ويذكر الرب بعد ذلك فى الأعداد التالية (من ع٢-١٨) ثلاث عينات رئيسية لأعمال البر التى ذكرها مُجملة فى ع١ وهى الصدقة والصلاة والصوم.

ونلاحظ أن هذه الممارسات الثلاث تشتمل على الاتجاهات المختلفة للبر، وتعتبر صوراً

* وهى ترد هكذا فى الترجمة اليسوعية والترجمة التفسيرية.

لكافة أشكال البر الأخرى: فالصدقة صورة لكل أعمال البر من نحو الناس، والصلاة صورة لكل أعمال البر من نحو الله، والصوم صورة للبر من نحو النفس. فالمسيحى له توجه نحو النفس ونحو الآخرين ونحو الله، وهذا ما ذكره الرسول بولس فى تيطس٢: ١٢ أن نعيش بالتعقل (من نحو نفوسنا) والبر (من نحو الآخرين) والتقوى (من نحو الله). هكذا هنا أيضاً، فهذه الممارسات الثلاث تشتمل على صور لعلاقات الإنسان فى الدوائر المختلفة: فهناك اتجاه أفقى إلى الناس، واتجاه رأسى إلى الله، واتجاه داخلى إلى النفس. أو بالحرى هناك شركة مع الناس فى ممتلكاتى، وتوجه إلى الله بصلاتى، وانفراد مع النفس فى إذلال جسدى.

هذه الممارسات الثلاث؛ الصدقة والصلاة والصوم مُعتبرة فى كل العبادات والديانات فى العالم أنها أركان أساسية توصل الانسان إلى جنة الخلد*، كما يقولون، وتعطيه فيها مكاناً ومكانة، إلا أن المسيح هنا يعلم تلاميذه فى أشهر موعظة فى التاريخ أن مجرد ممارسة هذه الأعمال الدينية ليس لها أدنى قيمة فى نظر الله، بل المهم حقاً الروح التى بها نمارس هذه الأعمال، وكيف نمارسها.

يرانا الناس أم لا يروننا؟

فى الأصحاح السابق قال المسيح «فليضئ نوركم هكذا قدام الناس لكى يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذى فى السماوات» (٥: ١٦). بينما فى هذا الأصحاح قال «احترزوا من أن تصنعوا (بركم) قدام الناس لكى ينظروكم، وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السماوات» (٦: ١). الآيتان تتحدثان عن ممارسة الأعمال الصالحة قدام الناس، وعن رؤية الناس لهذه الأعمال الصالحة، لكن بينما أكدت الآية الأولى أهمية ذلك وضرورته، فإن الآية الثانية نهتنا عنه وحذرتنا منه، فكيف نوفق بين الفكرين؟

والإجابة على هذا السؤال ليست عسيرة إذا فهمنا كلاًمن الآيتين على حدتها، فالرب كان يحذر سامعيه، ونحن من ورائهم، من خطيتين مختلفتين، فهو فى الآية الأولى حذرنا من خطية الجبن وخطر التراجع، الأمر الذى يقود إلى كتمان الشهادة، فقال «ليضئ نوركم هكذا قدام الناس» بينما فى الآية الثانية حذرنا من الإعجاب بالذات وحب مدح الآخرين، فقال «احترزوا من أن تصنعوا (بركم) قدام الناس لكى ينظروكم». ونتيجة رؤية الناس لأعمالنا

* البابا ليو الكبير أعلن أنه: بالصلاة نحن نسترضى الله، وبالصوم نلاشى شهوة الجسد، وبالصدقة نكفر عن خطايانا[٢٥](!!)

بحسب الآية الأولى أن يتمجد الآب، بينما خطورة رؤية الناس لأعمالنا فى الآية الثانية أن نتمجد نحن.

والمؤمن التقى لا يهمه غير مجد الله (١٦:٥) ولا يبغى سوى مدحه (١:٦). ولقد عبَّر حسناً عن هذا التباين الظاهرى واحد بالقول[٢٦]: إن الرب يحرضنا على الإعلان عندما يكون الخطر هو الكتمان، ويحرضنا أن نختفى عندما يكون الخطر أن نشتهر. دعنا إذاً فى أعمالنا نكون واضحين ظاهرين، وفى عبادتنا وتديننا نكون مستترين متواضعين.

ذكر أحدهم[٢٧] هذا المبدأ: إننا لو تذكرنا نحن، فإن الله سينسى، وإذا نسينا فإنه سيتذكر. لذا دعنا نسعى فى عمل الخير بلا فشل ولا ملل، تاركين مسألة تسجيل هذه الأعمال للذى «كُتب أمامه سفر تذكرة للذين اتقوا الرب وللمفكرين فى اسمه» (ملا٣:١٦).

ضربة القلب

إن ضربة القلب البشرى العميقة هى شغفه بمدح الناس له، واهتمامه برأيهم فيه، إلى الدرجة التى تجعل حتى أقدس ممارساتنا تختلط أحياناً بفساد طبيعتنا الشريرة. والرب الذى يعرف تماماً ضربة قلوبنا، والذى يميِّز «أفكار القلب ونيّاته»، حذرنا هنا من هذه الأمور التى قد تجعل ممارستنا لأعمال البر لا شيئاً باطلاً عديم القيمة فحسب، بل شريراً ومكروهاً أيضاً (إش١:١٢-١٧، ٦٥:٢-٤، ٦٦:٢-٤،...) ونحن جميعاً عُرضة لهذا الخطأ وهذا الخطر.

وفى مناسبة أخرى قال الرب للفريسيين «أنتم الذين تبررون أنفسكم قدام الناس، ولكن الله يعرف قلوبكم، إن المُستعلى عند الناس هو رجس قدام الله» (لو١٦:١٥). وفى موعظة أخرى للرب هى موعظة الويلات الشهيرة (مت٢٣) ألقى المسيح مزيداً من الضوء على ضربة القلب البشرى هذه حينما قال عن الفريسيين «كل أعمالهم يعملونها لكى تنظرهم الناس» هكذا إلى هذا الحد!!

وكم عطل هذا الأمر الناس على مر العصور. يقول يوحنا فى بشارته إن كثيراً من الرؤساء آمن بالمسيح، غير أنهم لسبب الفريسيين لم يعترفوا به. ويعلق على ذلك بالقول «لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله». ولقد أوضح المسيح أن هذا الأمر معطل خطير للإيمان به إذ قال لليهود «كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض، والمجد الذى من الإله الواحد لستم تطلبونه» (يو١٢:٤٢، ٤٣، ٥:٤٤).

طبعاً نحن لا نبخس ممارسات البر المذكورة هنا حقها، ولا نقلل من جمالها. والمسيح لم يقصد أن يلغى أهميتها على الإطلاق. لاحظ أن المسيح لم يَقُل: إذا صنعت صدقة، ولا إذا صليت، ولا إذا صمت، بل إنه يقول متى صنعت صدقة، ومتى صليت، ومتى صمت. فهو بداية يفترض فى أتباعه أنهم لن يهملوا ممارسة هذه الأشياء، لكنه يؤكد هنا أن ممارسة هذه الأشياء الحسنة، إذا كان بدافع غير مقدس فلا قيمة لها؛ بمعنى أنه إذا كان غرضك أن يراك الناس وأنت تتصدق أو تصلى أو تصوم، وبالتالى تنال مديحهم وثناءهم، فقد فقدت هذه الأشياء الجميلة قيمتها تماماً!! ولهذا فقد سلك المسيح فى علاجه لهذه المسألة فى بقية الأعداد من٢ إلى ١٨ على نمط واحد كما يلى:

١ - تحذير من ممارسات المرائين وطريقتهم.

٢ - التأكيد أنهم قد استوفوا أجرهم.

٣ - كيفية ممارسة البر الصحيحة.

٤ - أخيراً ستأتى المكافأة من الآب.

وهو ما سنراه عندما ندرس صور البر الثلاث بالتفصيل.

٢٤

المسيحى والصدقة

"فمتى صنعت صدقة فلا تصوّت قدامك بالبوق كما يفعل المراؤون فى المجامع وفى الأزقة لكى يمجدوا من الناس. الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم. وأما أنت فمتى صنعت صدقة فلا تعرف شمالك ماتفعل يمينك، لكى تكون صدقتك فى الخفاء. فأبوك الذى يرى فى الخفاء هو يُجازيك علانية"

(مت ٦: ٢-٤).

يبدأ الرب فى الأعداد الثلاثة (ع٢-٤) من الأصحاح السادس بالحديث عن أول أعمال البر وهو الصدقة. وكثيرة هى الآيات الكتابية التى تؤكد على أهمية هذا الأمر سواء فى العهد القديم أو الجديد. فيقول الله فى الناموس «لأنه لا تفقد الفقراء من الأرض، لذلك أنا أوصيك قائلاً افتح يدك لأخيك المسكين والفقير فى أرضك» (تث١٥: ١١).

ولقد كان أيوب نموذجاً جميلاً لهذا النوع من البر العملى فنسمعه يقول «لأنى أنقذت المسكين المستغيث واليتيم ولا معين له. بركة الهالك حلّت علىَّ وجعلت قلب الأرملة يُسرّ. لبست البر فكسانى.. أب أنا للفقراء..» (أى٢٩: ١٢-١٦).

ويقول الحكيم فى سفر الأمثال «من يرحم الفقير يقرض الرب وعن معروفه يجازيه» (أم١٩: ١٧) وأيضاً «الصالح العين هو يبارك لأنه يعطى من خبزه للفقير» (أم٢٢: ٩) وأيضاً «من يعطى الفقير لا يحتاج، ولمن يحجب عنه عينيه لعنات كثيرة» (أم٢٨: ٢٧).

وهناك آية مهمة وردت فى سفر المزامير عن هذا الموضوع الهام واقتبست فى العهد الجديد

يقول فيها المرنم «فرَّق. أعطى المساكين. بره قائم إلى الأبد» (مز١١٢: ٩؛ ٢كو٩: ٩) وفى العهد الجديد تَرِد التحريضات الكثيرة عن هذا الأمر الهام؛ ففى رسالة غلاطية يقول الرسول «فإذاً حسبما لنا فرصة فلنعمل الخير للجميع ولا سيما لأهل الإيمان» (غل٦: ١٠). والرسول يعقوب يوضح أن هذه هى الديانة الطاهرة النقية عند الله الآب، وأنه بدون ذلك لا يكون الإيمان حياً (يع١: ٢٧، ٢: ١٥-١٧). والرسول يوحنا يوضح أن محبة الله لا تثبت فى شخص يغلق أحشاءه عن الأخ المحتاج (١يو٣: ١٧، ١٨).

ولحكمة وضع المسيح الصدقة فى مقدمة أعمال البر، لأنها عُرضة أكثر من غيرها لأن تُنسى. ألا نلاحظ كيف كرر الرسول كلمة «لا تنسوا» فى عبرانيين١٣؛ وعن أى شىء قال «لا تنسوا»؟ هل عن التمثل بمرشدينا، أو عن ذبيحة التسبيح؟ كلا، بل «لا تنسوا **إضافة الغرباء**»، ثم «لا تنسوا **فعل الخير والتوزيع** لأنه بذبائح مثل هذه يُسرُّ الله» (عب١٣: ٢، ١٦)

السرية وأهميتها

يوضح الرب فى هذه الأقوال كيف نعمل صدقتنا. فيقول الرب له المجد «فمتى صنعت صدقة فلا تصوِّت قدامك بالبوق كما يفعل المراؤون فى المجامع وفى الأزقة لكى يمجدوا من الناس. الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم».

وعبارة «لا تُصوِّت قدامك بالبوق» هى عبارة مجازية تصويرية، أو بلغتنا العصرية هى تعبير كاريكاتورى. شبهها أحدهم بأن تقف مُمسكاً بجنيه تعطيه بيد، والبوق بيدك الأخرى لتعلن به عن العطية التى قدمتها! وقصد الرب من تحذيره هنا هو ألا تحاول جذب الأنظار إليك وإلى ما تفعل. ويالها من كلمات فاحصة لقلوبنا جميعاً، فكم أسرعنا مرات أن نعمل أعمالنا الحسنة لأن الناس يروننا، فإذا لم يكن إنسان ليرانا فإننا لا نفعل!

يقول المسيح إن أمثال هؤلاء الذين لا يعنيهم فى الأمر سوى أن يُمجَّدوا من الناس قد استوفوا أجرهم، وكان هذا الأجر هو إعجاب الناس بهم، ومديح الآخرين لهم. أما الرسول بولس فكان على النقيض من ذلك إذ قال «أما أنا فأقل شئ عندى أن يُحكم فىَّ منكم أو من يوم بشر» (١كو٤: ٣).

المراؤون

والمراؤون فى انجيل متى ثلاثة أنواع؛ نوع أشار إليه البشير فى متى٢٢: ١٦-١٨، وهم

أولئك الذين أتوا ليجربوا الرب. وغنى عن البيان أن هؤلاء المرائين يعرفون فى أعماقهم أنهم مراؤون حتى ولو أمكنهم خداع بعض البشر.

وهناك نوع آخر من المرائين مذكور فى متى٧: ٣-٥ هم أولئك الذين يضخمون عيوب الآخرين، بينما يصغّرون عيوبهم أو قد يتعامون عنها نهائياً. وأمثال هؤلاء نقابلهم كثيراً، ونعجب من ازدواج المعايير لديهم عندما يكون الأمر يخصهم أو يخص مَنْ له شأن بهم، وعندما يكون الأمر يخص الآخرين!

أما النوع الأخير فهو الذى أشار إليه الرب هنا، وهو بلا شك أخطر هؤلاء المرائين جميعاً، فهذا النوع يعمل الخير مع الآخرين، هو يتصدق على المحتاجين أو يصلى ويصوم. لدرجة أننا جميعاً عُرضة لأن نعجب به، تماماً كما يُعجب هو بنفسه. لقد نال الشكر وعاطر الثناء من الذين عطف عليهم وتعاطف معهم، لكن ماذا هو فى نظر الله؟!

إن أول خطية دخلت الكنيسة لم تكن بعيدة عن هذه الخطية التى يذكرها الرب هنا، فلقد باع حنانيا وزوجته الحقل، لكن ليس بدافع حب العطاء، بل بدافع حب الظهور، وليس رفقاً بالفقراء، بل للتظاهر بأنهما من الأسخياء (أع٥)!

والكلمة مرائى فى اللغة اليونانية التى كُتب بها العهد الجديد تعنى ممثل. فالمرائى المتظاهر بالتقوى لكنه مُنكر لقوتها إنما هو يمثل دور التقى ليس إلا. إنه يعتبر كل العالم مسرحاً، وهو يقوم بالتمثيل فيه، إنه لا يظهر قط فى شخصيته الحقيقية بل المصطنعة، إنه يرتدى قناعاً يخفى تحته شخصيته الحقيقية. مع هذا الفارق الجوهرى بينه وبين الممثل؛ فالممثل على المسرح لا خطورة منه، فكل الناس تعرف أنه مجرد ممثل، أما المرائى فإنه يحاول أن يخدع الناس وذلك بالظهور أمامهم وهو يمارس صور العبادة المختلفة من صدقة (ع٢) أو صلاة (ع٥) أو صوم (ع١٦).

لا تعرّف شمالك ما تفعل يمينك

لقد استخدم الرب فى هذا الجزء صورتين مجازيتين ليوضح لنا فكره؛ أولاً: التصويت بالبوق، للكناية عن المشغولية بجذب أنظار الناس، لكنه يستطرد إلى ما هو أبعد وأعمق من ذلك فيقول ما معناه: ليس فقط لا تعلن عملك للآخرين، بل أيضاً لا تعلنه لنفسك. وكأنه، له المجد، بعد أن حذرنا من السعى إلى توال مديح الناس، يحذرنا أيضاً من الإعجاب بالذات فيقول «وأما أنت فمتى صنعت صدقة فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك لكى تكون صدقتك فى الخفاء».

والشمال واليمين لهما بالاضافة إلى معناهما المباشر الظاهرى معنى أبعد. فاليد اليمين هى العضو الذى به نعمل الأعمال، أما الشمال فهو مكان القلب. فالرب إذ يقول لا تعرّف شمالك ما تفعل يمينك، كأنه يقول لنا: لا تدع قلبك يعجب بما تفعل. فهناك أشخاص، مع أنهم لا يعملون برهم أمام الناس، ليمدحهم الغير، إلا أنك تجدهم، بينهم وبين أنفسهم، مُعجبين بما فعلوا. ويخبرنا الكتاب المقدس عن واحد من هؤلاء هو عوبديا الذى على قصر آخاب. لقد عمل الخير فى الخفاء مع أنبياء الرب، ويبدو أنه كثيراً ما عرفت شماله ما فعلت يمينه، فإنه ما أن التقى بإيليا رجل الله حتى قال له «ألم يُخبَر سيدى بما فعلت حين قتلت إيزابل أنبياء الرب، إذ خبأت من أنبياء الرب مئة رجل.. وعُلتهم بخبز وماء» (١مل١٨: ١٣).

لكن الرب يقول هنا لا تدع الناس ينشغلون بما فعلت، ولا تنشغل أنت به، بل لتكن صدقتك فى الخفاء فتبرهن بذلك على أنها بدافع شفقة حقيقية على النفوس المحتاجة، ورغبة مُخلصة لإرضاء الله وحده.

أبوك يجازيك

فى هذه الأعداد القليلة يذكر خبير القلوب ثلاثة توجهات مختلفة للإنسان فى عمل الصدقة:

١ - مدح الناس (ع٢)

٢ - الإعجاب بالذات (ع٣)

٣ - رضى وسرور الآب (ع٤)

إن الذين كان مقصدهم من العطاء الحصول على مدح الناس قد نالوه، ومثلهم أيضاً الذين كانوا مُعجبين بذواتهم، لقد كان هذا هو كل نصيبهم، مساكين هم، فإنهم لا يفرقون كثيراً عن الحية التى «التراب طعامها». فهل تريد أنت أن يكون نصيبك فى حطام هذا العالم الزائل، أم أنك تريد أن يكون نصيبك شيئاً أفضل، وفى مجال أعظم وأمجد؟ إن كان عملك دافعه مجد الله فلقد رأى هو عملك، وكُتب أمامه سفر تذكرة، ولابد أن يجازيك.

لا تدع الناس يعرفون ما عملت، وأيضاً لا تُعرِّف شمالك ما فعلت يمينك، وانس أنت ما فعلت، لكن الله لن ينسى «لأن الله ليس بظالم حتى ينسى عملكم وتعب المحبة التى أظهرتموها نحو اسمه، إذ قد خدمتم القديسين وتخدمونهم» (عب٦: ١٠). ومادام هو لن ينسى فحبذا لو نسينا نحن. إننى أعتقد أننا سننال المكافأة فى ذلك اليوم على ما عملناه

حباً فى الرب، ثم لم ننشغل به، بل ونسيناه، إذ أن قلبنا لم يكن على العمل نفسه بل على الرب. ألا يُجيب الأبرار الملك قائلين «يارب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك أو عطشاناً فسقيناك. ومتى رأيناك غريباً فآويناك أو عرياناً فكسوناك. ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك» (مت٢٥: ٣٧-٣٩). نعم يا سيدنا أعنا لنخدم بدافع المحبة والولاء لك، وشعارنا: ينبغى أنك أنت تزيد، وأننا نحن ننقص.

يقول المسيح «فأبوك الذى يرى فى الخفاء هو يجازيك» ونلاحظ أن كلمة «علانية» التى وردت فى آخر هذه الآية* لم تَرِد فى أدق النسخ وأصحها. فالمقابلة هنا ليست بين الصدقة التى فى الخفاء والـمُجازاة التى فى العَلَن، بل هى بين البشر الذين لا يرون ولا يجازون، وبين الله الذى يرى ويجازى.

ألا ليتنا نعيش دائماً فى ضوء هذه الحقيقة المباركة أن الله يرى كل ما نعمله، وأنه عن قريب سيُحضر كل عمل إلى الدينونة على كل خفى إن كان خيراً أو شراً (جا١٢: ١٤). وعليه فلنحترص أن نكون مرضيين عنده «لأنه لابد أننا جميعاً نُظهر أمام كرسى المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شراً» (٢كو٥: ٩، ١٠). وعندما يأتى الرب فإنه «سينير خفايا الظلام ويُظهر آراء القلوب وحينئذ يكون المدح لكل واحد من الله» (١كو٤: ٥).

* ومثلها أيضاً ع٦، ١٨ بالارتباط بالصلاة والصوم.

٢٥

المسيحى والصلاة

"ومتى صليت فلا تكن كالمرائين فإنهم يحبون أن يصلوا قائمين فى المجامع وفى زوايا الشوارع لكى يظهروا للناس. الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم. وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك واغلق بابك وصل إلى أبيك الذى فى الخفاء. فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك (علانية) . وحينما تصلون لا تكرروا الكلام باطلاً كالأمم، فإنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يُستجاب لهم. فلا تتشبهوا بهم، لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه".

(مت ٦: ٥-٨)

الأصحاح السادس من البشارة بحسب متى هو كما فهمنا قبلاً، ينقسم إلى قسمين: القسم الأول من ع١-١٨ والقسم الثانى من ع١٩-٣٤. ويدور القسم الأول حول أعمال البر التى على تابعى المسيح أن يفعلوها وهى الصدقة والصلاة والصوم. ولقد تحدثنا فى الفصل السابق عن الصدقة (ع٢-٤) التى ترد فى المقدمة لأننا عُرضة لأن ننساها، ونبدأ الآن فى دراسة الجزئية الثانية وهى الصلاة (ع٥-١٥) والتى ترد فى المنتصف لأنها قلب كل صور البر، بل وقلب الحياة الروحية. والرب فى هذه الأعداد عالج ثلاثة أمور كالآتى:

١- مكان الصلاة (ع٥ ، ٦)

٢- كيفية الصلاة (ع٧ ، ٨)

٣- محتويات الصلاة (ع٩-١٣)

ثم تذييل (ع١٤، ١٥)

*أو بالحرى عالج الرب هنا هذه الأفكار الثلاثة: أين، وكيف، وماذا نصلى.

متى صليت

يبدأ الرب بالقول «ومتى صليت» وهذا معناه أن الرب يتوقع من تلميذه أن يصلى، فالصلاة هى أنفاس القديس. وكما يستحيل أن ترى كائناً حياً لا يتنفس، فإنه يستحيل أيضاً أن تجد قديساً لا يصلى. نحن لا نجد فى العهد القديم وصية بالصلاة، إلا أن كل رجال الله كانوا رجال صلاة. والمؤمن الحقيقى ليس فقط يشعر بحاجته إلى الصلاة لله، بل ويتلذذ أيضاً بها.

ونفس الأمر فى العهد الجديد، فعندما تقابل الرب مع شاول الطرسوسى وغيَّره، فإنه ما أن دخل إلى دمشق حتى بدأ يصلى، والرب طمأن حنانيا من جهته بالقول «هوذا يصلى» (أع٩:١١). ولنا أن نتساءل: ألم يكن شاول الفريسى يصلى قبل ذلك؟ ألا يخبرنا الكتاب المقدس أن الفريسيين مولعون بالصلاة، وأنهم يطيلون الصلاة (مت٢٣:١٤)؟ إذاً فلقد كان شاول وهو فريسى يصلى قبل أن يتقابل الرب معه ويغيِّره، فلماذا يقول الرب عنه هنا «هوذا يصلى»؟ ذلك لأن الفارق كبير بين صلاة وصلاة، بين أن تردد بشفاهك كلمات، وبين أن تسكب قلبك أمام الله. إن الفريسى المتدين قد يبرع فى الأولى، لكن المولود من الله وحده هو الذى يمارس الثانية. حقاً ما أبعد الفارق بين شخص ميت روحياً يتلو صلوات، ولو طالت، وبين صرخة نابعة من مولود فى الخليقة الجديدة، هى صرخة الاتكال والاعتماد يبعثها إلى مصدر ولادته؛ الله[٢٨].

المرائى المصلى

يقول الرب «ومتى صليت فلا تكن كالمرائين فإنهم يحبون أن يصلوا قائمين فى المجامع وفى زوايا الشوارع لكى يظهروا للناس. الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم».

والرب بلا شك كان يتحدث هنا عن الفريسيين (مت٢٣:٥). فإن الشر الذى يميزهم بصفة خاصة هو الرياء (لو١٢:١). يقول الرب عن هؤلاء المرائين إنهم يحبون أن يصلوا. ولو كانت العبارة انتهت هنا لكن ذلك شيئاً عظيماً. لكن العبارة التى تلت ذلك أظهرت

أنهم بالأسف لا يحبون الصلاة، ولا يحبون الله الذى إليه يصلون. إنهم لا يحبون سوى ذواتهم، ولهذا فإنهم يحبون أيضاً أن يراهم الناس وهم يصلون. إن أولئك المرائين، أصحاب الوجهين، يجيدون الجمع بين النقيضين؛ بين الصلاة التى هى تعبير عن الضعف والاعتماد على الله، وبين الكبرياء الذى يميزه الولع بمدح الناس. إنهم هم الذين لهم صورة التقوى ولكنهم منكرون قوتها.

ذلك المرائى يذكّرنا بالفريسى الذى صعد إلى الهيكل ليصلى فى المَثَل الذى قاله الرب فى لوقا١٨. هذا المَثَل يوضح أن ليس كل الذين يذهبون للصلاة هم نوع واحد بل نوعان. ولقد وقف هذا الفريسى يصلى فى نفسه هكذا: «اللهم أنا أشكرك أنى لست مثل باقى الناس؛ الخاطفين الظالمين الزناة، ولا مثل هذا العشار. أصوم مرتين فى الأسبوع وأعشر كل ما أقتنيه». هذا المصلى المرائى نزل إلى بيته وهو لم يستفد شيئاً من ذهابه للصلاة سوى أن الناس رأوه، وعرفوا أنه رجل متدين. وبهذا فقد استوفى أجره فى حياته.

يقول الرب «إنهم يحبون أن يصلوا قائمين فى المجامع وفى زوايا الشوارع لكى يظهروا للناس». وطبعاً ليس العيب هنا هو فى الصلاة وهم قائمون، أى واقفون. فالمسيح صلى واقفاً (يو١١) وطلب من تلاميذه أن يصلوا وهم وقوف (مر١١). ولا الخطأ هو أن تصلى أمام الناس، فالمسيح فعل ذلك مرات. بل إن الرسول بولس صلى على شاطئ البحر (أع٢١: ٥)، كما صلى فوق السفينة وسط الرجال الوثنيين (أع٢٧: ٣٥)، وعلّم أن يصلى الرجال فى كل مكان رافعين أيادى طاهرة (١تى٢: ٨). كلا، إن المشكلة ليست فى الصلاة أمام الناس بل فى أن أولئك المرائين يحبون أن يصلوا قائمين **لكى يظهروا للناس**. المشكلة هنا هى فى ميل القلب البشرى لأن يرانا الناس ونحن نصلى. فالمرائى يصلى إلى الله، لكن كل قلبه متجه نحو الناس، إنه يرفع عينيه نحو السماء وهو يتمنى أن كل إنسان يحوِّل نظره إليه كيما يراه وهو يصلى. إنه شغوف بأن يراه الناس، حريص أشد الحرص على نيل ثناءهم ومديحهم. وإن كان الإنسان الطبيعى شغوفاً بأن يعرف الناس عنه أنه يصلى حسناً، فإن التقى لا يسعى لذلك قط، بل إنه أيضاً ينزعج إذا حدث ذلك.

ادخل مخدعك واغلق بابك

يواصل الرب حديثه قائلاً «وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك واغلق بابك وصلِ إلى أبيك الذى فى الخفاء. فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك».

لقد فهمنا من تأملاتنا السابقة فى هذه الموعظة أن كلام المسيح فيها لا يُفهم دائماً بأسلوب حرفى. وأعتقد أن هذا ينطبق على هذه الأقوال أيضاً. فالمقصود بدخول المخدع هو أن تُبعد كل واحد من فكرك، ولا تنشغل إلا بأبيك الذى أنت فى حضرته. وغلق الباب خلفك يعنى أن تعزل فى الخارج كل مشغولية بأى شىء وبأى إنسان وتنفرد مع الله وحده لتسكب قلبك قدامه.

وفى العهد القديم ورد التحريض لشعب الله فى ظروف عصيبة «هلم يا شعبى ادخل مخادعك واغلق أبوابك خلفك. اختبئ نحو لحيظة حتى يعبر الغضب» (إش٢٦: ٢٠). وأعتقد إن هذا القول الكريم بالوحى كان فى فكر المسيح وهو يحرِّض تلاميذه بالدخول إلى المخدع وإغلاق الباب خلفهم ليصلُّوا إلى أبيهم الذى يرى فى الخفاء ويجازى. إن غلق الباب معناه أنك ما عُدت تتعامل مع المنظور بل مع غير المنظور. لكن ما قيمة الدخول إلى المخدع وغلق الباب خلفك، إذا كنت وأنت فى هذا المكان المستتر لا زلت تفكر فى الناس الذين لاحظوا دخولك المخدع لتصلى، وكيف أنهم سيعرفون أنك رجل صلاة؟!

ليس أن وجودك فى مخدع حرفى بلا قيمة، فلا شك أنه امتياز عظيم أن يتوفر لك هذا المكان الذى تتمتع فيه بالخلوة مع الله دون سواه. وإذا كان سجودنا يُسمَّى فى العهد الجديد الدخول إلى الأقداس، وإذا كانت صلاتنا تسمى الاقتراب إلى عرش النعمة، وهو بعينه كرسى الرحمة أو غطاء التابوت داخل قدس الأقداس، فكيف كان هذا المكان فى العهد القديم؟ لقد كان مكاناً معزولاً تماماً ومن كل الجهات عن العالم الخارجى. هكذا ينبغى أن يكون وضعنا ونحن نقترب من الله.

فحسن أن يكون لك خلوتك فى مكان بعيد عن الناس وعن الضوضاء؛ فى الحقل كاسحق، أو على سطح المنزل كبطرس، أو فى موضع خلاء أو فوق أحد الجبال كربنا يسوع المسيح (تك٢٤: ٦٣؛ أع١٠: ٩؛ لو٥: ١٦ ، ٦: ١٢،...) لكن يظل قصد الرب الحقيقى أبعد من مجرد الشكل الخالى من المضمون. إنه يهمه فى المقام الأول حالة القلب.

وبهذه المناسبة أقول إنه لازال حتى اليوم من يظن أن الصلاة لا تُسمع ولا تُستجاب إلا فى أماكن معينة. ولازال إلى اليوم مَنْ يعتبر أن أماكن العبادة هى التى ينطبق عليها قول الكتاب المقدس فى العهد القديم «بيتى بيت الصلاة يُدعى» (إش٥٦: ٧) متجاهلين تعليم العهد الجديد بأن «بيته نحن» (عب٣: ٦)، بل ومتجاهلين الإعلان العظيم الذى قاله الرب للمرأة السامرية «يا امرأة صدقينى إنه تأتى ساعة لا فى هذا الجبل ولا فى أورشليم تسجدون

للآب» (يو٤: ٢١). إن قول الرب هنا أن «ادخل إلى **مخدعك** واغلق بابك وصلِ» يوضح لنا أن هذا الفكر بعيد تماماً عن فكر الله.

ادخل إلى مخدعك إذاً وابعد الكل عن تفكيرك وأنت فى محضر الله. وثق أنك إذا أغلقت الباب خلفك سيفتح لك الله باب السماء فى وجهك. وإذا انشغلت به وحده سيصغى هو إليك. و«إن.. ألقيت التبر على التراب وذهب أوفير بين حصا الأودية.. حينئذ تتلذذ بالقدير وترفع إلى الله وجهك. تصلى له فيستمع لك» (أى٢٢: ٢٣-٢٧).

أبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك

ليس فقط الله يستمع إليك أينما كنت، بل إنه يستجيب لك كيفما كانت طلبتك. لقد صلى يونان من جوف الحوت، فقذفه الحوت إلى البر (يون١، ٢).

وصلى الملك حزقيا وهو على فراش الموت فأطال الله عمره (إش٣٨).

وصلى دانيال النبى فأتاه جبرائيل بأخبار السماء (دا ٩)

وصلى نحميا وهو واقف قدام الملك فأعطاه الرب نعمة فى عينيه (نح٢)

وصلى زكريا أبو يوحنا المعمدان طالباً زرع بشر فأعطاه الله أعظم المولودين من النساء (لو١).

وصلَّت الكنيسة فى بيت مريم لأجل بطرس ففتح الرب أبواب السجن وأنقذ بطرس من كل انتظار شعب اليهود (أع١٢).

وصلى بولس وسيلا وهما فى سجن فيلبى فانفتحت الأبواب وانفكت القيود وخلص السجان وجاء الفرج (أع١٦).

على أن المُجازاة العُظمى ليست هنا، بل سيأتى سريعاً اليوم الذى فيه نقف أمام كرسى المسيح، وسيلمع فى ذلك اليوم أبطال المخادع، وسنعرف قيمة تلك الخدمة الثمينة التى أعطاها الرب لكل شعبه رجالاً ونساء لكى يمارسوها. وما أمجد المكافآت من الرب لهذه الخدمة السرية التى لم يكن هدفها قط استجلاب رضى الناس واستحسانهم، ولا نيل مجدهم وثناءهم.

يومها سنعرف حقاً كم كان زهيداً بل عديم القيمة، الأجر الذى استوفاه المصلون المراؤون من الناس بالمقابلة مع مدح السيد وتقديره للأتقياء.

تكرار الكلام باطلاً

بعد أن حذّر الرب تلاميذه من خطأ يقع فيه المراؤون، فإنه تحدث فى ع٧، ٨ عن خطأ آخر فى الصلاة يقع فيه الوثنيون. فالمراؤون يحبون أن يظهروا للناس وهم يصلون، فجردوا الصلاة من سموها إذ أصبح الناس لا الله هدفها، وأما الأمم فهم فى صلواتهم يكررون الكلام باطلاً، فجردوا الصلاة من معناها، فما عاد عرض احتياجاتى على الله القدير هو المراد، بل مجرد تكرار كلام بقصد تكراره، ظناً منهم أنه بكثرة كلامهم يُستجاب لهم!

كان الرب قد حذر فى الأقوال التى تأملناها سابقاً من السعى وراء المجد الباطل، وها هو الآن يحذر من تكرار الكلام الباطل.

يقول الرب «وحينما تصلون لا تكرروا الكلام باطلاً كالأمم، فإنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يُستجاب لهم. فلا تتشبهوا بهم» (ع٧، ٨).

ليست المشكلة فى تكرار الكلام، بل إن تركيز الرب فى العبارة السابقة هو على كلمة «باطلاً»، أى أن المشكلة هى فى تكرار الكلام باطلاً. فلقد كرر المسيح صلاته فى بستان جثسيمانى ثلاث مرات (مت٢٦: ٣٩-٤٤) لكن الفارق كبير بين اللجاجة فى الصلاة، كما فعل المسيح فى البستان (لو٢٢: ٤٤) وكما فعل الرسول بولس عندما أعطاه الله شوكة فى الجسد (٢كو١٢: ٨) وبين تكرار الكلام، كما يفعل الأمم، لمجرد التكرار.

نتذكر مافعله أنبياء البعل فى أيام إيليا النبى؛ لقد أخذوا يرددون بصراخ عال، وبلا توقف لساعات، نفس العبارة «يا بعل أجبنا». ولماذا هذا التكرار؟ ولماذا كان صياحهم المرتفع؟ السبب هو أن آلهتهم لا تسمع. لكن ليس فقط فى أيام إيليا، بل هناك حتى اليوم أشخاص يتصايحون بتشنج، وآخرون يكررون كلمة بعينها أو عبارة معينة أو صلاة ما عشرات المرات، لأنهم يظنون أن زيادة المرات ستجعل الله يسمعهم أكثر، أو يسر بهم أكثر، أو يكفر عن بعض ذنوبهم وخطاياهم التى اقترفوها! لكن ما أبعد هذه الأفكار عن أفكار الله. يقول الرب «لأن أفكارى ليست أفكاركم ولا طرقكم طرقى يقول الرب. لأنه كما علت السماوات عن الأرض هكذا علت طرقى عن طرقكم وأفكارى عن أفكاركم» (إش٥٥: ٨، ٩).

أفكار وممارسات خاطئة

يستخدم البعض مايسمونه بالمسبحة لتكرار الصلوات المحفوظة عدداً معيناً من المرات، فتتحرك الأصابع وتتحرك الشفاه، والوعى غائب أو ربما شارد فيما هو أبعد ما يكون عن

الصلاة؛ فى شهوة أو نقمة أو طمع أو... ألا تنطبق على هؤلاء كلمات الرب بفم إشعياء النبى «هذا الشعب قد اقترب إلىَّ بفمه وأكرمنى بشفتيه وأما قلبه فأبعده عنى. وصارت مخافتهم منى وصية الناس مُعَلَّمَةً» (إش٢٩: ١٣).

وهل نستطرد ونذكر المطانيات وغيرها وغيرها؟ هل هذه تَمُت إلى المسيحية بأية صلة؟ وهل لها أدنى نصيب فى العبادة الصحيحة وفى السجود بالروح والحق؟

لكن دعنا نتحول إلى أنفسنا. ألسنا نحن أيضاً عُرضة للوقوع فى شَرَك التكرار الباطل؟ هناك من يحدد لنفسه زمناً معيناً ليصلى فيه؛ نصف ساعة مثلاً أو ساعة. ويبدأ فى الصلاة ولا يمر الوقت الذى حدده لنفسه، ويبدأ فى تكرار ماسبق أن قاله. هذا الأسلوب خطأ، وخَطَؤُه مزدوج. إن الصلاة ياأخى بعمقها تقيَّم وليس بطولها تُقاس. ثم لماذا تريد أن تظل فى محضر الرب مدة أطول؟ هل حباً فى الله أم حباً فى مديح الناس وهم يرونك وقد أخذت وقتاً طويلاً فى الصلاة؟

خُذْ مثلاً آخر من اجتماعات الصلاة. يقف الأخ الأول ويسرد قائمة طويلة من الطلبات، ويأتى الذى بعده فيكرر القائمة بعينها (قد يضيف شيئاً إليها أو يحذف شيئاً منها، لكنها فى مجملها ذات الصلاة التى قالها الأخ الأول) ثم يأتى الأخ الثالث ويفعل نفس الذى فعله أخواه السابقان، وهكذا يفعل كل المصلين من بعدهم. لماذا هذا التكرار؟ ألم يسمع الرب من الأخ الأول الذى طلب؟! أولم نشترك جميعنا ككنيسة فى كلمة «آمين» فى نهاية الصلاة معلنين تضامننا القلبى مع الأخ الذى طلبها؟!

الرب يصحح المفاهيم

إن الرب فى هذه العظة العظيمة لا يكتفى بأن يبين الخطأ فحسب، بل إنه يرشد أيضاً إلى الصواب. فلما تحدث عن عدم التمثل بالمتدينين المرائين الذين يحبون أن يظهروا للناس وهم يصلون، قال «أما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك واغلق بابك، وصلِ إلى أبيك الذى فى الخفاء». وهنا وهو يحذرنا من التشبه بالوثنيين فى تكرارهم الباطل للكلام قال لتلاميذه «إن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه.

قد يقول واحد: طالما أن الرب يعلم احتياجنا، فلماذا نطلب؟ لكن لاحظ أن المسيح لا يقول إن الله يعطينا احتياجنا دون أن نسأل، بل إنه يعلمها قبل أن نسأل.

لقد قال الرب هذا الكلام لكى يشجعنا على الصلاة لا لنكف عنها. ذلك أن الله حدد أن

تكون الطريقة لحصولنا على عطاياه، التى يعلمها هو جيداً، هى الصلاة (يع٤:١-٣). ثم إن الصلاة تجهزنا للاستخدام الصحيح لعطايا الله التى يهبها لنا كاستجابة لصلواتنا، كما تجهزنا بالنعمة التى تلزمنا إذا رأى الله فى حكمته ألا يعطينا ما طلبناه منه.

وبعد أن حذر الرب من الأسلوب الخطأ فى الصلاة، وبعد أن قدم الأسلوب الصحيح للصلاة، فإنه، باعتباره المعلم الأعظم، قدم أيضاً نموذجاً للصلاة، وهو بحق نموذج رائع. وسنتأمل فى هذه الصلاة النموذجية بنعمة الرب فى الفصل القادم.

٢٦

الصـلاة النموذجـية

"فصلوا أنتم هكذا. أبانا الذى فى السماوات. ليتقدس اسمك. ليأت ملكوتك. لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض. خبزنا كفافنا أعطنا اليوم. واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا. ولا تُدخلنا فى تجربة. لكن نجنا من الشرير. لأن لك الـمُلك والقوة والمجد إلى الأبد. آمين. فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوى. وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم"

(مت ٦: ٩-١٥)

هـذه الصلاة تُعتبر بحق الصلاة النموذجية وذلك لجملة اعتبارات هامة:

أولاً: نظراً لإيجازها وتركيزها؛ فهى، بحسب ترجمتنا العربية، تحتوى فقط على ٤٥ كلمة ولا يمكن اختصار كلمة واحدة منها.

ثانياً: نظراً لبساطتها وتحديدها: فهى تُعبر ببساطة، وبغير تعقيد عن حاجة القلب وحالته.

ثالثاً: نظراً لشمولها واتساعها: فهى تشمل كل العناصر والموضوعات الرئيسية فى الصلاة؛ من رغيف الخبز اليومى حتى ملكوت الآب فى السماوات الجديدة والأرض الجديدة.

رابعاً: نظراً لتسلسلها وترتيبها للموضوعات ترتيباً رائعاً وبديعاً، كما سنرى.

إنها حقاً صلاة عظيمة جداً، ولو أنه بالأسف قد أُسئ استخدامها. وسننشغل أولاً بالحديث عن نواحى عظمة هذه الصلاة، ثم نتأمل بعد ذلك فى نواحى اساءة استخدامها.

* * * *

تتكون هذه الصلاة من عشرة أجزاء. الجزء الأول هو استهلال الصلاة، يليه سبع طلبات، وتاسعاً يأتى ختام الصلاة ثم الجزء العاشر وهو كلمة «آمين».

أولاً: استهلال الصلاة

«أبانا الذى فى السماوات»

ما أعظم ذلك الإعلان الذى نطق به المسيح هنا لأول مرة. ففى العهد القديم كان المؤمنون يخاطبون الله باعتباره المولى (تك١٨: ٢٧، ٣٠، ٣١، ٣٢)، وباعتباره «رب الجنود» (١صم١: ١١)، وباعتباره «الرب إله السماء» (نح١: ٥). أما التعبير «أبانا» فلم يستخدمه أحد من القديسين على الإطلاق، حتى جاء المسيح وأعلن اسم الآب لنا كقوله لأبيه «أنا أظهرت اسمك للناس الذين أعطيتنى.. وعرّفتهم اسمك وسأعرفهم» (يو١٧: ٦، ٢٦).

وما أجمل أن نوجه الصلاة إلى الله باعتباره «الآب»، إذ قد دخلنا معه فى هذه العلاقة العجيبة السامية. فلفظة «أبانا» تفيد المحبة والصلاح، ثم إن عبارة «الذى فى السماوات» تفيد القوة والإمكانية؛ الرفعة والسلطان. فهو أب لا نظير لمحبته ولصلاحه، وإله لا حدود لقوته وإمكانياته.

نعم إلى الله باعتباره أبانا نحن نرفع صلواتنا. لا نرفعها إلى ملاك ولا إلى قديس. فهل، والحال هكذا هناك ثمة حاجة إلى تكرار ما نطلبه؟ أيمنع الآب خيراً عن أولاده؟! ثم إننا إذ نخاطب الله أبانا، فإننا نعرف أنه يسكن السماء «إن إلهنا فى السماء. كلما شاء صنع» (مز١١٥: ٣).

ونحن إذ نقترب إلى إلهنا هكذا فإننا نقترب إليه واثقين من محبته الأبوية، مقدرين لعظمته السماوية باعتباره فوق كل الخليقة، وكل الكون.

يلى هذا الاستهلال سبع طلبات (هى رقم الكمال) مقسمة إلى قسمين: الطلبات الثلاث الأولى تخص الله، والطلبات الأربع التالية خاصة باحتياجاتنا نحن. وهذا فى ذاته جميل؛ لأن الرقم ٣ فى الكتاب المقدس هو رقم الله، أما الرقم ٤ فهو رقم العالم والبرية وأعواز البشرية!

وهو درس لنا أن ننشغل بأمور الله أولاً، ثم بأمورنا نحن. تماماً كما كانت الوصايا العشر؛ ما يخص الله أسبق مما يخص الإنسان. فنحن لا نبدأ الصلاة بعرض طلباتنا أولاً، بل بتقديم العبادة لله.

الطلبات الخاصة بالله

وهى «ليتقدس اسمك. ليأتِ ملكوتك. لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض».

أولاً: «ليتقدس اسمك»:

والاسم كناية عن الشخص. فنحن نبدأ صلواتنا بتقديم التمجيد والتعظيم لاسم إلهنا الكريم.

ثانياً: «ليأتِ ملكوتك»:

فبعد أن نعلن السُبح لاسمه، نطلب بخصوص ملكوته؛ ملكوت الآب. وسوف يأتى هذا الملكوت عندما يظهر المسيح بالمجد والقوة للعالم، وسيظهر المؤمنون معه، ويضيئون معه كالشمس فى ملكوت أبيهم، فيملكون معه على الأرض ألف عام، تمهيداً للمُلك الأبدى.

ثالثاً: «لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض»:

فما لم يأتِ ملكوت الآب ستظل الأرض مُسلـَّمة ليد الشرير، وستظل ارادة الشيطان وإرادة الإنسان تفسدان الأرض. لكن لابد أن يأتى المسيح ليملك. وما أسعده عصراً عندما يملك المسيح فتنفذ مشيئة الله على الأرض تماماً كما هى الآن منفذة فى السماء. فنحن نعرف أن جند السماء يتصفون بالطاعة الكاملة لله «ملائكته المقتدرين قوة الفاعلين أمره عند سماع صوت كلامه» (مز١٠٣: ٢٠). أما على الأرض فيقول النبى وصفاً لأيامنا الشريرة هذه «يرحم المنافق ولا يتعلم العدل. فى أرض الاستقامة يصنع شراً ولا يرى جلال الرب» (إش٢٦: ١٠). لكن سيأتى وقت الفرج قريباً عندما يملك المسيح. ونفس النبى يقول «حينما تكون أحكامك فى الأرض يتعلم سكان المسكونة العدل» (إش٢٦: ٩).

لاحظ ترتيب الطلبات: فالمؤمن عندما يقول «ليأت ملكوتك» فهو يفعل ذلك لأنه سبق وطلب أن يتقدس اسم الله. وما الذى يمنع ذلك؟ ما الذى يمنع أن اسم الله العظيم يتقدس سوى أن الخطية قد ملكت، وأن الشيطان لازال يعربد فى الأرض؟ لهذا تبع طلبته الأولى «ليتقدس اسمك» بالقول «ليأتِ ملكوتك»، عندما يأتى هذا الملكوت، عندئذ ستكون

مشيئة الله متممة على الأرض تماماً كما هى متممة الآن فى السماء.

الطلبات الخاصة بالمصلى

بعد هذه الطلبات الثلاث التعبدية، تأتى الطلبات الأربع التالية وهى طلبات توسلية فيقول «خبزنا كفافنا أعطنا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا. ولا تُدخلنا فى تجربة، لكن نجنا من الشرير».

لقد كانت الطلبات السابقة مشغولة بالله أبينا، فاستخدم لذلك ضمير المخاطب ثلاث مرات: فيقول «اسمك، ملكوتك، مشيئتك». أما الطلبات الأربع التالية فهى تخصنا نحن، فيستخدم ضمير المتكلم خمس مرات فيقول: خبزنا، أعطنا، اغفر لنا، لا تُدخلنا، نجنا».

ثم لاحظ أن المصلى يتكلم بصيغة الجمع مُشركاً اخوته معه فى الصلاة ذاكراً إياهم أمام عرش النعمة. فلا توجد فى الصلاة أنانية.

الطلبة الأولى: «خبزنا كفافنا أعطنا اليوم»:

فالمؤمن يعتمد على الله حتى فى أعوازه الضرورية. وهذه الطلبة تمثل طلبنا لكافة الأعواز الخاصة بالجسد، أو إن شئت كافة الأعواز الزمنية. لكن لاحظ أنه لا يطلب شيئاً للترفيه والتنعم، بل يطلب الحاجة الضرورية فقط «خبزنا كفافنا». كما أنه لايطلب لكى يكنز، بل لاحتياج اليوم فحسب.

والطلبة الثانية: «واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا»:

ولأن الكلام فى هذه الصلاة موجه للآب، فالغفران المقصود هنا هو غفران الآب لأولاده ليتمتعوا برضاه الأبوى، وليس المقصود الغفران الأبدى الذى يحصل عليه المؤمن الحقيقى فور إيمانه القلبى بالمسيح كقول الرسول بطرس «له يشهد جميع الأنبياء أن كل من يؤمن به، ينال باسمه غفران الخطايا» (أع ١٠:٤٣).

والرب بعد أن ذكر هذه الصلاة النموذجية عاد من جديد لهذه النقطة بالذات نظراً لأهميتها إذ قال «فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوى. وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم» (ع١٤، ١٥). ثم عاد الرب ليؤكد على هذا المبدأ أيضاً فى مَثَل العبد الشرير الذى ذكره فى متى١٨: ٢١-٣٥ حيث ختم المَثَل بالقول «فهكذا أبى السماوى يفعل بكم إن لم تتركوا من قلوبكم كل واحد لأخيه زلاته».

فالمسيح لم يأتِ فقط ليصالح الانسان مع الله، بل ليصالحه أيضاً مع أخيه الإنسان.

والطلبة الثالثة: «لا تُدخلنا في تجربة»:

فكأن المؤمن بعد أن يطلب الغفران بالنسبة للماضي وأخطائه، فإنه يطلب النجاة بالنسبة للمستقبل وأخطاره، شعوراً منه بالضعف في ذاته.

والكتاب المقدس يحدثنا عن نوعين من التجارب، تجارب يأتي بها الله لامتحان إيماني، وعنها يقول الرسول يعقوب «احسبوه كل فرح يا إخوتي حينما تقعون في تجارب متنوعة» (يع١: ٢). ثم تجارب أخرى شريرة، وعن هذه يقول الرسول يعقوب أيضاً «لا يَقُل أحد إذا جُرِّب إني أُجرَّب من قِبَل الله، لأن الله غير مُجرَّب بالشرور وهو لا يجرب أحداً» (يع١: ١٣). فإذا فهمنا هذا يبقى السؤال: كيف يطلب المؤمن من الله أن لا يدخله في تجربة؟ عن أي من هذين النوعين يطلب المؤمن؟ فواضح أن النوع الأول لا يمكن أن يكون المقصود لأنه نوع يستلزم من المؤمن الشكر عليه إذا جاء، والنوع الآخر لا يمكن أن الله يأتي به للمؤمن أصلاً.

المعنى البسيط الذي يحل هذا الإشكال هو أن المؤمن يطلب من الله أن يحفظه من إرادته التي تضعه في مكان التجربة «لكن كل واحد يُجرَّب إذا انجذب وانخدع من شهوته» (يع١: ١٤). فيطلب المؤمن الحفظ من فخاخ وشراك العالم الكثيرة التي بدون حفظ الآب للمؤمن لا يمكنه بمفرده أن ينجو منها.

والطلبة الرابعة: «لكن نجنا من الشرير»:

والشرير هو الشيطان. فالمؤمن لا يشعر بضعفه فقط أمام التجربة فيطلب الإنقاذ منها، بل يعلم قسوة وشراسة العدو وأفكاره من نحو المؤمنين، فيطلب من الله أيضاً الانقاذ منه باعتباره مصدر الشرور. نعم إن الله قادر أن يحفظنا من الشر والتجربة، فإذا وقعنا فيهما فإنه قادر أن يُخرجنا وأن ينقذنا.

خاتمة الصلاة

وكما بدأت الصلاة بتمجيد الله، فإنها تُختم أيضاً بها، فيقول « **لأن لك المُلك والقوة والمجد إلى الأبد** ».

ثم تُختم الصلاة بالقول « **آمين** » وهي كلمة من أصل عبري تُستخدم في نهاية الصلاة بمعنى استجب أو ليكن كذلك. وفي العبادة في الكنيسة يتوقع الرسول أن كل الحاضرين في

الاجتماع ينطقون بها فى آخر الصلاة أو الشكر، حتى العامى وغير المؤمن أيضاً (١كو١٤:١٦)، فكم بالأحرى ينبغى أن ينطق بها جميع الإخوة والأخوات «ويقول جميع الشعب آمين» (تث٢٧:١٥-٢٦).

حقا إنها صلاة نموذجية عظيمة أعطاها المسيح لنا لننسج صلواتنا على منوالها.

* * * *

أفكار وممارسات خاطئة

اعتاد المسيحيون أن يسموا هذه الصلاة بالصلاة الربانية. لكن واضح أن هذه الصلاة لا يمكن أن تصدر عن المسيح إذ أنها تتضمن عبارات لا يمكن للمسيح أن يقولها عن نفسه مثل عبارة «اغفر لنا ذنوبنا». وعليه فالتسمية الدقيقة لهذه الصلاة، هى الصلاة النموذجية أو الصلاة التى علمها الرب لتلاميذه لا الصلاة الربانية، أما الصلاة الربانية بحق فهى تلك الواردة فى يوحنا ١٧.

وهناك كثيرون من المسيحيين تعلموا هذه الصلاة من طفولتهم كيما يرددونها فى كل المناسبات. بل البعض تطرف فى ذلك إذ يظن أن مجرد تكرار هذه الصلاة فى حد ذاته يجلب لهم البركة فى الحياة الدنيا والآخرة؛ مجرد التكرار الآلى لعبارات هذه الصلاة يجلب معه البركة. هكذا يظن الكثيرون فى المسيحية الاسمية.

والآخرون يستخدمون هذه الصلاة فى أية مناسبة وفى كل مناسبة. ففى داخل اجتماعات الكنيسة يقولونها فى الجنازات أو الأفراح، فى فرص المعمودية أو العشاء الربانى، فى حفلات التنصيب للوظائف الكنسية أو حفلات الوداع!

وفى الممارسات الفردية يقولونها فى المرض أو الألم، يرددونها على الطعام وقبل قيامهم بأى عمل هام، يذكرونها فى الصباح وفى المساء. وعند مواجهتهم لأى خطر من الأخطار تجدهم يكررون هذه الصلاة وكأن كلماتها محمَّلة بقوة معجزية تعمل الأعاجيب. إنها باختصار فى مفهومهم تشفى من المرض، وتنجى من الخطر، وتجلب السعادة، والبركة لا تأتى إلا بواسطتها!!

والبعض الآخر يعتقد أن تكرارها عدداً معيناً من المرات يكفر عن الذنوب والخطايا. هكذا إلى هذا الحد يصل التفكير فى بعض الأحيان!

لكن هذه الممارسات كلها خاطئة وبعيدة تماماً عن روح المسيحية، وليس لها أى نصيب

فى العبادة بالروح والحق، ولا يوجد لها أدنى سند فى أسفار العهد الجديد كما سنرى بأكثر تفصيل بعد قليل.

خلفية إعطاء هذه الصلاة

إن هذه الصلاة كما قلنا هى صلاة نموذجية أعطاها الرب لتلاميذه لتكون نموذجاً للصلاة؛ مجرد نموذج، ومع أنه نموذج رائع جداً، لكن لم يكن القصد منه أبداً أن يكون قطعة من المحفوظات لترددە الجماهير مجتمعين أو فرادى.

لم يقصد الرب أن تلاميذه يرددون هذه الصلاة للأسباب التالية:

١- فى متى٦: لم يقل المسيح "صلّوا هذه الكلمات"، بل يقول «صلّوا أنتم هكذا»، أى على هذا المنوال «*Pray, then, in this way*».

٢- فى لوقا ١١: كان سؤال التلاميذ ليس "علمنا صلاة"، بل «علمنا أن نصلى»، «*Teach us how to pray*».

٣- اقترنت الصلاة بتحذير الرب من تكرار الكلام باطلاً، فالقرينة ليس أن نردد كلمات بعينها، بل ألا نكرر الكلام.

٤- لم يرد فى كل العهد الجديد إشارة إلى أنها كانت تردد بأسلوب طقسى روتينى ميكانيكى، لا هذه الصلاة ولا أية صلاة أخرى محفوظة. فترديد صلوات محفوظة غريب عن تعليم العهد الجديد، بل وتعليم الكتاب المقدس.

وأضيف أيضاً أن نموذج الصلاة هذا أُعطى لتلاميذ المسيح وقت أن كانوا لا يزالون يعيشون فى جو يهودى. فالمسيحية، كما نعلم، بدأت يوم الخمسين، يوم أعطى الروح القدس ليسكن فى قلوب المؤمنين، بعد أن تمجد المسيح فى السماء. هذا الأمر الذى لم يدرك الكثيرون مدلوله العظيم ومعناه، فاعتبروا المسيحية مجرد امتداد لليهودية، وكأنهم بذلك وضعوا رقعة من ثوب جديد على ثوب عتيق (لو٥: ٣٦).

لقد قال المسيح لتلاميذه، قبل أن يترك العالم عن طريق الصليب، مفتتحاً بذلك عصراً جديداً؛ هو عصر الكنيسة، قال: «فى ذلك اليوم لا تسألوننى شيئاً. الحق الحق أقول لكم إن كل ماطلبتم من الآب باسمى يعطيكم. **إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمى**، اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً» (يو١٦: ٢٣، ٢٤). وهذا يدل على أن هذه الصلاة التى علّمها المسيح لتلاميذه ليست صلاة فى اسم المسيح.

والآن ماذا يعنى أن نصلى فى اسم المسيح؟ أهو مجرد أن نختم صلواتنا للآب بالقول «فى اسم المسيح أجبنا»؟ طبعاً ليس هذا هو المعنى المقصود. فعندما مات المسيح وقام (وليس قبل ذلك) فقد أعطى المؤمنين به نفس مركزه أمام الله. وعليه فأن نصلى فى اسم المسيح يعنى أن نطلب من الآب ونحن فى ملء اليقين بأن لنا نفس مركز المسيح أمام الآب، وأنه يحبنا كما أحبه.

كلام بداءة المسيح

فى الرسالة إلى العبرانيين ٦ قال الرسول بولس «لذلك ونحن تاركون كلام بداءة المسيح لنتقدم إلى الكمال». تُرى ما هو كلام بداءة المسيح؟ إنه يعنى أنه فى أيام يوحنا المعمدان، ثم بعد ذلك فى كرازة الرب يسوع نفسه لليهود قائلاً «توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات»، قدم لليهود، كما يعرف ذلك جيداً العبرانيون الذين إليهم وجهت الرسالة، كلام بداءة المسيح. إن التعاليم التى قيلت عن المسيح، بل وتعاليم المسيح نفسها فى تلك الفترة، هى كلام بداءة المسيح. والرسول لا يقول طبعاً إن هذا الكلام كان خطأ، فهو صواب ويظل كذلك دائماً. بل يعتبره كلاماً بدائياً، إذ لم يكن الكمال قد أُعلن بعد.

وهذا الكمال أشار إليه المسيح نفسه بعد ذلك فى كلامه للتلاميذ فى آخر يوم له معهم لما كان على الأرض بالقول «إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك؛ روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (يو١٦:١٢، ١٣). وبعد هذه الأقوال قال المسيح «فى ذلك اليوم (أى يوم الروح القدس الذى نحن نعيشه الآن) لا تسألوننى شيئاً. الحق الحق أقول لكم إن كل ما طلبتم من الآب باسمى يعطيكم. إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمى. اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً» (يو١٦:٢٣، ٢٤).

فحتى الصليب، كانت صلوات القديسين مختلفة تماماً عما صارته بعد موت المسيح وقيامته وصعوده، ثم مجىء الروح القدس يوم الخمسين. فليس فقط لم يكن للمؤمنين نفس علاقة المسيح أمام الله، بل أيضاً لم تكن صلواتهم فى الروح القدس، لكنها كذلك الآن نظراً لسُكنى الروح القدس فى قلوبنا (يه٢٠)، فتم بذلك وضع المؤمنين فى مركز جديد عجيب «فى ذلك اليوم تعلمون أنى أنا فى أبى وأنتم فىَّ وأنا فيكم» (يو١٤:٢٠) ونظراً لهذا المركز العجيب، نحن نطلب من الآب فى الروح القدس باسم المسيح!

لذلك فلعله من المُلاحظ أن هذه الصلاة لم تُستخدم ولا مرة واحدة فى سفر الأعمال، رغم الإشارات المتكررة إلى الكثير من الممارسات؛ مثل المعمودية وكسر الخبز، ورغم الإشارات

إلى اجتماعات ومناسبات عديدة للصلاة، ورغم أن كلاً من سفر الأعمال والرسائل ذكر لنا العديد من الصلوات، لكن رغم كل هذا فإنه لاتَرِد أدنى إشارة إلى هذه الصلاة.

من كل ما سبق نخلص إلى أن هذه الصلاة علمها المسيح لتلاميذه الذين كانوا لايزالوا يهوداً - لأن المسيحية بدأت من يوم الخمسين، يوم نزول الروح القدس من السماء ليسكن فى قلوب المؤمنين، بعد ارتفاع المسيح إلى السماء - وهو علـَّمها لهم لا لتكون قطعة محفوظات تُردد فى أية مناسبة، أو تُردد عدداً معيناً من المرات، فى الواقع هو أعطاها لهم لكى يعلمهم كيف يتحاشون التكرار الباطل، لا ليقودهم إليه. أليس عجيباً إذاً أن الرب الذى كان يعلم تلاميذه عدم تكرار الكلام فى الصلاة، ولذلك علـَّمهم هذه الصلاة النموذجية، صارت هذه الصلاة بعينها هى أكثر صلاة تُردد كما هى، سواء كان الوعى حاضراً أم غائباً، وسواء كان قائلها مولوداً من الله أم غير مولود!!

طبعاً لا تزال أجزاء من هذه الصلاة تناسبنا، كما سنرى بعد قليل، ولا بأس من استعمالها من هذا الجانب إذا قادنا الروح القدس إليه. أما أن نرددها بجملتها كقطعة محفوظات، وأما أن يرددها جميع الحاضرين فى الاجتماع سواء كانوا مولودين من الله أم غير مولودين، فلا يمكن للمسيحى الواعى لحقيقة مركزه الجديد الذى نتج عن موت المسيح وقيامته وصعوده إلى السماء ومجيء الروح القدس ليسكن فينا أن يوافق عليه.

إن الرسول بولس يوضح فى رومية ٨ أن المسيحى الحقيقى امتلك الروح القدس، وهو يعين ضعفاتنا فى الصلاة وأنه يشفع فينا بأنات لا يُنطق بها. وهذا معناه أننا نسلم قيادتنا للروح القدس الساكن فينا ليقودنا إلى طلب ما هو بحسب مشيئة الله فى حياتنا.

لقد كان المسيح فى أثناء وجوده مع التلاميذ يعين ضعفاتهم ويعلمهم ما يجب أن يصلوا لأجله. أما نحن الآن فقد نلنا وعد المسيح بإرسال معزياً آخر إلينا، وهذا المعزى يعين ضعفاتنا ويشفع فينا. نعم إنه فينا وليس فقط معنا كما كان المسيح لما كان هنا على الأرض، ولهذا فإنه يشفع فينا، ولهذا أيضاً نحن لا نستعمل صلوات محفوظة، بل نصلى بحسب ما يقودنا إليه الروح القدس الساكن فينا

مدى انطباق الكلام على الوقت الحاضر

والآن هيا بنا إلى ذات أقوال الصلاة لنرى إلى أى مدى تنطبق هذه الأقوال علينا فى الوقت الحاضر ونحن فى المركز الجديد العظيم؛ «الكمال»، الذى قال الرسول عنه فى الرسالة إلى العبرانيين أن نتقدم إليه، تاركين كلام بداءة المسيح (عب٦: ١).

أبانا الذى فى السماوات

لقد أحضرنا المسيح بفضل دمه إلى مركز القُرب العجيب من الآب، فيعرِّفنا الرسول بولس فى رسالته إلى أفسس، أننا الآن جالسون فى السماويات فى المسيح. وعليه فإن عبارة «أبانا الذى فى السماوات» لا تعطى التعبير الدقيق لهذا المركز. فهذه الصلاة - كما ذكرنا - أعطيت للتلاميذ وهم لازالوا يهوداً. تنطبق عليهم كلمات الحكيم «*لأن الله فى السماوات وأنت على الأرض*، فلذلك لتكن كلماتك قليلة» (جا٥:٢). أما المسيحى الذى هو الآن جالس فى السماوات، والذى صار له الحق بالدخول إلى الأقداس السماوية بدم يسوع، فإن له أسلوباً للكلام مختلفاً وتعبيراً أرقى. ففى نفس رسالة أفسس التى أعلن الرسول فيها مركز المؤمن السماوى، عندما صلى الرسول للآب قال «أحنى ركبتى ***لدى*** أبى ربنا يسوع المسيح» (أف٣:١٤).

أما العبارة بهذه الصورة فبالإضافة إلى أنها كانت تناسب التلاميذ فى وقتهم أيام وجود المسيح معهم على الأرض، فإنها أيضاً ستناسب البقية التقية من الشعب الأرضى فى المستقبل الذين رغم تعيير الأشرار لهم، سيكون لسان حالهم هو لغة المزمور «إن إلهنا فى السماء. كلما شاء صنع» (مز١١٥:٣).

ليتقدس اسمك

أشرنا فيما سبق أن هذه الطلبة تناسب المؤمنين فى كل زمان، فاسم الرب دائماً اسم مقدس ويليق به التقديس. لكن البقية فى فترة الضيقة العظيمة سيحسون بصفة خاصة بأهمية هذه الطلبة، ففى ذلك الوقت سيكون اسم الوحش وعدد اسمه موضوعين على كل شىء، ولا يقدر أحد أن يبيع أو يشترى إلا الذى له السمة أو اسم الوحش أو عدد اسمه (رؤ١٣:١٦-١٨). ولهذا سيصلى القديسون قائلين «ليتقدس اسمك»؛ ليَعلُ هذا الاسم المجيد، وليُحَطْ بما يليق به من إكرام وتوقير. وسيتوقون إلى الوقت الذى تعم فيه القداسة فى كل الأرض، ويكون حتى على أجراس الخيل «قدسٌ للرب» (زك١٤:٢٠، ٢١). وبينما الناس ستطبع اسم الوحش على جباههم، فإن تلك البقية الأمينة سيكون اسم الآب مكتوباً على جباههم (رؤ١٤:١).

ليأتِ ملكوتك

نحن طبعاً ننتظر الملكوت، إذ يقول الرسول بطرس «منتظرين وطالبين سرعة مجئ يوم (الله)» (٢بط٣:١٢)، ونشتاق بصفة خاصة إلى الملكوت فى دائرته السماوية «ملكوت

أبينا* ». نعم نحن ننتظر ذلك ونتمنى حدوثه، لكننا نعرف أن ذلك لن يتم قبل الاختطاف.

والآن هل الفتاة المخطوبة مثلاً تصلى إلى الله ليرزقها أولاداً؟ ألا تصلى أولاً ليتمم الرب زفافها وبعد ذلك يأتى دور المشغولية بالأولاد؟ هكذا الأمر معنا. فمع أننا ننتظر بصبر يوم يُكرم المسيح وتتم مشيئة الآب على الأرض. لكننا قبل ذلك ننتظر مجئ المسيح للاختطاف. وعليه فإن الطلبة التى تناسبنا نحن الآن هى ماورد فى آخر سفر الرؤيا «آمين تعال أيها الرب يسوع» (رؤ٢٢: ٢٠).

لقد كان الملكوت هو موضوع انتظار اليهود فى أيام المسيح (لو١٩: ١١)، متوافقاً مع ما أعلنه المعمدان ثم المسيح من بعده «توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات» (مت٣: ٢، ٤: ١٧). وماكان التلاميذ يومها يعرفون شيئاً عند صعود المسيح إلى السماء ووعده بالمجئ ثانية لأخذنا إليه كيما نكون كل حين مع الرب. وسيكون هذا الملكوت أيضاً موضوع انتظار البقية التقية بعد اختطاف الكنيسة، عندما يعود الرب ليتعامل مع بقية من شعبه الأرضى، وعندما تعود من جديد الكرازة ببشارة الملكوت (مت٢٤: ١٤). هذه البقية الأمينة عندما ترى رجسة الخراب التى تكلم عنها دانيال النبى فى المكان المقدس، وعندما يصلون لكى لا يكون هربهم فى شتاء ولا فى سبت (مت٢٤: ٢٠)، ساعتها سيصلّون هذه الصلاة «ليأتِ ملكوتك» لأنها ستناسبهم تماماً فى ذلك الوقت.

وطبعاً لا يمكن أن يكون المقصود من هذه الطلبة مايذهب إليه البعض أنه مُلك الله الأدبى وسيادته وسلطانه، فهذا قائم بالفعل من بدء الخليقة بدون توقف، ولا يحتاج منا أن نطلبه. فحتى فى أشد الأيام ظلاماً وظلماً قال دانيال إن «العلى متسلط فى مملكة الناس» وأيضاً «السماء سلطان» بل واعترف نبوخذنصر نفسه أن «العلى.. الحى إلى أبد الآبدين.. سلطانه سلطان أبدى وملكوته إلى دور فدور» (دا ٤: ٢٥، ٢٦، ٣٤). نعم إنه هو «ملك الدهور الذى لا يفنى ولا يُرى» (١تى١: ١٧).

والعجيب والـمُحيِّر فى نفس الوقت أن عدداً كبيراً ممن يطلبون هذه الطلبة ليل نهار، لا يريدون أن يؤمنوا بأن الـمُلك الحرفى سيأتى على الأرض إطلاقاً، ورغم ذلك فهم لا يكفّون عن ترديد الطلبة قائلين «ليأتِ ملكوتك»!!

أما نحن فكما ذكرنا آنفاً فإننا ننتظر الاختطاف، نعم نحن ننتظر الآن مجئ الرب لا يوم الرب، والفارق بين الاثنين كبير، فالأول هو رجاء الكنيسة، بينما الثانى هو رجاء إسرائيل

* إن كان البر هو طابع ملكوت الله، فإن النعمة ستكون طابع ملكوت الآب (كمدلول اسم الآب). وسيمتد ملكوت الآب ليصل إلى الأبدية عندما يسلّم ابن الإنسان الملك لله الآب (١كو١٥: ٢٤-٢٨).

والأرض (انظر ١تس٤: ٥). ثم بعد مجيء المسيح لاختطافنا، وبعد الضيقة العظيمة، لابد أن يأتى الملكوت العلنى على كل العالم.

لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض

مرة أخرى نقول: هل الشخص الـمُدرك لطبيعة الأيام التى نعيش فيها يمكن بوعى أن يطلب طلبة كهذه؟ هل ستتم مشيئة الآب على الأرض كما هى مُتممة فى السماء فى وقتنا الحاضر؟ ألا يقول الكتاب صريحاً إن الناس الأشرار المزورين سيتقدمون إلى أردأ مُضلِين ومُضَلين (٢تى٣: ١٣)؟ بل الكنيسة نفسها ألا يعلمنا الكتاب أنها تركت من البداية محبتها الأولى، وأنه عن قريب سيتقيأها المسيح من فمه (رؤ٢، ٣)؟!

متى سيتعلم سكان المسكونة العدل؟ هل فى فترة النعمة الحاضرة؟ ألا يقول النبى «يُرحم المنافق **ولا يتعلم العدل**؟» (إش٢٦: ١٠). نعم متى سيتعلم سكان المسكونة العدل؟ ليس فى فترة النعمة الحاضرة، بل فى فترة القوة المستقبلة. كقول النبى «حينما تكون أحكامك فى الأرض يتعلم سكان المسكونة العدل» (إش٢٦: ٩).

خبزنا كفافنا أعطنا اليوم

ذهب البعض أن المقصود بهذه الطلبة هو القوت الروحى. لكن واضح أن الرب كان يقصد القوت الجسدى لا الروحى. فالقوت الروحى لا يصح أن يُكتفى منه بالكفاف. فإذا فهمنا هذا، فهمنا أنه ليس من المناسب لشخص عنده من القوت ما يكفى اليوم وما بعده، عوض أن يشكر الله على ماأغدقه عليه، فإنه يطلب منه أن يزوده بخبز اليوم فحسب!

لكننا كما نقول دائماً إنها فى تمام المناسبة للبقية التقية فى فترة الضيقة العظيمة. فكما يُخبرنا الوحى أنه فى ذلك الزمان لن يقدر أحد أن يشترى أو يبيع إلا الذى له سمة الوحش على يده أو جبهته (رؤ١٣). هذا بالإضافة إلى موجة الغلاء الرهيب الذى سيعم العالم بعد الاختطاف مباشرة (رؤ٦: ٥، ٦). فكيف ستُسدد احتياجات هذه البقية فى زمن عصيب كهذا؟ الإجابة إن الذى عال إيليا فى زمان المجاعة التى استمرت ثلاث سنين ونصف (يع٥: ١٧، ١٨)، وعاله فيها بطريقة معجزية لا تخطر لأحد على بال، هو الذى سيعتنى بالبقية الأمينة فى احتياجاتهم الجسدية فى زمان مُشابه لزمان إيليا فى الشر وفى المدة أيضاً (ثلاث سنين ونصف!).

ونلاحظ أن الرب كان يعطى لإيليا الطعام يوماً فيوماً، سواء عند نهر كريث أو عند أرملة صرفة صيدا (١مل١٧). لم يكن يعطيه مايختزنه للغد، وهكذا فإن البقية ستطلب الخبز من

الرب يوماً فيوماً. إن الرب فى تلك الأيام هو الذى سيسدد احتياجاتهم كقول الكتاب عن المرأة التى سيضطهدها التنين إنها «هربت إلى البرية حيث لها موضع معد من الله لكى يعولها هناك ألفاً ومئتين وستين يوماً» (رؤ١٢: ٦). الفترة هنا محددة باليوم، ولذلك ستطلب البقية قوتها **يوماً فيوماً**.

واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا

وهل المسيحى الحقيقى الآن يطلب الغفران لخطاياه؟ أما يؤكد الرسول بولس أن «فيه لنا الفداء بدمه غفران الخطايا، حسب غنى نعمته» (أف١: ٧). أما يكرر الرسول يوحنا نفس الأمر عندما يذكر «أكتب إليكم أيها الأولاد لأنه قد غُفرت لكم الخطايا من أجل اسمه» (١يو٢: ١٢)؟

إن حقيقة الغفران الكامل ومُسامحة الرب لنا بجميع الخطايا لم تُعرف قبل سفك دم المسيح، لأنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة (عب٩: ٢٢). لكن بعد موت المسيح وقيامته قال المسيح لتلاميذه «كان ينبغى أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات فى اليوم الثالث، وأن يُكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم، مُبتدأً من أورشليم» (لو٢٤: ٤٦، ٤٧). من ثمَّ كانت كرازة الرسل فى سفر الأعمال «له يشهد جميع الأنبياء أن كل من يؤمن به، ينال باسمه غفران الخطايا» (أع١٠: ٤٣). وأيضاً «فليكن معلوماً... أنه بهذا (الشخص) يُنادى لكم بغفران الخطايا، وبهذا يتبرر كل من يؤمن، من كل ما لم تقدروا أن تتبرروا منه بناموس موسى» (أع١٣: ٣٨، ٣٩).

لهذا فنحن لا نطلب الغفران، بل بالحرى نقدم الشكر للآب «الذى أهلنا لشركة ميراث القديسين فى النور، الذى أنقذنا من سلطان الظلمة ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته، الذى لنا فيه الفداء (بدمه) **غفران الخطايا**» (كو١: ١٢-١٤).

وإذا قال واحد إن المقصود هنا الغفران الأبوى لا الأبدى، نقول إنه حتى هذا الغفران لا نحصل عليه بأن نقول لله «اغفر لنا ذنوبنا»، فلا حاجة لنا لمثل هذا الطلب، بل بمجرد الاعتراف بالخطية، عندنا الوعد «إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم» (١يو١: ٩).

وبهذه المناسبة نقول ما أخطر أن تُردَّد طلبة كهذه من جميع الحاضرين فى الاجتماع، بغض النظر عن علاقتهم بالله، هل ولدوا ثانية أم لا. نعم نقول ما أخطر أن يردد الشخص الذى لم يتمتع بغفران خطاياه الأبدى، عبارة «اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا». وكأن غفران الرب للخاطئ يحصل عليه بعمل من جانبه هو.

ولاتُدخلنا فى تجربة.

نحن طبعاً يمكننا أن نطلب من الله الحفظ من التجربة، بل ويجب أن نصلى لكى لا ندخل فى تجربة (مر١٤: ٣٨). على أنه هناك وقتاً عصيباً، يُسمَّى فى الكتاب «**ساعة التجربة** العتيدة أن تأتى على العالم كله لتجرِّب الساكنين على الأرض» (رؤ٣: ١٠)، والرب سيحفظ البقية فى هذه التجربة، لأنه يعلم أن ينقذ الأتقياء من التجربة (٢بط٢: ٩). أما بالنسبة للكنيسة فإن الرب سيحفظها (ليس فى بل) من هذه الساعة، أى أنها لن تكون على الأرض عندما تأتى هذه الساعة، بمعنى أنها لن تشاهد هذه الضيقة العظيمة.

لكن نجنا من الشرير

وهذه الطلبة أيضاً كسابقتها ممكن لنا أن نطلبها، إذ نحتاج إلى حفظ الرب لنا من الشرير. لكن فى أثناء فترة الضيقة العظيمة كما يُخبرنا الوحى، فإن الشيطان سوف ينزل من السماء إلى الأرض وبه غضب عظيم عالماً أن له زماناً قليلاً (رؤ١٢: ١٢). ولهذا فإن المؤمنين وقتها سيطلبون من الله أن ينجيهم من هذا الشرير فى ذلك الوقت العصيب.

* * * * *

ليت الرب يوسع طاقاتنا الروحية حتى نميز الأمور المتخالفة، ونسلك بوعى فى الامتياز السامى الذى صار لنا فى ربنا يسوع المسيح. ولنعلم أنه ولو أن كل الكتاب لنا، لكن ليس كل الكتاب عنا. ونحن يمكننا أن نتعلم من كل كلمة فى هذا الكتاب، لكن يجب أن نقرأه بوعى ونعرف ما ينطبق وما لا ينطبق علينا.

٢٧

المسيحي والصوم

"ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين، فإنهم يغيرون وجوههم لكى يظهروا للناس صائمين. الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم. وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك، واغسل وجهك، لكى لا تظهر للناس صائما، بل لأبيك الذى فى الخفاء. فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية"

(مت ٦: ١٦-١٨)

سبق لنا أن تأملنا فى أقوال الرب عن الصدقة وعن الصلاة، والآن نتحدث عن الجانب الثالث الذى ذكره الرب من أعمال البر؛ أعنى الصوم. وكما عرفنا فإن الصدقة تمثل صور البر من نحو الآخرين، والصلاة تمثل صورة البر من نحو الله، وأما الصوم فهو البر من نحو الذات. وبالأسف هو بالنسبة للكثيرين أقل صور البر شيوعاً؛ أقل من الصدقة وأقل من الصلاة.

وفى المسيحية اليوم نجد فريقين على طرفى نقيض بالنسبة للصوم؛ فريق حوّل الوسيلة إلى غاية، وما هو استثنائى فى الحياة المسيحية إلى جزء أساسى من العبادة المفروضة والمنظمة، وفريق آخر تطرف إلى الجانب الآخر تماما فحولوا ما كان يمارس فى الكنيسة الأولى إلى شئ يمكن الاستغناء عنه، بل ويمكن تجاهله بصورة عامة. الفريق الأول لم يفهم الحرية المسيحية، وممارستهم تحوى عادة على الكثير من التباهى المقيت الذى يكرهه الله، لكن هذا من الناحية الأخرى لا يجيز لأحد أن يتجاهل تلك الممارسة أو يهملها. والمسيح هنا كالعادة

يضعنا فى موقف متوازن، إذ يقول «ومتى صمتم فلا تكونوا..كالمرائين... وأما أنت فمتى صمت»

بعض الملاحظات الابتدائية عن الصوم

١- ليس الصوم ممارسة من العهد القديم أبطلت فى العهد الجديد، ولا هى فريضة تقليدية يمكن للمتمسك بكلمة الله أن ينبذها، بل إنها ممارسة لها أهميتها، متضمنة فى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد.

٢- الكتاب المقدس لا يحدد مطلقاً أياماً معينة للصوم دون أيام أخرى. ولا نجد إطلاقاً أية إشارة فى هذا الصدد سوى شئ واحد نستنتجه من كلمة الله وهو أن يوم الرب؛ اليوم الأول من الأسبوع، لأنه يوم مقدس، فيه نعيد للرب، وفيه نذكر شخصه الكريم، ونحتفل بقيامته من الأموات، فإنه ليس من المناسب الصوم فيه، وذلك حسبما نفهم من سفر نحميا ٨: ١٠

٣- لا يوجد فى كلمة الله قط ما يفيد أن الصوم يعنى الامتناع عن أطعمة دون أخرى. وفى بعض اللغات الأجنبية تسمى وجبة الإفطار «كسر الصوم». نعم إن الصوم يعنى الامتناع تماماً عن الطعام والشراب، وهذا ما قالته الملكة أستير لمردخاى «صوموا من جهتى، ولا تأكلوا ولا تشربوا ثلاثة أيام ليلاً ونهاراً» (أس٤: ١٦)، وهو عين ما فعله أهل نينوى حيث لم تذق الناس ولا البهائم شيئاً، ولا حتى الماء (يون٣:٧).

٤- ليس الصوم هو أسلوب حصولنا على البركة. هذا الفكر خطأ وغريب عن المسيحية؛ أن يظن شخص أنه إذا فعل هذا فإن الله سيفعل له ذاك، وكأننا نشترى البركة من الله، أو كأننا نحن الذين نتحكم فيها. هذا فيه تعدٍ على مطلق سلطان الله. لقد صام داود من أجل ابنه الصغير المريض لعل الله يرحمه ويشفيه، لكن مشيئة الله كانت أن يموت الولد. فلما علم داود بموت الولد دخل بيت الرب وسجد، وأنهى صومه.

٥- الصوم هو عامل مساعد فى ضبط النفس الذى ينبغى أن يميز المسيحى، والذى يجاهد «يضبط نفسه فى كل شئ» (١كو٩: ٢٥)، ويتجنب أن يكون إلهه بطنه (فى٣: ١٩). فى مكان آخر حذر المسيح تلاميذه من أن تثقل أعينهم بخمار الحياة، أى التخمة الزائدة عن الحد (لو٢١: ٣٤). لقد أصاب أحد الحكماء حين قال[٢٩]: حسن أن لا نمتنع فقط أحياناً عن الطعام تماماً، بل أننا دائماً نمتنع عن الشراهة فى الأكل مع كل وجبة.

والرب فى هذه الأقوال الثمينة التى نتناولها بالدرس الآن يتحدث عن أربعة أمور رئيسية هى:

أولاً : *متى نصوم*

ثانياً : *كيف نصوم*

ثالثاً : *الصوم المرفوض من الله*

رابعاً : *مكافأة الصوم*

أولا: متى نصوم

يقول الرب «متى صمتم»، وأيضا «أما أنت فمتى صمت». ولقد أشرنا فيما سبق أن تحديد أيام معينة للصوم ليس فقط غير كتابى، بل أيضا ضد الحرية المسيحية التى يتمتع بها المؤمن الحقيقى، والتى يجب أن يثبت فيها (كو٢: ١٦، ٢٠-٢٣، غل٥: ١، عب١٣: ٩). بل إننا من قراءة الكتاب المقدس بعناية لن نجد وصية تأمرنا بالصوم إطلاقاً، لكننا مع ذلك سنجد العديد من الأمثلة فى العهدين القديم والجديد حدث فيها الصوم، وبتتبعها سنعرف متى يجب الصوم.

١- حدث صوم لشعب الله قديما عندما حلت بهم كارثة قومية حسبما نقرأ فى سفر القضاة ٢٠. فعندما انهزم بنو إسرائيل فى الحرب ومات منهم الآلاف فقد صاموا فى ذلك اليوم إلى المساء. وأيضا فى سفر الأخبار عندما قامت الحرب عليهم، فإنهم نادوا بصوم فى كل يهوذا، وصاموا صوماً قومياً(٢أخ٢٠:٣). وهو عين ما فعله أهل نينوى الوثنيون عندما سمعوا من فم يونان النبى بالقضاء الإلهى الرهيب الذى سيوقعه الله على مدينتهم (يون٣: ٥-٩).

٢- حدث صوم فى أيام عزرا لطلب المراحم من الله. فإذ كانت أمام الشعب مهمة جسيمة تستلزم المعونة الإلهية فقد صاموا جميعاً، كما هو وارد فى عزرا ٨.

إذاً فالصوم الجماعى يكون فى حالتين: عند الندم على الماضى، وعند طلب المراحم بالنسبة للمستقبل. فى الحالة الأولى يرتبط عادة بالتذلل، (١صم٧:٦) وفى الحالة الثانية يرتبط بالصلاة.

٣- وهناك صوم فردى عند حدوث مشكلة شخصية أو عائلية، كما فعل داود عندما مرض ابنه كما مر بنا. وممكن فى حالة كهذه أن يحدث صوم عائلى كما أشار الرسول بولس فى ١ كورنثوس٧: ٥

٤- وهناك صوم للخادم عند سماعه أخباراً محزنة عن شعب الله، كما فعل دانيال (دا٩)، ونحميا (نح١). أو لطلب بركة الرب بصفة عامة كما نرى فى أعمال ١٣: ٣، ١٤: ٢٣.

٥- وهناك صوم تعبدى واعتكاف لعبادة الرب كما كانت تفعل حنة النبية فى لوقا ٢: ٣٧. وربما كان هذا هو نوع صوم سيدنا فى البرية أربعين يوما (مت٤:٢، لو٤: ٢).

ثانياً: كيف نصوم

إن الصوم الكتابى يعنى الامتناع نهائياً عن الطعام والشراب وكافة متع الحياة لفترة زمنية محددة، فيها يكون الشخص متفرغاً للصلاة وسكب القلب أمام الله. وفيها يتحد الجسد مع الروح فى الظرف الذى يجتاز المؤمن فيه. فعادة ما يقترن الصوم فى الكتاب المقدس بالتذلل (مز٣٥:١٣، إش٥٨:٣، ٥) وبالندم على الخطايا بالبكاء والمسوح والرماد (قض ٢٠: ٢٦ ، ١صم٧:٦، مز٦٩: ١٠ ، ١١ ، دا٩: ٣)، وأيضاً بالصلاة (مز٣٥:١٣ ، دا٩:٣، نح١:٤، مت ١٧:٢١، لو٢:٣٧، أع١٣:٣ ، ١٤:٢٣،...)

ليست النغمة العادية للمسيحية هى النواح بل الأفراح؛ ومع ذلك فهناك تجارب وشدائد يجتاز فيها المؤمن تجعل النواح هو ما يصدر عن المؤمن، وساعتها يكون الصوم هو التصرف المناسب بالنسبة له.

فى كل الكتاب نجد أن الصوم كان قرين الصلاة. يمكن للمؤمن أن يصلى دون صوم، لكن لا يمكن أن يصوم صوماً كتابياً دون صلاة. الصوم فى الكتاب ليس مجرد ممارسة طقسية، بل هو وسيلة بها نقترب إلى الله فى شعور بالضعف والمسكنة وعدم الاستحقاق إلى شىء.

والرب هنا يذكر شرطاً من أهم شروط الصوم وهو أن يكون سرياً إذ يقول «وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك لكى لا تظهر للناس صائماً، بل لأبيك الذى فى الخفاء». وطبعا ليس المقصود أن تظهر بمظهر الفرح الذى لا تحس به فى ذلك الوقت، بل إن قصد الرب هنا هو أن تظهر بمظهرك الطبيعى فلا تجذب الأنظار إليك.

إن الغرض الحقيقى من الصوم ليس هو عمل دعاية لأنفسنا، بل أن نذلل أنفسنا ونحكم عليها، ليس أن نكسب مديحاً أمام الناس، بل أن نعبّر عن اتضاعنا أمام الله. لذا يرتبط بهذا الأمر النقطة التالية أعنى بها:

ثالثاً: الصوم المرفوض من الله

وهو صوم المرائين؛ أولئك الذين يصومون للتباهي والتفاخر. يقول الرب «ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين، فإنهم يغيرون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين. الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم».

ومرة أخرى نقول إنه ليس العيب في الحزن أثناء الصوم، أو الحزن بصفة عامة بسبب الحالة التي استلزمت الصوم. فلقد ظهر نحميا حزيناً (نح٢)، وقبله نتف عزرا شعر رأسه وذقنه (عز٩)، وقبلهما وضع يشوع التراب على رأسه (يش٧). والكتاب لم يعترض على تصرفاتهم هذه، مما يدل على أنه ليس العيب في مظهر الحزن إذا وجد ما يستوجبه، بل العيب هو في الولع بنظرة الناس إلينا ليعرفوا كم نحن أتقياء.

إن ما يسر الإنسان الطبيعي ويشبع غروره الدفين هو أن ينظر الناس إليه وهو صائم فيقولون: يا له من تقي! أما الرب فيريدنا عندما نصوم أن يكون ذلك بيننا وبين الله فقط. ذلك لأن أهم عنصر في الصوم هو أن نشعر بعدم استحقاقنا لشئ بالمرة، وننتظر مراحم الله لا سواها. فإذا فقد الصائم هذا الشعور، وداخله الشعور بأنه أكثر تقوى من غيره لأنه يصوم، وبالتالي فهو أفضل من الآخرين، فهذا معناه أن النور فيه صار ظلاماً!!

في العهد القديم أعطى الله لبني إسرائيل وصية بصوم يوم واحد في السنة؛ هو يوم الكفارة العظيم (لا٢٣: ٢٦-٣٢). لكن جماعة الفريسيين في تطرفهم ضاعفوا اليوم أكثر من مئة مرة. ولعلنا نتذكر ذلك الفريسي الذي حدثنا الرب يسوع عنه في لوقا ١٨: ٩-١٤، كيف وقف يصلي في الهيكل إلى الله، قائلا له في مباهاة إنه ليس مثل باقي الناس، مشيراً إلى صومه **مرتين في الإسبوع** (اليهود المتدينون لا زالوا يصومون يومي الاثنين والخميس). ومع أن العشور وصية كتابية، لكنها تراجعت إلى الخلف في ديانة ذلك الفريسي، وجاء التقليد الذي لم يطلبه الله ليشغل المقدمة؛ فذكر أولاً الصوم مرتين في الأسبوع (لو١٨: ١٢).

هذا الشخص المتكبر حوّل الصوم إلى ممارسة منظمة مرتبة: الأمر الذي لم يطلبه الرب. ثم أكثر كثيراً من الصوم فصار يصوم في الأسبوع مرتين. لم يفعل ذلك حباً في الله، بل بغرض التباهي، فوقف في صلاته يفتخر بنفسه أمام الله.

هذا هو الصوم المرفوض؛ صوم المرائين. وقديماً تكلم الرب عن هذا الصوم على فم إشعياء النبي فقال «ارفع صوتك كبوق، وأخبر شعبي بتعديهم» وما أشد الحاجة اليوم إلى رفع الصوت عالياً، محذرين ومنذرين أولئك الذين اكتفوا بالمظهر دون الجوهر. وأولئك الذين يناديهم الرب طالباً منهم التوبة كانوا أكثر الناس تديناً «إياي يطلبون يوماً فيوماً» أي أنهم

كانوا يسرون بالتقرب إلى الله. لكن الرب لم يخدع بهذا، ولذلك نراهم فى غيظهم يقولون بلغة زعيمهم قايين «لماذا صمنا ولم تنظر؟» والجواب لأن الرب ينظر إلى القلب ولا يخدع بالمنظر الخارجى، كقول الرب فى مكان آخر «لست أطيق الإثم والاعتكاف...فحين تبسطون أيديكم أستر عينى عنكم، وإن كثرتم الصلاة لا أسمع» (إش١: ١٣، ١٥)

والرب من فرط نعمته يجيبهم عن سبب عدم نظره إليهم فيقول «ها إنكم فى يوم صومكم توجدون مسرة» أى أنهم فى أثناء صومهم تراهم، وياللعجب، يفكرون فى ماذا سيفعلون بعد انتهاء فترة الصوم ليمتّعوا أجسادهم!! وليس ذلك فحسب، بل يقول أيضاً «ها إنكم للخصومة والنزاع تصومون» كأن الصوم عندهم سترة للغضب والخصام، أو كأنه مبرر للتبرم والشجار!!

يستطرد الرب قائلاً «أمثل هذا يكون صوماً أختاره. يوماً يذلل الإنسان فيه نفسه، يحنى كالأسلة رأسه ويفرش تحته مسحاً ورماداً» كأن الرب يقول هل مجرد المظاهر الخارجية بدون الحكم الحقيقى على الذات هو ما أطلبه أنا؟!

أرأيت يا أخى العزيز الفارق الكبير بين بر الفريسيين وبر المؤمنين؟ بر الفريسيين قصده التباهى وباعثه الغرور وينال مكافأته من الناس، أما بر المؤمنين فهو سرى، باعثه التواضع والذى يكافئ عليه هو الله.

رابعاً: مكافأة الصوم

يقول المسيح «وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك لكى لا تظهر للناس صائماً، بل لأبيك الذى فى الخفاء. فأبوك الذى يرى فى الخفاء هو يجازيك»

وطبعاً يستحيل تنفيذ ذلك بصورة مطلقة؛ أعنى يستحيل أن نتجنب ملاحظة بعض الناس - على الأقل - أننا صائمون. لكن السؤال المهم هو : ما هو الذى يهمنا؟ وعن أى شئ نحن نبحث؟ أترانا نهتم فى ذلك بما يلاحظه البشر أم ما يراه الله؟ الناس هنا على الأرض أم أبوك الذى فى الخفاء؟

والسؤال الذى أتركه مع قارئى العزيز هو: لأى عالم أنت تعيش؛ الأرض أم السماء؟ إن الله يرى دوافعك. فإذا كان مديح الناس هو ما تسعى إليه فستستوفى أجرك فى حياتك. أما إذا كان مرادك إكرام أبيك الذى فى الخفاء، فإن الذى يرى فى الخفاء هو يجازيك.

عليك أن تتذكر بعواطف ملتهبة أنك لست ابن اليوم، ولست تابعاً لهذه الأرض. إنك ابن الغد، بل ومخصص للأبدية. إن حياتك لا يحدها ذلك المشهد المحدود، فأنت تابع للا محدود. فإن كنزت الكنوز على هذه الأرض أيتها النفس المسكينة البائسة الغبية، تكوني قد كنزت ثروتك حيث لا يمكن الاحتفاظ بها بصفة دائمة. ضعي كنزك واحتفظي به حيث يمكنه أن يرحب بك في فجر الصباح الجديد[30].

[كامبل مورجان].

القسم الخامس

اهتمامات تلميذ المسيح

مت ٦ : ١٩ – ٣٤

- أين كنزك؟
- من هو سيدك؟
- الاهتمام

٢٨

أيــن كــنزك؟

"لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون. بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ، وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون. لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضاً"

مت ٦: ١٩-٢١

بهذه الأعداد يبدأ قسم جديد من موعظة الجبل. فالأصحاح السادس كما فهمنا سابقاً يتحدث في مُجمله عن علاقة المؤمنين مع الآب؛ وهو ينقسم إلى قسمين متميزين؛ القسم الأول، الذى انتهينا منه، يتحدث عن *الآب وعلاقتنا به*، والثانى عن *العالم* (الذى هو ضد للآب) *وموقفنا منه*. فى القسم الأول (ع١-١٨) نرى أن عينى *الآب على المؤمن*، والقسم الثانى (ع١٩-٣٤) نرى أن عينى *المؤمن يجب أن تكونا على الآب*. فى الأول يوضح المسيح كيف يجب أن يكون *تعاملنا مع الله*، والنغمة البارزة فيه هى *البر*، وفى الثانى يوضح لنا *تعامل الله معنا*، والنغمة البارزة فيه هى *الرحمة*. فى الأول «أبوك الذى *يرى فى الخفاء هو يجازيك*»، وفى الثانى «أبوكم *يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه*». فما أسعدنا به على كل حال!

أو يمكن القول إن المسيح فى القسم الأول قادنا إلى داخل المقادس؛ مقادس الشركة مع الله، وأقنعنا أنه فى علاقتنا معه يكفينا أنه يعلم، إذ أنه يرى فى الخفاء، وأنه هو الذى

يجازى. وبعد ذلك يقودنا المسيح من مقادس الشركة متكلين على إلهنا للسير فى العالم سير الغريب والنزيل؛ لا تشدنا جاذبياته وإغراءاته (ع١٩-٢٤)، ولا تربكنا مشكلاته واهتماماته (ع٢٥-٣٤). ففرحنا لا تسببه كنوز العالم، ولا تدمره مشكلاته. فإن مَنْ كان الرب نصيبهم، لن يحتاجوا إلى أى شخص أو كنز آخر.

أو يمكن القول إن هذا الأصحاح السادس من إنجيل متى يكلمنا فى قسميه عن ديانة الشخص ودنياه؛ حياته السرية فى الخفاء فى عمل البر، ثم حياته العلنية فى العالم وموقفه بالنسبة للمال والممتلكات، الطعام والشراب والكساء، ولكل ما يسبب الاهتمام والقلق. فالرب بعدما حذر أتباعه من *الفريسيين ورياءهم*، ها هو يحذرهم من *الأمم وطمعهم وقلقهم*. فى القسم الأول من الأصحاح حذرنا من *رياء المتدينين*، وفى آخره حذرنا من *مادية العلمانيين*.

منع وأمر

فى بداية الأقوال التى ندرسها الآن قدَّم المسيح لتلاميذه نهياً إذ قال «**لا تكنزوا** لكم كنوزاً على الأرض»، ثم بعد النهى يقدم أمراً فيقول «بل **اكنزوا** لكم كنوزاً فى السماء». والرب هنا كعادته لا يحذرنا فقط من الخطأ، بل يتبع ذلك بشرح ما يجب أن نفعله. وتحريضه لنا ليس هو تحريضاً سلبياً فقط (منع)، بل هو إيجابى أيضاً. «لا تكنزوا... بل اكنزوا».

سنجد فى هذا القسم الجديد الذى نبدأ بدراسته الكثير من الثنائيات المتباينة؛ فالمسيح يحدثنا عن كنز على الأرض وكنز فى السماء، وبعد ذلك يتحدث عن جسد نيِّر وجسد مُظلم، وبعدها يتحدث عن سيدين: الله والمال، وأخيراً يشير إلى نوعين من الاهتمامات؛ أجسادنا وملكوت الله.

لم يكن الرب يسوع المسيح مُلزَماً أن يشرح لتلاميذه التعليمات التى يقولها لهم، فهو كصاحب السلطان فى ملكوت السماوات من حقه أن يأمر، ونحن علينا أن نطيع. لكنه - تبارك اسمه - تنازل هنا ليشرح لنا سر هذا المنع وهذا الأمر؟

لا ننكر أن الكنوز على الأرض هنا لها بريقها الذى لا يقاوم، فكيف يمكننا التغلب على اغراءاتها، لا سيما ونحن فى عالم طغت فيه الماديات على كل شئ آخر، وأصبحنا فى زمن غير عادى أمام إغراء الجديد من المخترعات فى كل يوم؟!

ها المسيح هنا يساعدنا فى الاختيار، وذلك بأن يجعلنا بالإيمان نرى حقيقة الأشياء، فلا نُخدع بظواهر الأمور. تماماً كما أن موسى بالإيمان حسب عار المسيح غنى أعظم من خزائن مصر، وعرف أنه حتى ولو كان فى مصر تمتع، فإنما هو تمتع وقتى.

لكن تُرى ماذا كان المسيح يقصد بالكنوز على الأرض؟

بداية نقول إنه لا يوجد خطأ في أن يكون للمسيحي ممتلكات، فالمسيحية لا تمنع الملكية الفردية، ولا يوجد خطأ في أن يفكر المرء في المستقبل، فالكتاب يمتدح النملة التي تجمع في موسم الصيف ما ينفعها في الشتاء حيث يتعذر عليها أن تخرج لتجمع قوتها (أم٦: ٦–٨، ٣٠: ٢٤، ٢٥)، بل ويذكر صراحة أن على الآباء أن يذخروا لأجل الأولاد (٢كو١٢: ١٤). بل وليس العيب أيضاً في أن نتمتع بخليقة الله، الذي يمنحنا كل شئ بغنى للتمتع (١تى٦: ١٧). فما هو إذاً هذا الذي يحذرنا الرب منه؟

يمكننا مبدئياً أن نُعرِّف الكنوز بأنها الثروة المكدسة والزائدة عن الحاجة. والأموال إذا زادت قد تتحول إلى صنم يستهوي القلب فيتعلق به. ولهذا جاءت كلمات داود «إن زاد الغنى فلا تضعوا عليه قلباً» (مز٦٢: ١٠). الخطأ الذي يحذرنا الرب منه إذاً هو أن تصبح الكنوز هدفاً لا وسيلة لهدف أسمى، وتصبح سيداً لا خادماً. ولذلك فليس غريباً أن يتحدث المسيح بعد ذلك عن السيد وخدمته (ع٢٤). تُرى مَنْ هو سيدنا؟ هل هو الله أم هي الأموال والممتلكات؟

لكننا نقول أيضاً إن الكنز لا يعني الأموال فحسب، أو الممتلكات فقط، بل يمكننا أن نعمم المعنى ليشمل كل ما هو ثمين في نظر الإنسان: الصيت الذائع، أو المظهر الجذاب، أو المواهب الخارقة. وعليه فليست محبة المال هي وحدها المشكلة، بل هناك أيضاً محبة المجد الباطل. إنه بالإجمال الشئ الذي لأجله نعيش. فإن كنت مثلاً تعيش لعملك ولتحظى بتقدير الرؤساء والمرءوسين، إذاً فتقدير الناس ونظرتهم لك هما كنزك. تُرى لأي شئ نحن نوقف عمرنا؟ ولأي هدف نقضي أيامنا؟

وعندما يقول المسيح «لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض» فهو لا يقصد فقط مكان الكنز، بل أيضاً نوعه. فالكنز الذي على الأرض هو بالضرورة كنز أرضي وبالتالي فهو وقتي وعرضي، بل إنه في النهاية زائل. ولهذا يحذرنا المسيح من أن تكون كنوزنا على الأرض.

لماذا لا نكنز على الأرض؟

لأن كنوز الأرض غير ثابتة ولا دائمة، ويُجمل الرب عدم دوامها أو ثباتها في سببين:

السبب الأول: ***لأنها معرضة للتلف*** و *السبب الثاني:* ***لأنها معرضة للضياع.***

أي أنها ***لا تبقى على حالها*** أو *أنها قد* ***لا تبقى على الإطلاق.***

السبب الأول يرجع إلى ***الصدأ والسوس*** و *السبب الثاني إلى* ***السراق واللصوص.***

السوس والصدأ:

بحكمة اختار الرب السوس والصدأ كمُتلفين للكنوز؛ فالسوس يُتلف المواد العضوية، والصدأ يتلف المعادن. ثم إن السوس يعمل من الداخل، والصدأ يعمل من الخارج!

صحيح لقد انتصر العلم الحديث واختُرعت المبيدات الحشرية والطلاءات القوية التى تمنع كلا من السوس والصدأ. لكن فى الواقع إن الرب هنا يقصد ما هو أعمق من مجرد السوس والصدأ فى شكليهما المعروفين. ألا تلاحظ معى أن كل ما تحت الشمس يفقد كيانه ويفقد لمعانه رويداً رويداً. فالجديد يأخذ فى القدم والتلف، والشباب يأخذ فى الترهل والتجعد، والنضير يأخذ فى التحلل والفساد، وكل هذا يحدث ببطء ولكن بثبات.

ثم هناك أمر آخر يتمشى مع الصدأ والسوس: هو أننا نحن أنفسنا نمل من هذه الكنوز ونفقد شغفنا بها. فلقد كنا نشتهى تلك الكنوز قبل أن نمتلكها، وقابلناها فى البداية بحماس شديد وشغف زائد، ثم سرعان ما ابتدأ الحماس يُفقد والشغف يقل.. أو ربما ظهر طراز جديد فزهدنا ما نمتلكه وأصبحنا من جديد نشتهى الأحدث، وهكذا دواليك!

كم كان المسيح إذاً مُحقاً عندما قال «لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ». نعم فمبدأ التحلل والفساد يعمل فى كل شئ فى هذه الأرض. ولقد أصاب أحدهم عندما قال: إن أجمل زهور الحديقة تبدأ فى الذبول والموت بمجرد أن تقتطفها لتتمتع بها!! لذلك قال الرسول يوحنا «العالم **يمضى** وشهوته». لاحظ أنه لا يقول إن العالم سيمضى وشهوته ستمضى، فهو من الآن يمضى. وبنفس المفهوم قال الرسول «إن هيئة هذا **العالم** تزول» (١يو٢:١٧؛ ١كو٧:٣١).

اللصوص:

بعد ذلك يذكر الرب السبب الثانى لعدم الاكتناز على الأرض، وهو أنه لا أمان هنا على الأرض لِما نكنزه، فيقول المسيح «لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض... حيث ينقب السارقون ويسرقون».

كانت البيوت قديماً تُبنى من الطين واللبِن، وما كان أسهل أن ينقب اللصوص تلك البيوت وأن يصلوا إلى الكنوز التى فيها ليسرقوها. لكن هل البيوت الحديثة ضمنت عدم ضياع الكنوز؟ كلا البتة، فما أكثر أسباب ضياع الثروة التى نسمع عنها فى هذه الأيام. تفكّر فى خسائر الشركات وفى تذبذب أسعار السلع، وفى التضخم، وفى انخفاض أسعار العُملة، بل تفكَّر فى إفلاس البنوك وتأميم الشركات والحجز على الثروات والمصادرات... هذا كله

بالإضافة إلى السرقات نفسها بالطرق التقليدية والمبتكرة أيضاً!

لماذا تضع قلبك إذاً على شئ يتبخر ويتلاشى؟ إن الكنز الأرضى أسرع وأيسر فى تبديده منه فى جمعه وتكويمه. لهذا يقول سليمان الحكيم «هل تُطَيِّر عينيك نحوه وليس هو؟!» أى هل تلاحق الغنى بنظرك وهو ليس باقياً؟ ثم يقول «لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة. كالنسر يطير نحو السماء» (أم٢٣: ٥). وإذ ذاك لا يترك لصاحبه سوى أنين الحسرة والندم، وأمراض القلب وضغط الدم.

وهو نفس مايُقال عن أى كنز لك هنا على الأرض. فأنت لو ركزت الآمال على شخص عزيز تعيش لأجله؛ الولد أو الزوج أو غيرهما.. فهناك سارق خطير لا تمنعه عن الوصول إلى هذا الكنز أية حواجز، فحتى لو وضعته فى أمنع الحصون فهو ينقب ويسرق؛ أعنى به الموت!!

انظر إلى الجرائد، انظر إلى صفحة الجرائم، وصفحة الحوادث، وصفحة الوفيات! ألا تتأكد أن كل ما على الأرض زائل وفان. ألم يكن أيوب مُحقاً عندما قال «عرياناً خرجت من بطن أمى، وعرياناً أعود إلى هناك» (أى١: ٢١)؟ وكذلك الرسول بولس عندما قال «لأننا لم ندخل العالم بشئ، وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشئ» (١تى٦: ٧). وفى كل هذا ألا يتعمق فى نفسك قول المسيح «لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون».

اكنزوا فى السماء

يضيف المسيح قائلاً «بل اكنزوا لكم كنوزاً فى السماء حيث لا يفسد السوس ولا الصدأ وحيث لا ينقب السارقون ولا يسرقون».

إن السماء وليست الأرض هى المكان الأمين لحفظ كنوزنا. ففى السماء لا سوس ولا صدأ، ولهذا يقول الرسول بطرس عن ميراثنا السماوى إنه «لا **يفنى** ولا يتدنس ولا يضمحل»، وفى السماء لا يوجد سارقون يسرقون، ولهذا يضيف قائلاً عن هذا الميراث إنه «**محفوظ** فى السماوات لأجلكم» (١بط١: ٤).

وفى الرسالة إلى العبرانيين قيل عن المؤمنين إنهم قبلوا سلب أموالهم بفرح عالمين أن لهم مالاً أفضل فى السماوات **وباقياً**(عب١٠: ٣٤)، كما يقول عن الآباء إنهم عاشوا غرباء على الأرض لأنهم كانوا ينتظرون المدينة السماوية التى لها الأساسات (عب١١: ١٠، ١٦)؛ أى المدينة الباقية!

كثير من الناس الذين يعيشون فى الدول غير المستقرة يحاولون نقل ثرواتهم خارج البلاد، ولو بطرق غير مشروعة. فلماذا أيها المؤمن لا تنقل ثرواتك إلى أكثر الأوطان أمناً وبأكثر الطرق مشروعية. لماذا لا تستخدم أموالك فى خدمة الله والناس، فيكون لك بذلك كنز فى السماء (مت١٩: ٢١)؟!

الكنز والقلب

ثم يعلّق المسيح على ذلك بالقول «لأنه حيث يكون كنزك، هناك يكون قلبك أيضاً». لاحظ أنه لا يقول هناك ينبغى أن يكون قلبك، بل هذا ما يحدث فعلاً. فالقلب يتبع الكنز كما تتبع إبرة البوصلة قطب الشمال، ولذلك يقول المسيح «هناك **يكون** قلبك».

لكن لماذا يغير الرب الصيغة هنا من الجمع إلى المفرد، فيتكلم عن كنز لا عن كنوز؟ يبدو أنه هنا يشير إلى كنز واحد، لكنه يشتمل على كل الكنوز، ففيه مذخر جميع كنوز الحكمة والعلم؛ إنه شخصه المبارك المجيد. وفى هذا تأتى كلمات الرسول بولس «اطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله. اهتموا بما فوق لا بما على الأرض، لأنكم قد مُتم وحياتكم مُستترة مع المسيح فى الله» (كو٣: ١-٣).

اسأل أى مؤمن حقيقى: ما هو كنزك؟ ستكون الإجابة «**هو الرب**». قال الرب لابراهيم «أنا (**أجرك** الكثير) جداً» (تك١٥: ١)، وقال أليفاز التيمانى لأيوب «يكون القدير **تبرك**» (أى٢٢: ٢٥)، وقال داود «الرب **نصيب قسمتى** وكأسى» (مز١٦: ٥). مع أن ابراهيم كان غنياً جداً، وأيوب كان أعظم كل بنى المشرق، وداود كان ملكاً، لكن لا الغنى، ولا الجاه، ولا السلطان كان كنز هؤلاء القديسين، بل ***الرب***.

بعد ذلك، فى متى١٣، نقرأ كيف شبّه الرب شعبه بأنهم كنزه المخفى فى حقل. فإن كان المسيح ينظر إلينا باعتبارنا كنزه فى العالم، فهل كثير أننا ننظر إليه باعتباره كنزنا فى السماء؟!

٢٩

مَنْ هــو سـيدك؟

"سراج الجسد هو العين. فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيراً، وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً. فإن كان النور الذى فيك ظلاماً فالظلام كم يكون؟ لايقدر أحد أن يخدم سيدين؛ لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال"

(مت ٦: ٢٢-٢٤)

قبل أن ينطق الرب بهذه الأقوال فى عظته الشهيرة فوق الجبل كان قد حذر مستمعيه (كما رأينا فى الفصل السابق) من أن يكنزوا لهم كنوزاً على الأرض، لأن كنوز الأرض غير ثابتة ولا دائمة، مثل كل ما هو فوق الأرض. هذا ما عرفه موسى رجل الله قديماً؛ لقد عرف أن مصر، أعظم بلدان العالم على عهد موسى، ليس عندها ما تقدمه سوى التمتع الوقتى، فرفض موسى بالإيمان جميع خزائن مصر (عب١١: ٢٤-٢٦). وهكذا فإن الحكيم هو من يضع كنزه فى السماء، حيث الميراث الذى لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل، حيث المال الأفضل والباقى!

ولعل واحداً يتساءل قائلاً: إذا كان الغنى الحقيقى لا يوجد فى الأشياء التى على الأرض، ولا فى الأمور المنظورة، فلماذا يتعب الكثيرون فى كل مكان فيما لا ينفع، أو بلغة إشعياء فيما لا يشبع (إش٥٥: ٢)؟ وإذا كان أفضل ما يقدمه العالم للبشر سرعان ما يذوى ويذبل، فلماذا نرى غالبية البشر تسعى وراءه سعياً حثيثاً؛ يشتهونه، ويتخاصمون بسببه،

بل ويتقاتلون عليه، ويفنون أعمارهم لأجله؟ لماذا كل هذا إن كان كلام الرب هنا صحيحاً؟

السبب لأن الناس يرون أمور هذا العالم بواسطة عيون تالفة؛ فبينما يرون الحقائق كأنها أوهام، فإنهم يرون الظلال كأنها أجسام! ولهذا وردت كلمات الرب هنا «سراج الجسد هو العين. فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيراً، وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً».

العين البسيطة والعين الشريرة

العين فى الجسد تمثل النوافذ فى البيوت، ليس فقط لأن منها نطل على الأشياء التى خارجنا، بل والأهم أن منها يدخل النور إلى كياننا. ولكى يحدد الرب ذهن السامع فى هذا المعنى الأخير فإنه استخدم تشبيه السراج لا النافذة. ونلاحظ أن الرب لم يقل إن العين نور الجسد، بل سراج الجسد. فالعين لا تنشئ النور بل تستقبله. إنها لا تمثل مصدر المعرفة، فهذه نحصل عليها فقط من كلمة الله، بل هى تمثل وسيلة المعرفة.

ماأهم العين بالنسبة للجسد إذاً! فمع أنها عضو صغير لكن بدونه يمسى الكيان كله مظلماً، لاتدخله شعاعة نور واحدة. ولما تكلم الرب عن العين الشريرة، لم يذكر فى المقابل لها العين الصالحة، بل العين البسيطة. وكم يمتدح الرب تلك العين البسيطة التى لا ترى سوى غرض واحد فقط. فالعريس أكثر من مرة امتدح تلك العين فى عروسه؛ عين الحمام (نش١: ١٥، ٤: ١). ولعل الرب قصد أن يربط هذا بما كان مزمعاً أن يقوله بعد ذلك مباشرة «لا يقدر أحد أن يخدم سيدين».

أجعل ما فى هذا العالم هدفك، وسرعان ما ستكتشف أنه يستحيل أن تكتفى بشئ واحد على الاطلاق. ألم يقل الحكيم «العين لا تشبع من النظر، والأذن لا تمتلئ من السمع» (جا١: ٨). إنك ستنظر إلى هذا الشئ وإلى ذاك، ثم إلى هذه وإلى تلك دون شبع. فالقلب أكبر من العالم بأسره. وقديماً لما تحول الشعب عن إلهه فى أيام إرميا النبى فإنهم لم يجدوا شيئا يعوضهم عن إلههم، فنقروا لأنفسهم فى الصخر بئراً ثم ثانية وثالثة. فجاءت كلمات النبى الأسيفة «ابهتى أيتها السماوات من هذا واقشعرى وتحيرى جداً يقول الرب، لأن شعبى عمل شرين؛ تركونى أنا ينبوع المياه الحية، لينقروا لأنفسهم آباراً آباراً مشققة لا تضبط ماء» (إر٢: ١٢، ١٣).

على العكس من ذلك لو تحولت عن كل شئ إلى الله، فسيكون النظر مستقراً عليه، لأن

الله أكبر من قلوبنا. وبهذا سيكون للعين هدف واحد، وسيكون الجسد كله نيراً، لأن النور الذى يأتينا من عند الله أبى الأنوار، سيدخل من خلال العين البسيطة إلى الجسد كله فينير كل الكيان!

ولقد كانت للرسول بولس هذه العين البسيطة فقال « أنا.. أفعل شيئا واحداً » بالمقابلة مع الكثيرين الذين يفتكرون فى الأرضيات (بالجمع) (فى٣: ١٣، ١٨، ١٩). بل وفى العهد القديم أيضاً كانت لداود فى مزمور ٤ العين البسيطة، بالمقابلة مع الكثيرين الذين يقولون من يرينا خيراً، فقال هو «ارفع علينا نور وجهك يارب» من ثم استطرد قائلا «جعلت سروراً فى قلبى أعظم من سرورهم إذ كثرت حنطتهم وخمرهم» (مز٤: ٦، ٧).

وبالنسبة للعين التالفة، معروف أنها لا تحتمل النور. وهذا صحيح ليس فقط من الناحية الحرفية بل أيضاً من الناحية الروحية. فيقول الرب عن شخصه له المجد «النور قد جاء إلى العالم، وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة» (يو٣: ١٩). لماذا لا يُسرّ البشر بالوجود فى محضر الله؟ لأن «الله نور» (١يو١: ٥). ولماذا لا يحب البشر قراءة الكتاب المقدس؟ لأن «الشريعة نور» (أم٦: ٢٣). إن عيونهم رمداء، فأى ظلام هم فيه طالماً أن عيونهم، التى منها يدخل النور إلى كيانهم، تالفة! وفى هذا جاءت كلمات سليمان الحكيم «أما سبيل الصديقين فكنور مشرق يتزايد وينير إلى النهار الكامل. أما طريق الأشرار فكالظلام. لا يعلمون ما يعثرون به» (أم٤: ١٨، ١٩).

ثم يضيف الرب هذه الكلمات الخطيرة «فإذا كان النور الذى فيك ظلاماً، فما أشد الظلام* ». ويا حبذا لو وعينا بُعد هذه العبارة فى كلمات سيدنا. إن كان نور الطبيعة ظلاماً، فماذا يكون ظلام الارتداد! وإن كان نور اقتراب الله إليك ظلاماً بالنسبة إليك، فماذا تكون ظلمة رفضه لك؟! وإن كان نور الحياة الحاضرة ظلاماً، فما أشد ظلام الأبدية؛ «الظلمة الخارجية» حيث «البكاء وصرير الأسنان» (مت٨: ١٢)!

لا يقدر أحد أن يخدم سيدين

يقول الرب بعد هذا «لا يقدر أحد أن يخدم سيدين؛ لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال»

قد يتساءل واحد: لماذا لا يقدر أحد أن يخدم سيدين؟ إننا نجد اليوم كثيرين يجمعون بين وظيفتين. حسناً، قد ينفع هذا مع الناس، لكنه لا ينفع مع الله. وإن كان فى الجاسوسية

* حسب الترجمة التفسيرية

هناك العميل المزدوج، لكن الله ليس عنده مثل هذا العميل المزدوج ولا يقبل هذا المبدأ.

بداية نقول - كما يذكر العارفون باللغة اليونانية - إن كلمة يخدم المستخدمة فى هذه الفقرة هى فى اليونانى كلمة قوية جداً، فهى نفس الكلمة التى استخدمها الرسول بولس فى رومية ٦:٦، ٦:٧ حيث تترجم هناك «نستعبد» و«نعبد».

ثم لا يقدر أحد أن يخدم سيدين لأن الله لا يريد خدمة الشفتين فقط، ولا خدمة اليدين فحسب، بل يريد خدمة المحبة، والمحبة من كل القلب. قال الرب قديماً على لسان هوشع النبى «قد قسموا قلوبهم. الآن يعاقبون» (هو ١٠: ٢). كما وبخ إيليا النبى الشعب فى أيامه قائلاً «حتى متى تعرجون بين الفرقتين؟ إن كان الرب هو الله فاتبعوه، وإن كان البعل فاتبعوه» (١مل١٨: ٢١). ويالها من كلمات فاحصة لقلوبنا نحن أيضاً.

لكن خدمة الرب ليست فقط خدمة من كل القلب، بل أيضاً خدمة كل الوقت. إنها خدمة التكريس الكلى واتباع الرب تماماً. إن خدمة الهواة لا تنفع مع الله، بل يلزم أولاً التكريس الكامل قبل أن نخدمه.

ماذا قيل عن الابن الضال وهو فى الكورة البعيدة؟ قيل «مضى **والتصق** بواحد من أهل تلك الكورة، فأرسله إلى حقوله ليرعى خنازير» (لو١٥: ١٥). وهكذا فإن على كل إنسان أن يوازن بين الالتصاق بالسيد القاسى الذى يرسله إلى حقوله (صورة للعالم) فلا يجد حتى طعام الخنازير، وبين التحول نهائياً عن ذلك السيد وحقوله وخنازيره ليعود راجعاً إلى أحضان الأب وقبلاته الغامرة، فيجد عنده الشبع على مائدته بالعجل المسمن، فتتم فيه كلمات الرسول الحلوة «وأما من **التصق** بالرب فهو روح واحد» (١كو٦: ١٧)

قد يقول قائل إنى بوسعى أن أعدل بين السيدين اللذين أخدمهما، وأسلك سلوكاً متوازناً بين العالمين اللذين أحيا لهما. لكن تذكر - عزيزى - أن هذه هى كلمات الرب يسوع، وهو يعرف أفضل منك، وما يقوله هو دائماً الصواب.

تفكر فى الشاب الغنى الواردة قصته فى مرقس ١٠، لقد أراد أن يتبع المسيح لكنه اكتشف أنه ينبغى أن يترك كل أمواله، فنكص على عقبيه، ومضى حزيناً!

ثم تفكر فى يهوذا الاسخريوطى، الذى لأجل حفنة قليلة من النقود باع الودود!

وحنانيا وسفيرة أيضاً يقدمان لنا بوق تحذير وإنذار. فالمال جعل الشيطان يملأ قلبيهما ويكذبان على الله!

هؤلاء جميعا لم يستطيعوا الاحتفاظ بولائهم الظاهرى للمسيح رغم حسن النوايا، وذلك لأن فى قلوبهم كان يوجد سيد آخر وهو المال.

ونفس الشئ نجده مع ديماس؛ فالرسول بولس بعد أن أشار إلى الذين يحبون ظهور المسيح ذكر مباشرة «ديماس قد تركنى إذ أحب العالم الحاضر» (٢تى٤: ١٠). لقد تغلبت محبة على محبة. فمن يحب ظهور المسيح لابد أن يعيش غريباً فى هذا العالم. أما من يحب العالم الحاضر فلابد أن يترك الرسول ويترك خدمة الرب! وفى هذا يقول الرسول يعقوب رجل الحياة العملية «أيها الزناة والزوانى أما تعلمون أن محبة العالم عداوة لله. فمن أراد أن يكون محباً للعالم فقد صار عدواً لله» (يع٤: ٤).

لا تقدرون أن تخدموا الله والمال

تأمل فى النتيجة التى توصل الرب إليها هنا «لا تقدرون أن تخدموا الله والمال». ليس أن المال فى ذاته شر، بل المسألة أنك لا تقدر أن تخدم الله والمال فى آن واحد معاً.

باللأسف أن ما عاد المال خادماً يخدمنا ، بل أصبح بالنسبة للكثيرين سيداً يخدم، وإلهاً يعبد! فمحبة المال تقود إلى العبودية للمال. إنها مأساة أن ما أعطاه الله فى البداية للإنسان لبركته وخيره، سرعان ما جعل البشر منها أصناماً يتعبدون فى محرابها. فالبعض يعبد المال كما هنا، والبعض يعيش ليأكل إذ صار إلههم بطنهم (فى٣: ١٩)، والبعض يعبد الجنس، إذ أن كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية (يو٨: ٣٤).

نعم نحن لا نقدر أن نخدم هذين السيدين معاً، الله والمال، لأن كلا من هذين السيدين يطلب منا سلوكا ليس فقط يختلف عما يطلبه السيد الآخر، بل يتعارض معه تماماً. فالله يأمرنا أن نسلك بالإيمان، بينما السيد الآخر يريدنا أن نسلك بالعيان. الله يطلب منا أن ننشغل بما فوق، والسيد الآخر يريدنا أن نهتم بما على الأرض. الله يريدنا أن نظهر أننا سماويون، بينما السيد الآخر يشدنا إلى الأرض والتراب. الله يقول لنا «لاتهتموا بشئ» والسيد الآخر يريدنا أن نعمل حساباً لكل شئ. الله يطلب منا أن نكون مكتفين بما عندنا، والسيد الآخر يريدنا أن نوسع شهوتنا كالهاوية. الله يطلب منا ألا ننسى فعل الخير والتوزيع، والأخر يريدنا أن نقول مع نابال الأحمق «أآخذ خبزى ومائى وذبيحى الذى ذبحت..وأعطيه لقوم لا أعلم من أين هم؟». السيد الأول يدعونا لنفرح بالعاطى، بينما السيد الآخر يريدنا أن نفرح بالعطية. فكيف يمكننا أن نوفق بين خدمة هذين السيدين؟!

تذكر أن المسيح هنا لا يقول: لا ينبغى، أو لا يليق، بل «لا تقدرون أن تخدموا الله والمال». هذا هو التحدى العظيم الذى يضعه المسيح أمامنا فى هذه العظة.

٣٠

الاهتمام

"لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس؟ انظروا إلى طيور السماء، إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن وأبوكم السماوى يقوتها. ألستم أنتم بالحرى أفضل منها؟! ومَن منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة؟ ولماذا تهتمون باللباس؟ تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو؛ لا تتعب ولا تغزل. ولكن أقول لكم إنه ولا سليمان فى كل مجده كان يلبس كواحدة منها. فإن كان عشب الحقل الذى يوجد اليوم ويُطرح غداً فى التنور يُلبسه الله هكذا أفليس بالحرى جداً يُلبسكم أنتم يا قليلى الإيمان؟! فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس فإن هذه كلها تطلبها الأمم. لأن أباكم السماوى يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها. لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره، وهذه كلها تزاد لكم. فلا تهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه، يكفى اليوم شره"

مت ٦: ٢٥-٣٤

كان حديث الرب مع تلاميذه فى الأقوال السابقة من ع١٩-٢٤ يدور حول جمع الكنوز على الأرض. لكن الأقوال التى نحن بصددها الآن تدور حول الاهتمام والقلق. ويمكننا أن نفهم العلاقة بين الأقوال السابقة واللاحقة بأسلوب من ثلاثة أساليب، أو بها جميعاً:

١ - **استطراد الكلام:** فالرب بعد أن مدح العين البسيطة وأكد لنا على ضرورتها، كان من المهم أن يحذر من العين الموزعة والقلب المشتت. كأن الرب هنا ينتقل من مريم أخت لعازر؛ مريم صاحبة العين البسيطة التى ما كانت ترى فى الوجود سوى الرب يسوع، إلى مرثا أختها؛ مرثا كثيرة القلق، المهتمة والمضطربة لأجل أمور كثيرة.

٢ - **الجانب الآخر للعملة:** أو كأن الرب بهذه الأقوال يقلب العملة إلى جانبها الآخر. فهناك أشخاص لا يكنزون لأنفسهم على الأرض، ولا يسعون ليكونوا أغنياء، ولا يريدون أكثر من تربية أولادهم وتأمين مستقبلهم. لكنهم وقد أفلتوا من الفخ الشيطانى الأول، وقعوا فى الآخر؛ فتجدهم قلقين. والواقع إن الشيطان يجربنا بالشئ أو عكسه؛ فهو إما أن يشدنا إلى شغل الجمع والتكويم، فنكنز لأنفسنا الكنوز على الأرض التى تأخذ قلبنا إليها، وإما أنه يشغلنا بالغد المجهول، ويجعلنا نبيت فى قلق من جهة المستقبل. وهو فى الحالتين يجعلنا نهتم بأمور العالم وبالتالى تتحول أنظارنا عن المسيح.

٣ - **النتائج والأسباب:** إذ يقول المسيح «لذلك أقول لكم لا تهتموا». وعبارة «لذلك» توضح الارتباط الوثيق بين الأقوال التى تأملناها سابقاً وبين الأقوال التى نحن بصددها الآن. فكثيرون يكنزون لأنفسهم ويكومون الأموال لأنهم يخافون من تقلبات الزمن، وشعارهم تلك الحكمة العالمية (القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود). وهى حكمة أرضية لا علاقة لها قط بالحكمة النازلة من فوق (يع٣: ١٥). ولهذا فإن الرب هنا يصل إلى جذور المرض ليعالجه، ولا يعالج المرض فحسب. فهو لا يحذرنا فقط من أن نكنز لنا الكنوز، بل يصل إلى البواعث الداخلية الدفينة عند البعض. وكأن الله يقول لنا: إن كنتم قد حسمتم الاختيار فاخترتم الكنز السماوى لا الأرضى، والنور لا الظلمة، والله لا المال، فإنى سأقول لكم الآن بعض المشجعات والمواعيد التى تساعدكم فى عيشتكم فى هذا العالم المادى.

لا تهتموا

هذه العظة كما ذكرنا مراراً هى عظة عملية تماماً. وها الرب وهو يتحدث عن سيرنا فى هذا العالم يكرر المرة تلو المرة عبارة «لا تهتموا». لقد ذكرها فى هذه الأقوال التى نتأمل فيها الآن ثلاث مرات. فهو يعرف ضعف بشريتنا ويقدم لنا التحذيرات اللازمة، كما يقدم لنا الوعود المطمئنة. يقول الرب «***لا تهتموا*** لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم

بما تلبسون» (ع٢٥). كما يقول «*فلا تهتموا* قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس» (ع٣١). ثم يكرر ثالثة قائلاً «*فلا تهتموا* للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه، يكفى اليوم شره» (ع٣٤).

وفى العهد القديم يقول المرنم فى المزمور «ألقِ على الرب همك، فهو يعولك» (مز٥٥: ٢٢)، كما يقول الرسول بولس «لا تهتموا بشئ، بل فى كل شئ بالصلاة والدعاء مع الشكر، لتُعلم طلباتكم لدى الله» (فى٤: ٦)، كما يقول الرسول بطرس «مُلقين كل همكم عليه لأنه هو يعتنى بكم» (١بط٥: ٧).

والبشر أكثر ما يميزهم الهم والقلق، كما أن أمراض التوتر والاضطراب هى من الأمراض التى تميز عصرنا الحاضر. لذلك ما أهم هذا التحريض الثلاثى الذى يقوله الرب هنا «لا تهتموا».

طبعاً ليس الخطأ أن يكون لدى الإنسان اهتمام (انظر ٢كو١١: ٢٨)، بل الخطأ أن يكون عنده هم. وليس الخطأ أن يفكر الإنسان فى الغد، بل الخطأ أن يقلق الإنسان من جهة غده.

يذكر الرب هنا أمرين يهتم بهما كل من الغنى والفقير أكثر من غيرهما، أعنى بهما الغذاء والكساء؛ المأكل والملبس. هذا ما نفهمه من أكثر من مكان فى الكتاب المقدس. فأول حرفتين عمل فيهما البشر خارج الجنة؛ قايين عمل فلاحاً فى الأرض ليمد الإنسان بالغذاء، وهابيل عمل راعياً للغنم ليمده بالكساء. ولقد كان هذان الأمران هما ما طلبهما يعقوب الهارب من وجه عيسو أخيه. فما أن استيقظ من النوم الذى فيه رأى الرب فى حُلم حيث وعده الرب فى الحلم بالحفظ حيثما يذهب، نقول إنه بمجرد أن استيقظ من نومه، حصر اهتماماته فى هذين الأمرين؛ الخبز والثياب، فقال «إن كان الله معى... وأعطانى **خبزاً** لآكل **وثياباً** لألبس». وهو عين ما أوضحه الرب فى قصة الغنى الواردة فى انجيل لوقا١٦: ١٩-٣١، ذلك الذى كان يلبس الأرجوان والبز، أما عن طعام مائدته فيذكر لنا أن المسكين كان يشتهى أن يأكل من الفتات الساقط من مائدة ذلك الغنى.

ولازال حتى اليوم كم من أناس يضيعون عمرهم الثمين وهم يدورون فى هذا الفلك، وتفكيرهم لا يخرج خارج هذا الثالوث؛ ماذا يأكلون، وماذا يشربون، وماذا يلبسون.

إن اقتصاد العالم يعتمد بشدة على هذه الأشياء، وعجلته مرتبطة تماماً بهذا الثالوث عينه: المأكل والمشرب والملبس. كم من ثروات تدخل جيوب أصحاب هذه البضائع، بل وكم تدر الإعلانات والدعايات عن هذه الأمور بعينها من دخل عظيم على أصحابها. والإنسان أصبح أسيراً لهذا الثلاثى، عنه تدور المناقشات مع الآخرين، وعنه تدور القراءات فى الخلوة والانفراد! هناك مجلات وكتب ليست بقليلة جعلت قضيتها هذه الأمور الثلاثة بعينها. نعم

لقد قال الرب هذا وهو الصادق «إن هذه.. تطلبها الأمم» - بمعنى تسعى إليها سعياً حثيثاً.

لماذا لا نهتم؟

يذكر الرب هنا سبعة أسباب لعدم الاهتمام سنشير إليها الآن فى عجالة، ثم نلجأ بعد ذلك إلى مزيد من التفاصيل.

أولاً: عدم منطقية الاهتمام

فيذكر فى ع٢٥ أن الحياة التى نحياها هى عطية الله؛ فلا أنا أعطيت الحياة لنفسى، ولا أعطاها لى أحد من الناس، إنما هى عطية الله. وطالما أن الله هو الذى أعطانا الحياة ألا يقدر أن يعطينا مقومات الحياة؟ ثم الجسد، مَنْ الذى أعطانا هذا الجسد؟ أليس هو الله؟ فإن كان هو الذى أعطانا الجسد ألا يستطيع أن يعطينا كساء هذا الجسد؟ «أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس؟» الذى أعطى الأهم ألا يقدر أن يعطى الأقل؟! إنها ذات الحجة التى ذكرها الرسول بولس فى رومية٨: ٣٢ عندما قال «الذى لم يُشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شئ؟!».

ثانياً: عدم معقولية الاهتمام

فيذكر فى ع٢٦ أن الله يعتنى بالطيور وبزنابق الحقول. فإن كان الله يهتم بأبسط خلائقه أفلا يهتم بالأولى جداً بباكورة خلائقه (يع١: ١٨)؟! إن وارثى السماء هم بكل يقين عند الله أفضل وأهم من طيور السماء، فالذى يهتم بالأدنى ألا يهتم بالأولى جداً بالأسمى والأرقى؟! والرب فى هذه الحجة يسير عكس اتجاهه فى الحجة السابقة، لا من الأعلى إلى الأدنى، بل من الأدنى إلى الأعلى.

ثالثاً: عدم صدق هذا الاهتمام

بمعنى أنه يتضمن عنصراً مضللاً، فهو يتبنى الفكرة الخاطئة أن الإنسان مجرد جسد، يلزمه الأكل والشرب، كما لو كان هو آلة أو ماكينة لا تحتاج سوى إلى تشحيمها، ثم مدها بالوقود فتعمل، أو أن جسد الإنسان مجرد شماعة لتعليق آخر ابتكارات الموضة عليها! وهذا وهم قاتل، فالإنسان ليس هذا الإناء الخزفى فقط، ولا هو أهم ما فى الإنسان، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، كما أن أجسادنا ليست شماعة لتعليق الثياب بل هى ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الخالق الوهاب.

رابعاً: عدم جدوى الاهتمام

«ومَنْ منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة» (ع٢٧). والأرجح أن الرب هنا يقصد؛ مَنْ منكم يستطيع أن يضيف ولو أياماً معدودة على عمره؟ يقول المرنم في مزمور٣٩ «جعلت أيامي أشباراً» أيستطيع أحد باهتمامه أن يزيد ذراعاً واحدة فوق هذه الأشبار المحدودة من الله؟ أيستطيع أحد باهتمامه أن يطيل عمره؟ ألم نَرَ أغنياء كثيرين ماتوا في عز شبابهم، ولو كان بيدهم لاشتروا العمر الطويل بالملايين. فما دامت آجالنا في يد خالقنا، وإن كان هو تبارك اسمه الذي حدد بدايتها وهو الذي يحدد نهايتها، فما لزوم القلق؟! كلا لن يزيد الاهتمام في عمر أحد، ولو أنه قد يقصف عمر البعض.

خامساً: لا إيمان في الاهتمام

هنا يضع الرب أصبعه تماماً على موضع العلة، فيوضح أن هذا الاهتمام يشتمل في طياته على قلة الإيمان وعلى عنصر الشك في أمانة الله، أو في صلاحه أو في قدرته. أو فيها جميعاً. فيقول في ع٣٠ «إن كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويطرح غداً في التنور يُلبسه الله هكذا، أفليس بالحري جداً يُلبسكم أنتم يا قليلي الإيمان؟!» أليس عجيباً أن المؤمن الذي وضع ثقته في الله في أمر خلاصه الأبدي يعود فيشك في الله في مسألة أعوازه الزمنية أو اليومية؟ نعم أكرر قائلاً أليس هذا أمراً غريباً حقاً؟!

سادساً: وثنية الاهتمام

فيقول في ع٣٢ «فإن هذه كلها تطلبها الأمم» ونحن نعرف أن الأمم بلا إله وبدون مسيح وبلا رجاء (أف٢: ١٢) وكما حذرنا الرسول بولس من أن نحزن كالباقين الذين لا رجاء لهم (١تس٤: ١٣) فإن المسيح هنا يحذرنا أن نقلق كالأمم الذين لا إله ولا مسيح لهم. فالأمم الذين لا يعرفون الله ليس لديهم سوى هذه المسائل يسعون إليها، أما المؤمن فإنه مثل سيده الذي قال مرة «أنا لي طعام لآكل لستم تعرفونه.. طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله» (يو٤: ٣٢، ٣٤).

سابعاً: عدم لياقة الاهتمام

إذ يقول الرب «لأن أباكم... يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها» أليست هي كلمات عظيمة تملأ النفس بالثقة والرجاء «إن أباكم يعلم». مَنْ هو الله بالنسبة لنا؟ إنه الآب المحب الحكيم. هناك أبيات شعرية بالانجليزية تُترجم كالآتي: قال عصفور لزميله: لماذا نجد البشر

دائماً قلقين؟ أجابه زميله: يبدو أنه ليس لهم أب حنون يعتنى بهم كما يعتنى بنا! مع أن العكس هو الصحيح فعندما تحدث الرب عن الطيور لم يَقُل: أبوها السماوى، بل «أبوكم السماوى يقوتها». فهو ليس أبا الطيور لكنه أبونا. وياله من امتياز أن يصبح الله أبانا. نعم إنه لأجلنا، وليس لأجل الطيور أرسل الله ابنه الحبيب، وبذله على الصليب، لكى لا نهلك بل تكون لنا الحياة الأبدية!

* * * *

والآن هيا بنا من جديد لنلقى نظرة أكثر عمقاً على كلمات الرب يسوع فى الأعداد موضوع دراستنا.

الطيوروالزنابق

لقد قال الرب «انظروا إلى طيور السماء» (ع٢٦)، كما قال أيضاً «تأملوا زنابق الحقل» (ع٢٨). فكأن المعلم العظيم هنا يصحبنا معه إلى رحلة خلوية، ويأخذ أفكارنا كيما نتعلم من خليقته دروساً عظيمة. ألم يَقُل الرسول مرة «الطبيعة نفسها تعلمكم» (١كو١١:١٤)؟ ها هو رب بولس، معلمنا المجيد وسيدنا العظيم يدعونا لكى ننظر إلى الطيور، ونتأمل الزنابق فى الحقول.

لنا إذاً درس من عالم الحيوانات ودرس آخر من عالم النباتات. وإن كان الخالق العظيم يعتنى بكل المملكة الحيوانية والمملكة النباتية (انظر مثلاً مزمور١٠٤)، وإن كان الله هو الذى يحيى الكل (١تى٦:١٣) لكن ربنا يسوع هنا يوجه أنظارنا بصفة خاصة إلى الطيور (العصافير) وإلى الزنابق.

الأولى مجالها الجو والسماء، والثانية مجالها الحقل والأرض. ثم إن الأولى هى أقل الطيور أهمية، والثانية تعتبر من أقل النباتات حجماً.

وطيور السماء بخلاف كثير من المخلوقات الأخرى لا يهتم الإنسان قط بإطعامها، بل على العكس قد يفكر فى اصطيادها وأكلها. وكذلك الزنابق هنا؛ إنها زنابق الحقول أو بالحرى زنابق البرارى، تلك التى لا يعتنى بها أحد وربما لا يراها أحد من وقت أن تنبت حتى تموت.

بالنسبة للطيور هى لا تزرع ولا تحصد ولا إلى مخازن تجمع، كما يفعل الرجال عادة فى الحقل، أما بالنسبة للزنابق فهى لا تتعب ولا تغزل كما كانت تفعل النساء فى ذلك الوقت،

فى البيت (أم٣١: ١٩، ٢٢، ٢٤).

أمّا الدرس الذى نتعلمه من الطيور فهو عدم الاهتمام بما نأكل ونشرب، والدرس الذى نتعلمه من الزنابق هو عدم الاهتمام بالكساء والملبس.

كأن الرب هنا يقول لتلاميذه ارفعوا الأعين إلى فوق ترون الطيور، أو اخفضوها إلى أسفل ترون زنابق الأودية. هذه وتلك تحدثنا عن اهتمام الله العجيب بخليقته، فحق للمؤمن أن يرنم قائلاً:

يكسو الزهور يُحيى الطيور فكيف ينسانى؟!

درس من الطيور

ماذا يقول لنا المعلم العظيم عن الطيور؟ يقول «انظروا إلى طيور السماء؛ إنها لا تزرع ولا تحصد، ولا تجمع إلى مخازن. وأبوكم السماوى يقوتها».

إن الطيور فى ذاتها أضعف من أن تزرع وتحصد وتجمع إلى المخازن. لكن الله الذى خلقها، فى عدم قدرتها هذه، لا ينساها.

وطيور السماء التى كما ذكرنا الآن لا يعتنى الإنسان بأمرها إلا لكى يصطادها، يقول عنها المسيح فى مكان آخر «أليست خمسة عصافير تُباع بفلسين، وواحد منها ليس منسياً أمام الله» (لو١٢: ٦).

وهنا يقول الرب «انظروا إلى طيور السماء» وكأنه يريد أن يقول: هذه الطيور ألا تملأ السماء بأعدادها الهائلة، كما تملأ الجو بأناشيدها المُبهجة. إن الطيور فى الواقع تُعتبر الأنموذج الواضح للمرح والسرور. فهى تبدأ اليوم مع اشراقة الصبح بالتسبيح، وتختم نهارها أيضاً بالتسبيح. تُرى هل يفكر واحد من هذه الطيور فى أمر طعامه؟! أم هل كفت واحدة من هذه المخلوقات الضعيفة عن التسبيح خوفاً من المستقبل، وقلقاً على الغد؟!

والرب فى لوقا ١٢ يذكر نفس هذا الكلام السابق عن الغربان. فهل الله يعتنى أيضاً بالغربان؛ هذه الطيور السوداء النجسة الخطافة؟ أيهتم الله بهذه المخلوقات التى تبدو أكثر أذى للإنسان منها نفعاً له؟ أتحظى هذه أيضاً بعناية الخالق العظيم؟ أجل، فهذا ما ذكره الله لأيوب عندما قال له «مَنْ يهيئ للغراب صيده إذ تنعب فراخه إلى الله وتتردد لعدم القوت» (أى٣٨: ٤١) وهو نفس ما كرره المرنم أيضاً عندما قال «أجيبوا الرب بحمد، رنموا لإلهنا بعود.. المعطى للبهائم طعامها، لفراخ الغربان التى تصرخ» (مز١٤٧: ٧، ٩).

هل يريدنا الرب ألا نعمل؟

طبعاً لا ينبغى أن نفهم من كلمات الرب هنا أنه يشجعنا على التمثل بالطيور فى أنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع، فإن ترتيب الله للإنسان من البداية وحتى قبل السقوط هو أن يعمل (تك٢: ١٥)، ثم بعد السقوط قال له «بالتعب تأكل منها (من الأرض) كل أيام حياتك.. بعرق وجهك تأكل خبزاً» (تك٣: ١٧، ١٩)، وهو ما أكده الرسول بولس فى العهد الجديد أيضاً عندما قال «إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضاً» (٢تس٣: ١٠).

كلا. إن الله لا يريد جماعة من التنابلة، ينامون تحت النخلة فاتحين أفواههم لينزل فيها الرطب. بل وحتى طيور السماء؛ الله لا يملأ أفواهها بالطعام، بل إنه يملأ العالم بخيراته «كلها إياك تترجى لترزقها قوتها فى حينه. تعطيها فتلتقط» (مز١٠٤: ٢٧، ٢٨). فبعض الطيور يأكل الحبوب أو الثمار، وبعضها يأكل الأسماك أو الديدان، وبعضها يتغذى على الجيف. لكن على كل حال كلها تشبع من مائدة الخالق المنان.

كلا. ليس الدرس الذى يريدنا الرب أن نتعلمه من الطيور هو عدم العمل، والاسترخاء، والإعفاء من تحمل المسئولية، بل هو عدم القلق، والهدوء، والتحرر من الهم.

إذاً هيا بنا إلى العمل، لكن لنوقن أن إله السماء يعطينا النجاح (نح٢: ٢٠).

لنعد الفرس، لكن لنعلم أن النُصرة من الرب (أم٢١: ٣١)

ولنبن، لكن لتكن على أفواهنا مقولة حكيم الحكماء «إن لم يبنِ الرب البيت فباطلاً يتعب البناؤون (مز١٢٧: ١).

ولنذهب بالبكاء حاملين مبذر الزرع، لكن أعماق قلوبنا تردد كلمات الرسول بولس «أنا غرست وأبلوس سقى، لكن الله كان ينمى. إذاً ليس الغارس شيئاً، ولا الساقى بل الله الذى ينمى» (١كو٣: ٦، ٧).

وفى كل هذا لنكن متحررين من القلق والهم، متكلين على الرب وحده، عاملين بنصيحة الوحى «توكل على الرب بكل قلبك، وعلى فهمك لا تعتمد. فى كل طرقك اعرفه، وهو يقوّم سُبلك» (أم٣: ٥، ٦).

تأملوا الزنابق!

فى البداية نلاحظ أن الرب هذه المرة لا يقول انظروا إلى الزنابق، كما قال انظروا إلى طيور السماء، بل يقول «تأملوا زنابق الحقل». وربما السر فى هذا أن العصافير وهى فى

حركة دائبة وطيران مستمر لا تمكننا أن نتأملها بعمق، بعكس الزنابق الثابتة في التربة، لذلك فإن الرب هنا يريدنا أن ننظر إلى الزنابق نظرة أعمق. يقول الرب «تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو. لا تتعب ولا تغزل» فالطيور تنتقل من مكان إلى مكان بحثاً عن القوت، وفراخ الغربان تصرخ إلى الله، أما زنبقة الحقل فلا تترك مكانها، ولا هي تملأ الجو بصوت صراخها، ومع ذلك فإنها تنمو، ولا تتوقف في نموها لحظة واحدة. وليس ذلك فقط، بل يقول لنا الرب «ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها».

لقد كان سليمان واحداً من أعظم ملوك الأرض على الإطلاق. وملكة سبا في يومها اندهشت لا من ملابس سليمان، بل من ملابس خدامه وسقاته، فكم بالحري ملابس سليمان نفسه. لكن الرب يوضح هنا أن صناعة البشر التي كان يلبسها سليمان لا تُقارن بصنعة الله؛ فإن مجد سليمان كان مكتسباً وكان صناعياً وكان خارجياً، بينما مجد الزنبقة هو مجد أصيل وطبيعي وداخلي. سليمان كان يكتسي بالصوف أو بالكتان أو بالحرير، وهذه تتكون من خلايا ميتة، أما الخلايا التي تكسو الزنبقة مجداً هي خلايا حية. وفارق كبير بين الموت والحياة!

حق لرجل الله سبرجون أن يقول: أيتها الزنابق الجميلة، كم أنتِ موبخة لعصبيتنا الغبية[٣١]!

* * * *

والآن دعنا نفكر في ما يكسو الزنبقة من مجد وبهاء.

فأولاً: لون الزنبقة الأبيض يجعلها تعبيراً ورمزاً للطهارة؛ أيوجد رداء يكسو الشخص مجداً مثل الطهر والنقاء؟!

ثانياً: مكان وجود هذه النبتة الصغيرة، وهو الأودية، يجعلها رمزاً للاتضاع!

ثالثاً: مكان تكرار الإشارة إلى هذه الزهرة* في الكتاب هو سفر النشيد، حيث تَرِد فيه نحو سبع مرات، وبالتالي فهي تحدثنا عن المحبة.

وهنا نحن نتساءل: ألعل المؤمنين أولاد الله يكتسون بمجد أسمى من مجد الزنبقة الذي أشرنا إليه الآن؟ وهل يكسوهم ما هو أفضل من كساء الزنابق؟ الإجابة هي نعم بكل يقين، بل إن الفارق هائل وعظيم بين المؤمن والزنبقة، والسبب لذلك أن المسيح بنفسه صار كساء المؤمن!

أتحدثنا الزنبقة عن الطهر والنقاء؟ اسمع ما يقوله الرسول بولس «لأنه جعل الذي لم يعرف خطية، خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه (في المسيح)» (٢كو٥: ٢١). فيا للبر والنقاء!

---

* زهرة الزنبقة هي نفسها زهرة السوسن حسب ما وردت في سفر النشيد.

ثم الاتضاع والوداعة. ألا يحرض الرسول بطرس النساء أن يتزين لا بالزينة الخارجية من ضفر الشعر والتحلي بالذهب أو بالثياب المُلفتة، بل بزينة الروح الوديع الهادئ؟ بل ويحرّض المؤمنين جميعاً بالقول «وتسربلوا بالتواضع» (١بط٣:٣، ٤ ؛ ٥:٥). أليس المسيح بنفسه قدوتنا فى ذلك وهو القائل «تعلموا منى لأنى وديع ومتواضع القلب» (مت١١:٢٩)؟ فما أبهى تلك العباءة؛ عباءة الوداعة والتواضع!

ثم المحبة، هى ذات طبيعة الله «الله محبة»، وقد سكب الله محبته الإلهية بالروح القدس المُعطى لنا (رو٥:٥). أتوجد حُلة نرتديها مثل حُلة المحبة التى قال عنها الرسول إنها «رباط الكمال» (كو٣:١٤)؟! إن المسيح نفسه هو نموذجنا الرائع «اسلكوا فى المحبة كما أحبنا المسيح أيضاً وأسلم نفسه لأجلنا قرباناً وذبيحة لله رائحة طيبة» (أف٥:٢).

هذا هو المجد الحقيقى الذى يريد الرب أننا نتزين به؛ رداء البر، وعباءة التواضع، وحُلة المحبة!

اليوم زهور وغداً فى التنور

لكن الرب يختم حديثه بهذا التحذير ذى الدلالة الخطيرة إذ يقول «فإن كان عُشب الحقل الذى يوجد اليوم ويُطرح غداً فى التنور يُلبسه الله هكذا». وهى كلمات كما قلنا خطيرة حرى بنا أن نتدبر معناها الحقيقى.

يصف الكتاب المقدس البشر عموماً بأنهم مثل العُشب، ونجد هذا فى أماكن كثيرة من الوحى فيقول أيوب «الإنسان مولود المرأة، قليل الأيام شبعان تعباً، يخرج كالزهر ثم ينحسم» (أى١٤:١، ٢). كما يقول داود النبى «الإنسان مثل العُشب أيامه. كزهر الحقل كذلك يُزهر. لأن ريحاً تعبر عليه فلا يكون، ولا يعرفه موضعه بعد» (مز١٠٣:١٥، ١٦). وهو نفس ما يؤكده إشعياء النبى «صوت قائل ناد. فقال بماذا أنادى؟ كل جسد عشب وكل جماله كزهر الحقل. يبس العشب ذبل الزهر لأن نفخة الرب هبت عليه. حقاً الشعب عشب. يبس العشب ذبل الزهر، وأما كلمة إلهنا فتثبت إلى الأبد» (إش٤٠:٦-٨). وفى العهد الجديد نجد نفس هذه التشبيهات أكثر من مرة؛ فمثلاً يقول الرسول يعقوب فى رسالته «الغنى .. كزهر العشب يزول. لأن الشمس أشرقت بالحر فيبّست العشب، فسقط زهره وفنى جمال منظره. هكذا يذبل الغنى أيضاً فى طرقه» (يع١:١٠، ١١).

آه، كم من أُناس كانوا بالأمس فى مجد وهمى وطُرحوا اليوم فى التنور، إذ سافروا إلى الأبدية دون توبة وبلا إيمان. واليوم أيضاً كم من أشخاص مُعجبين بأنفسهم ومختالين،

وينسون الحقيقة الأكيدة أنهم في النهاية مجرد عُشب. ويقول المرنم في المزمور «إذا زها الأشرار كالعشب، وأزهر كل فاعلي الإثم، فلكي يُبادوا إلى الدهر» (مز٩٢:٧).

لذلك فإني أوجه التفات القارئ العزيز إلى ذاك الأبرع جمالاً من بني البشر، والأعظم من سليمان، والذي ارتضى لأجل خلاصنا أن يكون «لا صورة له ولا جمال فننظر إليه، ولا منظر فنشتهيه» (إش٥٣:٢)، بل وقَبِلَ أن يدخل إلى تنور غضب الله، وأن يحتمل نار العدل الإلهي الرهيب ليكسونا بمجده الذي فاق مجد سليمان.

إن أقبلت إلى المسيح بالإيمان وقبلته في قلبك سيكون من نصيبك لا حريق التنور ولا حتى أمجاد الزهور، بل سيكون من نصيبك بر الله من الآن، ومجد الله عن قريب.

* * * *

طلبات الأمم وطلباتنا

بعد أن تحدث الرب يسوع في الأعداد السابقة عن الاهتمام والقلق، وكيف يجب أن يتحرر المؤمن من الهم بخصوص الغذاء والكساء، فإن لنا أبا يعنى بالطيور ويكسو الزهور، ونحن في نظر هذا الإله المحب العظيم أفضل من عصافير كثيرة وأهم من عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويطرح غداً في التنور؛ فإنه أوضح السبب في عدم لياقة الاهتمام بالمأكل والمشرب والملبس قائلاً «لأن هذه كلها تطلبها الأمم». والمقصود بالأمم أي الوثنيين الذين لا يعرفون الله، والذين لا تربطهم بالله علاقة المحبة الأبوية .هؤلاء قد يكون لهم العذر في الاهتمام والخوف من المستقبل إذ ليس لهم الإيمان الحقيقي الذي يعطيهم السلطان أن يصيروا أولاد الله، ولا يعرفون المحبة التي أعطانا الآب حتى ندعى أولاده (يو١:١٢، ١يو٣:١)، لكن أي عذر لنا نحن المؤمنين الحقيقيين؟! وإن لم يكن للوثنيون الإيمان الحقيقي بالله، فهل لنا نحن يا ترى الإيمان العملي والفعال؟ قال واحد: إن بداية القلق هو نهاية الإيمان، بينما الإيمان الحقيقي والحي هو نهاية القلق .فكم نحتاج نحن المؤمنين إلى هذا النوع من الإيمان العملي في مسيرتنا اليومية هنا على هذه الأرض.

. لقد حذرنا الرب في أول أصحاح٦ من نوع صلوات الأمم، وها هو يحذرنا في ختام الأصحاح من نوع اهتمام الأمم ومشغوليتهم .وعندما يقول الرب إن هذه تطلبها الأمم فإنه يعني أن الناس تسعى وراء هذه الأمور(من مأكل أو ملبس) سعياً حثيثاً، وأنها موضوع مشغولية حياتهم، وأنهم يطلبونها بكل كيانهم؛ فهم يعيشون ليأكلوا، وشعارهم «لنأكل

ونشرب لأننا غداً نموت» (١كو١٥:٣٢). نعم، إن جل اهتمامهم هو الإنسان الخارج، وموضوع شغلهم الشاغل هو متعة أجسادهم. وقلّما يعيشون للقلب أو للروح. أما المؤمن فإن له نوعاً آخر من الاهتمامات والمشغوليات إذ يقول الرب «لكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبره، وهذه كلها تزاد لكم».

ملكوت الله وبره أولاً

والآن، ما معنى «ملكوت الله وبره»؟

إن التعبير الشائع فى متى ليس «ملكوت الله» بل «ملكوت السماوات»، حيث كان اليهود الذين كتب إليهم البشير متى إنجيله يتوقعون مُلك المسيا عليهم ليحررهم من نير الرومان. أما التعبير «ملكوت الله» فلم يرد فى الإنجيل سوى خمس مرات (مت١٢:٢٨ ، ١٩:٢٤ ، ٢١:٣١، ٤٣)، والمقصود به الجانب الأدبى لحكم الله على البشر، وبر الله يقصد به تجاوب البشر العملى مع حكم الله عليهم.

وأن أطلب ملكوت الله وبره يعنى أن أسأل نفسى دائماً: هل كل تفاصيل حياتى الشخصية، وهل بيتى وعائلتى وكل ما تحت سيطرتى؛ خاضع لسلطان الله؟ وهل أنا فى أدق التفاصيل أراعى بر الله؟

ثم لاحظ أن المسيح لم يقل «اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره»، ثم اطلبوا بعد ذلك الأشياء الأخرى؛ كلا، بل اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره، وهذه كلها تزاد لكم. وكأن الرب يسوع يقول لتلاميذه ولنا نحن أيضاً معهم: كونوا منشغلين فى حياتكم بأمور الله، والله نفسه سيتولى أموركم. فإن كان اهتمامك وطلب قلبك هو ملكوت الله وبره، فإن الله سيعطيك دون تعب أو عناء كل ما تحتاج إليه من طعام الحياة، وكساء الجسد.

لكن كيف يمكننا أن نطلب أولا ملكوت الله وبره؟ كيف يمكننا فهم هذه العبارة؟ يمكننا أن نفهمها بمفاهيم ثلاثة كالآتى:

١- *اطلبوا أولاً*: أى فى المقام الأول .فلا نطلب ملكوت الله وبره كشئ ثانوى، زهيد القيمة، أو كشئ مكمل يمكن الاستغناء عنه، بل نطلبه كشئ ثمين جداً وكشئ حيوى لا تصح الحياة بدونه .اطلبه من كل قلبك (مز١١٩:١-٤).

٢- ثم *اطلبه أولاً* : فليس بعد أن تنتهى من دراستك، وتأخذ وضعك فى وظيفتك، وتستقر فى بيتك ومع أسرتك، وتربى أولادك وتطمئن على مستقبلهم، وبعد أن

تحل مشكلاتك المستعجلة، ساعتها يصبح عندك الوقت لأمور الله. كلا، بل اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره. الله أولاً وكل شئ آخر يأتى بعده. قال الرب «الذين يبكرون إلىَّ يجدوننى» (أم ٨: ١٧)، وقال الحكيم «فاذكر خالقك فى أيام شبابك قبل أن تأتى أيام الشر» (جا ١٢: ١).

٣- ثم «اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره»: أى ابدأ برنامج يومك بأن تصلى إلى الله وبأن تقرأ جزءاً من كلمته. اعط باكورة اليوم لله، وتمتع فى أول النهار بجلسة معه، استمع إليه، واستمتع بحديثه إليك، وحديثك إليه. نعم اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره، وهذه كلها تزاد لكم؛ أى ستحصل عليها دون طلب؛ "فوق البيعة" كما يقولون. ليس فقط دون أن تدفع ثمنها، بل وأيضاً دون أن تنشغل بها!

لا تهتموا للغد... يكفى اليوم شره

ويختم الرب حديثه بهذا التحريض للمرة الثالثة «لا تهتموا»، لكنه يضيف هذه المرة قائلاً «لا تهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه». من هذا يتضح أن القلق عادة لا يكون بسبب الحاضر المعلوم، بل بسبب الغد المجهول .ليس معنى ذلك أن الرب ينهانا عن التفكير فى الغد، فمن المهم أن نفكر فى الغد وأن نستعد له إذا جاء. لكن الرب يحذرنا من الخوف والقلق بالنسبة لأمور الغد.

ما لزوم القلق؟ وما فائدته؟ ولماذا لا تنام ليلتك خوفاً مما سيأتى به غدك؟ ولماذا تجمع فى مخيلتك كل المصاعب الممكن حدوثها، ثم تحس بخيبة الأمل لأنك لن تستطيع التغلب عليها؟ إن الاهتمام والقلق لا يسلبان من الغد أخطاره، بل يسلبان من اليوم فرحه وانتصاره.

ثم تذكر أن الأمس ولَّى وراح ولم يعد بوسعى أن أغير ما حدث فيه، والغد لم يأت بعد، وليس بوسعى أيضاً أن أعرف كيف سيأتى، وعليه فلم يبق أمامى سوى الحاضر الذى أعيش فيه. فلأعشه فيما يمجد الله، ولأحذر من أن تضيع هذه الفرصة الثمينة فى أن أعمل ما فى طاقة يدى لخدمة سيدى.

لقد قال الحكيم «لا تفتخر بالغد» (أم ٢٧: ١)، أما الحكمة نفسه فقال «لا تهتموا للغد». كلنا مسافرون صوب الأبدية، والمسافر الحكيم لا يجمع فى مخيلته كل الحجارة المبعثرة على طول طريق رحلته، ويكومها جبلاً عالياً يمنع المرور، ثم يقول بحزن: لن يمكننى مهما أوتيت من القوة اجتياز هذا الجبل الجاثم أمامى. بل إن المسافر الحكيم أيضاً لا يحاول عبور القنطرة

قبل بلوغها. أما المؤمن الحكيم فإنه يثق فى وعود الرب الكثيرة والمشجعة، ومن ضمن هذه الوعود «لا يدع رجلك تزل» (مز١٢١:٣)، وأيضاً «لا تصدم بحجر رجلك» (مز٩١:١٢)، وأيضاً «لا تخف لأنى معك، لا تتلفت لأنى إلهك. قد أيدتك وأعنتك وعضدتك بيمين برى» (إش٤١:١٠).

فى إنجيل يوحنا ١١ علمنا المسيح درساً عظيماً ما أحوجنا إليه. فإنه لما عقد النية ليذهب إلى بيت عنيا ليقيم لعازر من الأموات، واعترض التلاميذ خوفاً على حياة معلمهم من مكايد اليهود، فإنه أجابهم: «أليست ساعات النهار اثنتى عشرة؟» والمعنى المباشر لهذه الآية التى قد تبدو غامضة إلى حد ما هو لماذا تخافون من الغد المجهول؟ ولماذا تقلقون لما يمكن أن يحدث لنا بعد أيام؟ ألا يكفى اليوم شره؟ إن علينا اليوم أن نعمل تاركين أمر الغد للغد نفسه، فالغد يهتم بما لنفسه، ويكفى اليوم شره.

نعم، «يكفى اليوم شره»؛ فاليوم الواحد يحمل معه من المتاعب والمشكلات ما يكفى لليوم. أما أن تستعير من الغد بعض متاعبه ومشكلاته فهذا يجعل يومك لا يحتمل. وكما أن شرور الأيام تتجدد مع الأيام، هكذا أيضاً مراحم الرب وأمانته من نحونا. قال داود فى مزموره الشهير «إنما خير ورحمة يتبعاننى كل أيام حياتى» (مز٢٣:٦)، وقال أيضاً «رحمة الله هى كل يوم» (مز٥٢:١)، وقال إرميا «أنه من إحسانات الرب أننا لم نفن، لأن مراحمه لا تزول. هى جديدة فى كل صباح. كثيرة أمانتك» (مرا ٣:٢٢،٢٣).

ومن كل ذلك نخلص أنه لا داعى للاهتمام والقلق بالنسبة للغد، كقول ربنا المعبود هنا «لا تهتموا للغد»، فقد لا يأتى الغد علينا، إذ قد يأتى المسيح اليوم فلا نشاهد الغد. ثم إننا لا نعرف ماذا سيحدث غداً، فقد يأتى الغد ولا يأتى معه شرور. أما إذا أتى الغد وشروره فإننا متأكدون أن الله سيكون معنا فيها، وسيمدنا بالعون المناسب، ونعمته ستكفينا، وفى هذه جميعها سيعظم انتصارنا بالذى أحبنا.

أجهـلُ المستقبلاتِ أجهـلُ ما سيكونْ
إنمـا أعلـمُ أن ربـى لـى أبٌ حنونْ
فهـو يُعنـى بالطيور وكـذا يهتـم بـى
دمـه يكفينـى ستـراً روحُـه يمـلأنـى

لسـت أدرى مـا يكـونُ مـن حيـاتـى فـى الغـدِ
أعلـمُ شيئـاً يقينـاً ربـى ممسـكٌ يـدى

علينا أن نتذكر أنه رغم أننا شعب سماوى، فإن لنا ارتباطات أرضية محددة بوضوح فى أعظم كل العظات التى تتحدث عن السلوك البشرى"[31]

[هـ. أ. أيرنسايد]

القسم السادس

علاقات تلميذ المسيح

مت ٧ : ١ - ١٢

- لا تدينوا لكى لا تدانوا
- الكلاب والخنازير
- اسألوا.. اطلبوا.. اقرعوا
- القانون الذهبى

٣١

لا تدينوا لكى لا تدانوا

"لا تدينوا لكى لا تدانوا، لأنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون، وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم. ولماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك، وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها؟ أم كيف تقول لأخيك دعنى أخرج القذى من عينك وها الخشبة فى عينك؟! يا مرائى أخرج أولاً الخشبة من عينك، وحينئذ تبصر جيداً أن تخرج القذى من عين أخيك".

(مت٧: ١-٥)

انتهينا فى الفصل السابق من الأصحاح الثانى من موعظة الجبل، هذه الموعظة العظيمة والتى كما فهمنا سابقاً تنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية:-

ص٥: علاقة المسيحى بالناموس

ص٦: علاقة المسيحى بالعالم

ص٧: علاقة المسيحى بالناس

أو بكلمات أخرى:

نجد فى أصحاح ٥ قوة الروح القدس لتتميم حكم الناموس؛ أى مطلبه البار.

ثم فى أصحاح ٦ نجد الله الآب الذى يفصلنا عن العالم.

ثم فى أصحاح٧ الإنسان تحت حكم المسيح وسيادته؛ المسيح الذى يحكم على خاصته

الذين قبلوا أن يدخلوا تحت ملكوته، ويخضعوا لربوبيته. ولو أنه بعد قليل لابد أن يحكم على جميع الناس كما سنرى ونحن ندرس هذا الأصحاح العظيم.

* * * *

والقول الذى به يفتتح هذا الفصل كثيراً ما أُسيء استخدامه. فهو لا يعني - كما فهم البعض - أن المسيحية لا تعترف بالأحكام البشرية، فهناك ثلاثة أنواع من الأحكام تقر بها المسيحية هي:

١- **الأحكام المدنيـة** بكل أنواعها كما يشير الرسول بولس فى رومية ١٣، وأيضاً فى تيطس٣: ١. فتدبير الحكومات هو من وضع الله (تك٩)، وهو لازال قائماً إلى اليوم.

٢- **الأحكام الكنسية** بين الأخ وأخيه، كما ذكر الرب بنفسه فى هذا الإنجيل أصحاح ١٨: ١٥-١٨، وأيضاً ما أشار إليه الرسول بولس فى ١ كورنثوس ٦، وكذلك الأحكام الكنسية بالقبول والعزل (مت١٨: ١٨، ١ كو٥: ١٢، ١٣)

٣- **الأحكام الشخصية**: وفى هذا قال الرب «لا تحكموا حسب الظاهر بل **احكموا** حكماً عادلاً» (يو٧: ٢٤). بل حتى فى هذه العظة أشار المسيح إلى هذه الأحكام الشخصية عندما قال «لا تعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير» (ع٦)، وقال أيضاً فى ع١٥ «احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان»، وكأن المسيح يفترض فى أتباعه ألا يأخذوا بالمظاهر ويُخدعوا بها، ولا أن يصدقوا كلام الناس على علاته، بل أن تكون لهم الفطنة الروحية للتمييز. وفى هذا قالت ليدية لبولس وسيلا «إن كنتم قد **حكمتم** أنى مؤمنة بالرب فادخلوا بيتي» (أع١٦: ١٥)، كما قال الرسول بولس أيضاً «أقول كما للحكماء **احكموا** أنتم فى ما أقول» (١كو١٠: ١٥)، وأيضاً «وأما الروحى **فيحكم** فى كل شئ وهو لا يُحكم فيه من أحد» (١كو٢: ١٥).

فإذا لم يكن هذا هو المقصود من القول «لا تدينوا»؛ ترى ماذا كان يقصد الرب من تحذيره لتلاميذه بهذه العبارة؟

بمقارنة أقوال الكتاب المقدس معاً يمكننا أن نرى سبعة أنواع على الأقل من الإدانة الخاطئة، والتى يجب علينا أن نتجنبها.

١- **حكم النوايا**: يحذرنا الكتاب المقدس من الحكم على دوافع الآخرين. فنحن إن كان يجوز لنا أن نحكم على تصرفات الناس وأفعالهم فى ضوء الحق الإلهي،

لكن ليس لنا أن نحكم على السرائر والنيات. يقول الكتاب «السرائر للرب إلهنا. والمعلنات لنا» (تث٢٩:٢٩). لقد استعمل الشيطان هذا النوع من الحكم عندما طعن فى بواعث بر أيوب أمام الله إذ قال للرب «هل مجانا يتقى أيوب الله؟ أليس أنك سيجت حوله وحول بيته وحول كل ما له من كل ناحية؟» (أى ١:٩ ، ١٠). فأن تحكم إذاً على نوايا الآخرين وبواعثهم فهذا حكم شيطانى يجب علينا أن نبتعد عنه وأن نتجنبه نهائياً.

٢- **حكم التعالى**: فالرب خلال كل عظة الجبل هذه يحذرنا من ممارسات الكتبة والفريسيين. ولنا أن نسأل: ما هو نوع الإدانة التى كان يمارسها الكتبة والفريسيون مع الناس؟ لقد كانت أحكامهم يصبغها البر الذاتى بصبغته القاتمة، إذ كانوا ينتقدون الآخرين، بل ويحتقرونهم. أليس هذا ما نجده فى مثل الفريسى والعشار الوارد فى لوقا ١٨:٩، والذى قاله الرب لقوم واثقين بأنفسهم أنهم أبرار ويحتقرون الآخرين؟ هذا النوع من الإدانة؛ إدانة التعالى على الآخرين مكروه عند الله تماماً (لو١٦:١٥). وفى هذا يرد كلام الرسول بولس «من أنت الذى تدين عبد غيرك» (رو١٤:٤).

٣- **حكم المرائين**: وهو حكم أولئك الذين مع أنهم يكونون واقعين فى نفس الخطأ أو خطأ أكبر، فإننا نجدهم عنفاء فى إصدار الأحكام على الغير. فى هذا يقول الرسول بولس «أنت بلا عذر أيها الإنسان كل من يدين. لأنك فى ما تدين غيرك تحكم على نفسك. لأنك **أنت الذى تدين تفعل** تلك الأمور بعينها». ونحن نذكر بالأسف أن الأشرار ليسوا هم فقط المعرضين لهذه الخطية (يو٨:٣ -٩) بل أتقى الرجال أيضاً كما حدث مع رجل الله داود؛ فمع أنه كان واقعاً فى شر خطير، إلا أنه أصدر حكماً قاسياً على الرجل الذى ذبح نعجة قريبه (٢صم١٢:١-١٢). بل إننا جميعاً عرضة لأن يكون لنا مكاييل مختلفة نقيس بها الأمور، عندما يكون لها علاقة بنا أو بمن نحبهم، وعندما يكون لها علاقة بباقى الناس. ولعل هذا النوع من الإدانة هو بالذات الذى كان يعنيه الرب هنا، إذ يستطرد الرب قائلا «أم كيف تقول لأخيك دعنى أخرج القذى من عينك، وها الخشبة فى عينك».

٤- **حكم العجلة**: وفى ذلك تأتى كلمات الحكيم «من يجيب عن أمر قبل أن يسمعه فله حماقة وعار» (أم ١٨:١٣)، فهذا النوع من الأحكام إذا هو أحكام الحمقى. على العكس من ذلك أكد الناموس أنه يجب التأكد تماماً من الأخبار الرديئة التى

تصلنا عن اخوتنا (تث١٣:١٢-١٤ ، ١٧:٢-٤) وقال نيقوديموس إن ناموسنا لا يدين إنساناً قبل أن يسمع منه أولاً (يو٧:٥١). بل إن الرب نفسه قبل أن يصدر حكمه النهائى على سدوم أرسل إليها ملاكين ليرى هل تفعل بالتمام حسب صراخها الآتى إليه؛ وكأنه يريد أن يعطيها فرصة لتتبرر، إن كان هذا ممكناً (تك١٨: ٢٠-٢٢).

٥- **حكم التعصب وسوء الظن:** وهو نوع الحكم الرديء الذى وقع فيه حانون ملك بنى عمون (٢صم ١٠). فلما أرسل إليه داود معزين ليعزيه عن أبيه، فإن مستشارى الملك أوحوا لملكهم أن هؤلاء إنما أرسلهم داود ليتجسسوا المدينة، فأهانوا الرسل، الأمر الذى تسبب عنه حرب بين عدة بلاد قتل فيها الكثيرون، ومن هذا نتعلم أن سوء الظن والأحكام المسبقة تجعلنا نندفع فى قراراتنا ونخطئ فى أحكامنا.

٦- **حكم البر الزائد:** فما لم يحكم الكتاب عليه حكماً واضحاً دعنا لا نندفع نحن ونصدر أحكامنا عليه. فى هذا يقول سليمان الحكيم «لا تكن باراً كثيراً، ولا تكن حكيماً بزيادة، لماذا تخرب نفسك؟!» (جا٧:١٦).

٧- **الحكم النهائى:** يحذرنا الوحى أيضاً من إصدار الأحكام النهائية على الأشخاص. نحن لسنا مفوضين لذلك. فالله يقدر أن يخلص أشر الخطاة، وفى آخر لحظة. ثم إنه هو وحده الذى يعرف دوافع الناس وأعماق النفس. فمع أنه مطلوب منا أن يكون لدينا قدرة على التمييز بين الأفعال الصواب والخطأ، لكن لنحذر من أن نصدر أحكامنا النهائية على الأشخاص أنفسهم، فهذا عمل الله وحده. فى هذا قال الرسول بولس «إذاً لا تحكموا فى شئ قبل الوقت حتى يأتى الرب الذى سينير خفايا الظلام ويظهر آراء القلوب، وحينئذ يكون المدح لكل واحد من الله» (١كو٤:٥).

* * * *

والآن بعد أن عرفنا أنواع الإدانة التى يحذرنا الرب منها فى الكتاب المقدس، نريد أن نعرف لماذا قال المسيح هذه العبارات عند هذه النقطة بالذات؟ والإجابة أن الرب كان قد قدم فى الأصحاحين السابقين العديد من التحريضات والتحذيرات لتابعيه. لكنه، وهو الخبير بما فى قلوب البشر، علم أن هناك ثمة خطورة من الجانب الآخر قد يقع فيها التلميذ. فالمؤمن عادة لو نجح فى إتمام ما طلبه الرب منه فى الفصلين السابقين، سيكون معرضاً للتعالى على

إخوته، وذلك عندما يفتح عينيه على الآخرين فيرى كيف يتسابق غيره إلى أمور العالم، أو كيف يكدس غيره الكنوز اتقاء لشرور المستقبل. وفى هذه الحالة قد ينظر إلى الآخرين نظرات التعالى، بل ربما نظرات الإدانة باعتبار أنه هو أفضل منهم. لهذا جاءت كلمات المسيح التحذيرية هنا «لا تدينوا لكى لا تُدانوا».

تحذير المسيح الخطير

يستطرد المسيح كلامه التحذيرى السابق بهذه العبارات القاطعة «لأنكم بالدينونة التى بها تدينون تُدانون، وبالكيل الذى به تكيلون يُكال لكم». ونظراً لخطورة هذا الكلام فقد كرره المسيح فى أكثر من مناسبة (مر٤: ٢٤، لو٦: ٣٨). ويمكننا أن نفهم كلام الرب هذا فهماً ثلاثياً، مبنياً على الحقيقة الأساسية فى هذا الفصل وهى أن المسيحى يعيش تحت حكم المسيح:

أولاً : هذا قانون طبيعى لا يقدر إنسان ما أن يفلت منه. إنه يُشبه قانون الزرع والحصاد الذى ذكره الرسول بولس فى غلاطية٦: ٧ «لا تضلوا. الله لا يُشمخ عليه. فإن الذى يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضاً». ولازال الذهن يحتفظ بذكرى أناس أصدروا أحكام إدانة قاسية على آخرين، كان القصد منها التشفى فيهم، أو ربما لكى يعلّوا من شأنهم هم على حساب سقطات الآخرين، ولم تمر فترة طويلة حتى شربوا هم من نفس الكأس التى أرادوا أن يسقوا الآخرين منها! وهو عين ما عبَّر عنه داود فى المزمور السابع بقوله «كرا جباً. حفره فسقط فى الهوة التى صنع» وذلك بعد أن ذكر أن الله ديان وقاض وبار (مز٧: ٨، ٩، ١١، ١٥). فلنحذر لئلا نغدر!

ثانياً : وبالإضافة إلى هذا المبدأ العام الذى يخضع له كل البشر، باعتبار الله متسلطاً فى مملكة الناس (دا ٤: ٢٥، ٢٦)، فإن المؤمن أيضاً تحت حكم المسيح المباشر الآن كما نفهم من رؤيا ١ حيث يُرى المسيح وهو يمارس حكمه الآن فى وسط الكنيسة. فى هذا يقول الرسول بطرس «لأنه الوقت لابتداء القضاء من بيت الله» (١بط٤: ١٧). وعليه فإن مَنْ يدين غيره إدانة خاطئة سيعرِّض نفسه لحكم المسيح عليه الآن (١كو١١: ٣١، ٣٢).. ونرى شيئاً من هذا حتى فى العهد القديم عندما أصدر أصحاب أيوب حكمهم القاسى على صاحبهم فتعرضوا للوم الرب وتوبيخه (أى٤٢: ٧-٩). وفى هذا يقول الرسول يعقوب «لا يئن بعضكم على بعض أيها الإخوة. لئلا تُدانوا هوذا **الديان** واقف قدام الباب» (يع٥: ٩). ولو تغلغل هذا الفكر فى أعماقنا كم سيجعلنا نسير زمان غربتنا بخوف (١بط١: ١٧).

ثالثاً : أن المؤمن سوف يقف أمام كرسى المسيح فيما بعد، ولهذا فيجب عليه أن يمتنع عن إدانة الآخرين الآن. وفى هذا يقول الرسول بولس «أما أنت فلماذا تدين أخاك؟.. لأننا جميعاً سوف نقف أمام كرسى (الله)... فإذاً كل واحد منا سيعطى عن نفسه حساباً لله. فلا نحاكم أيضاً بعضنا بعضاً» (رو١٤: ١٠-١٣). ويقول الرسول أيضاً «إذاً لا تحكموا فى شئ قبل الوقت حتى يأتى الرب الذى سيُنير خفايا الظلام ويُظهر آراء القلوب. وحينئذ يكون المدح لكل واحد من الله» (١كو٤: ٥).

كم سنحتاج فى يوم الدينونة هذا إلى رحمة من الرب (٢تى١: ١٨)، ولن يجد الرحمة فى ذلك اليوم إلا الذى أظهرها اليوم فى تعامله مع الآخرين (يع٢: ١٣، مت٥: ٧). وهو الحق الذى ينبغى أن يسيطر على سلوكنا من الآن ترقباً ليوم الوقوف أمام الرب الديان. (انظر أيضاً ١كو٣: ١٣، ٢كو٥: ١٠).

القذى والخشبة

يستطرد الرب قائلاً «ولماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك، وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها؟». وهى صورة كاريكاتورية تصويرية، تُشبه قول الرب مرة عن الفريسيين إنهم يصفوّن عن البعوضة ويبلعون الجمل. والمقصود بكلام الرب هنا: لماذا تركز على أصغر الأخطاء فى أخيك، بينما تتغاضى عن أكبر الأخطاء التى فيك؟ لماذا تُسرع بحماس زائد لإدانة غيرك، وتبطئ فى غير مبالاة مع أخطائك أنت؟! لماذا شعارك ما قالته العروس عن نفسها «جعلونى ناطورة الكروم، وأما كرمى فلم أنطره» (نش١: ٦).

ثم يقول الرب «أم كيف تقول لأخيك دعنى أُخرج القذى من عينك وها الخشبة فى عينك؟». والقذى والخشبة لهما معنى مجازى وأدبى مرتبط بحالتنا. فالزلة التى وقع فيها أخونا تعتبر مثل القذى، أما روح النقد التى تتملكنا أحياناً ورغبتنا فى تصيّد الأخطاء بروح الرياء فإنهما يمثلان الخشبة. وكأن الرب يقول هنا: عالج أولاً روح التعالى والنقد التى تتملكك، فهذه أردأ بكثير من الزلة التى قد يكون أخوك قد وقع فيها، وعندئذ سيمكنك أن تصلح بروح الوداعة ذاك الذى انسبق وأُخذ فى الزلة.

وهذا ما نفهمه من كلمة الرب هنا «يا مرائى؛ أخرج أولاً الخشبة من عينك». والرب لا يقصد بالضرورة من قوله يا مرائى أن الشخص الذى يفعل ذلك غير مؤمن، بل لعلها تُشبه قول الرب لبطرس مرة «يا شيطان. أنت معثرة لى» (مت١٦: ٢٣). فلو لم يكن هذا

الشخص مؤمناً، لما اهتم الرب بأن يوجهه لاصلاح الآخرين؟! وغنى عن البيان أن المؤمن أحياناً فى مسألة الإدانة يكون مرائياً كيما يظهر للناس أنه زكى وبلا لوم (انظر ٢صم١١، ١٢، لاسيما ١٢: ٥، ٦).

التصرف الروحى

يواصل الرب كلامه قائلاً «يا مرائى أخرج أولاً الخشبة من عينك، وحينئذ تبصر جيداً أن تُخرج القذى من عين أخيك».

من هذا نفهم أن الرب لم يقصد مطلقاً أن يقول لتلميذه «خليك فى حالك» أو «مش شغلك». فالمحبة الأخوية تحتم علينا إصلاح الأخ المخطئ. ورسالة يعقوب التى حذرتنا أكثر من غيرها من انتقاد الإخوة أو إدانتهم لا تُختم إلا بهذا التحريض الثمين «أيها الإخوة: إن ضل أحد بينكم عن الحق فردَّه أحد، فليعلم أن مَنْ ردّ خاطئاً عن ضلال طريقه يخلّص نفساً من الموت، ويستر كثرة من الخطايا» (يع٥: ١٩، ٢٠).

كلا ليس المطلوب أن نرى الشر فى إخوتنا فنغمض عيوننا لنريح ونستريح. فى هذا يقول الناموس «لا تبغض أخاك فى قلبك. انذاراً تنذر صاحبك ولا تحمل لأجله خطية» (لا١٩: ١٧). ومنه نفهم أن عدم انذار الأخ المخطئ هو البغضة الحقيقية وليس العكس. فماذا تقول عن شخص رأى الدخان يتصاعد من نافذة جاره، لكنه لم يُرِد أن يعكر صفوه، وانتظر لعل النار تخمد من ذاتها، أو لعل صاحبه يكتشف النار بنفسه، حتى أتت النار على نصف محتويات بيته؟! أليس السكوت فى هذه الحالة يُعتبر اشتراكاً فى الذنب؟!

لكن تُرى مَنْ هو الشخص الروحى الذى يصلح لمعالجة أخطاء إخوته؟ أليس هو الشخص الذى تدرب فى خلوته الفردية مع الرب ألا يستخف بخطاياه الشخصية؟ إن الشخص الروحى، الذى لايشفق مع نفسه، والذى يحكم على ذاته فى نور محضر الله، هو الذى يملك البصيرة الروحية لعلاج أخيه. سيحاول هذا الأخ الروحى الذى تدرب فى السر أن يحكم على الشر فى نفسه، نقول إن هذا الأخ سيحاول أن يُخرج القذى من عين أخيه، أى سيحاول أن يساعده لا أن ينتقده.

وبحكمة اختار الرب هذا التشبيه: اخراج القذى من العين. فإن العين هى أكثر الأعضاء حساسية. والتعامل معها يحتاج إلى طبيب ماهر لا إلى جزار. نعم فنحن عندما نذهب لنصلح خطأ فى أحد إخوتنا. علينا أن ندرك أننا نلمس نقطة حساسة جداً، واصلاحك إياها يحتاج إلى منتهى الحذر والرقة واللطف معاً، وإلا فإن الضرر الممكن أن يحدث هو ضرر كبير

وخطير أكبر بكثير من وجود القذى فى العين!

لكن قبل اخراج القذى من عين الأخ، يلزمنا أولاً شئ آخر. يقول الرب «أخرج أولاً الخشبة من عينك». ولكى نزيل الخشبة من عيوننا نحتاج إلى ما هو أكثر جداً من مجرد نظرة عابرة إلى المرآة، أو أن ننظر إليها ثم ننسى ما نحن. إنها تحتاج إلى وقفة طويلة أمام مرآة الكلمة، وتطبيق كلمة الله على أنفسنا بتأنٍ وصبر، وبعد أن نتأمل فيها بدقة فإننا نغتسل فى مائها.

٣٢

الكلاب والخنازير

"لا تعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير، لئلا تدوسها بأرجلها، وتلتفت فتمزقكم"

(مت٧:٦)

كان المسيح طوال عظة الجبل قد ركز على ضرورة أن يُظهر تلاميذه النعمة فى تعاملاتهم مع الآخرين، فحرضهم على محبة القريب كالنفس، بل وعلى محبة الأعداء أيضاً، وأوضح لهم أنهم ينبغى أن يُظهروا صفات أبيهم الذى فى السماوات؛ ذاك الذى يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين. بل إنه فى الأقوال السابقة لآيتنا هذه مباشرة كان قد حذر من إصدار حكم الإدانة على الآخرين. ونظراً لجنوح الإنسان دائماً للتطرف يميناً أو يساراً، فإن الرب تبع هذه الأقوال مباشرة بالأقوال موضوع دراستنا الآن، محذراً تلاميذه من عدم التمييز بين الناس، وإساءة فهم معنى النعمة. وكأن المسيح بهذه الأقوال المباركة يمسك الطرف الآخر للخيط الذى أمسكه فى الأعداد الأولى من هذا الأصحاح، الذى افتتح بهذه الكلمات الفاحصة «لا تدينوا لكى لا تُدانوا..». فحتى لا يتطوح أحد إلى الجانب الآخر ويعتبره مظهراً للروحانية أن لا يميز بين شخص وآخر، فإن الرب هنا يقول «لا تعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير، لئلا تدوسها بأرجلها، وتلتفت فتمزقكم».

ولعله من المُلفت أن الرب الذى حذر فى بداية هذا الفصل، فى خمس آيات، من روح النقد والإدانة، حذر فى آية واحدة فقط من خطر التسامح الزائد الذى يقود إلى عدم التمييز. وكما ذكر أحدهم إن النسبة هنا تنطق بما لا يخطئه أحد أين يكمن الخطر الأكبر علينا، حتى ولو كان الخطر يوجد على كلا الجانبين.

الكلاب والخنازير

كان الرب قد قال فى مناسبة أخرى عن هيرودس إنه ثعلب (لو١٣:٣٢)، وعن الكتبة والفريسيين إنهم حيات وأولاد أفاعٍ (مت٢٣:٣٣)، ها هو هنا يقول عن بعض الناس إنهم كلاب وخنازير. ولعل واحداً يتساءل: لماذا اختار الرب الكلاب والخنازير ليشبه بهم الأشرار فى هذه الآية؟ والإجابة البسيطة والمباشرة على ذلك أن هذين النوعين من الحيوانات كانا من الحيوانات المكروهة عند اليهود، وبحسب شريعة موسى من الحيوانات النجسة؛ فالكلب محرّم إدخال ثمنه إلى بيت الرب (تث٢٣:١٨)، والخنزير محرم أكله أو تقديمه على مذبح الرب (لا١١:٧)، وفى أكثر من موضع فى أسفار العهد القديم اعتبر الكلب نموذجاً لأردأ الصفات، واعتبر الخنزير مثالاً لأنجس الطباع (٢صم١٦:٩، مز٨٠:١٣، أم١١:٢٢، ٢٦:١٧، إش٥٦:١٠، ٦٥:٤).

وهكذا نرى أن الكلاب والخنايز كانت موضع احتقار خاص عند سامعى أقوال المسيح فى ذلك اليوم.

وبهذا فقد اعتبر المسيح أن هناك أشخاصاً هم أقرب إلى الحيوانات منهم إلى البشر (قارن مزمور٤٩:١٢، ٢٠)، وليس ذلك فقط بل إنهم حيوانات بعادات قذرة، فهو لا يشبّههم كما فعل إشعياء بالثور والحمار (إش١:٣)، بل بالكلاب والخنازير. فى الكلاب نجد صورة للقسوة وفى الخنازير صورة للنجاسة. الفريق الأول يمثلهم مَنْ يقاومون الحق ويرفضونه والفريق الثانى يمثلهم مَنْ يحتقرون الحق ويدوسونه!

القدس والدرر

غنى عن البيان أن الرب هنا لا يقصد بالقدس والدرر بشارة الإنجيل، تماماً كما لا يقصد بالكلاب والخنازير مجرد الناس الخطاة، فأمر الرب الصريح لتلاميذه، ولنا من بعدهم، أن نحمل بشارة الإنجيل إلى العالم أجمع (مر١٦:١٥)، وطبعاً الخاطئ لن يتغير ما لم تصل

إليه كلمة الحق (يع١: ١٨). ثم إن بعض المؤمنين كانوا قبلاً يحملون أردأ الصفات من نجاسة وشراسة (١كو٦: ٩-١١)، وبالتالى تمثلهم كل أنواع الحيوانات (أع١٠: ١١-١٥)، لكن النعمة الغنية خلصتهم.

فما هو القدس وما هى الدرر إذاً؟ القدس يشير فى الأساس إلى ما كان يقدم على المذبح لله، ويمكننا أن نرى فيه أى شئ خاص بالله أو مسيحه (إش٦: ٣. رؤ٤: ٨)، أما الدرر (اللآلئ) فإنها الأمور السامية المرتبطة بشعب الله والمركز الرفيع الذى يتمتعون به (مت١٣: ٤٥، ٤٦، رؤ٢١: ٢١). يمكننا اعتبار القدس مجموعة الحقائق المختصة بالله بحسب إيماننا الأقدس (يه٢٠)، والدرر هى الحقائق السامية والمجيدة الخاصة بكنيسته. هذه الأمور المقدسة والثمينة والغالية لا تقدم للكلاب ولا للخنازير.

كلمة الله تعلمنا أن مَنْ يرفض الحق فى شراسة، أو يحتقره فى نجاسة لا نقدر أن نوجه إليه إلا كلمات التوبيخ والتحذير ليس إلا. تماماً كما توجه الحكمة نداءها المؤثر فى أمثال ١ «إلى متى أيها الجهال تحبون الجهل، والمستهزئون يُسرّون بالاستهزاء والحمقى يبغضون العلم؟» من ثم تقدم إلى هؤلاء دعوة مخلصة «ارجعوا عند توبيخى. هأنذا أفيض لكم روحى، أعلمكم كلماتى» فالحكمة لن تعلمهم كلماتها إلا إذا رجعوا أولاً عند توبيخها. نعم إذا اتضع الشخص أمام الله وانسحق وشعر بذنبه وحماقته فإننا بعد ذلك، أى بعد أن يصبح من شعب الله، يمكننا أن نقدم له الأشياء المقدسة والثمينة؛ القدس والدرر.

وممكن التوسع فى هذا المبدأ، فبحسب كلمة الله لا ينبغى أن نقدم النصيحة إلا لمن يقدرها (أم٩: ٨، ٢٣: ٩)، ولا تقدم الحقائق الإلهية السامية إلا لمن يكون مؤهلاً لتقبلها (١كو٣: ١-٣، عب٥: ١١-١٤، يو١٦: ١٢). ثم إننا فى تعاملنا مع النفوس علينا أن نميز بين شخص وآخر «ارحموا البعض مميزين، وخلصوا البعض بالخوف» (يه٢٢، ٢٣).

دروس من العهد الجديد

وليمكننا فهم هذه الآية جيداً لنرجع إلى قدوتنا الأعظم؛ ربنا يسوع المسيح لنتعلم كيف تصرف فى حياته هنا فوق الأرض. سنجد أن المسيح كان إذا رأى الإخلاص فى السائل يجاوبه، وأما الأحمق فكان يجاوبه حسب حماقته (راجع على سبيل المثال لو١٠: ٢٥-٣٧، مت ٢١: ٢٣-٢٧).

وإننا نتذكر موقفاً مع شخص مُشبَّه بالكلب؛ هو بيلاطس البنطى الوالى (مز٢٢: ٢٠)، ذاك الوالى الذى فى شراسته مرة خلط دماء بعض الجليليين بذبائحهم. لقد وقف رب المجد

أمام ذلك الأممى القاسى القلب ليُحاكم. ومع أن الوالى اقتنع ببراءته، وسجلت البشائر عنه شهادات سبعاً وردت فى الأناجيل تعترف بأن المسيح بار، إلا أنه مع ذلك، ولكى يُرضى اليهود قال لهم «أنا أؤدبه وأطلقه». وأخذ يسوع وجلده تلك الجلدات القاسية والـمُرعبة. ولذلك فإنه بعد ذلك عندما سأل الرب يسوع «لم يعطه جواباً» (يو١٩:١٠، ٩)، ولم ينطق أمامه سوى بهذا النطق الخطير «لم يكن لك علىَّ سلطان البتة لو لم تكن قد أُعطيت من فوق، لذلك الذى أسلمنى إليك له خطية أعظم».

وهناك شخص آخر مُشبّه بالخنزير، هو هيرودس الملك. لقد حوكم المسيح أيضاً أمام ذلك الأدومى المستبيح، ابن عيسو المستبيح، ذلك الشهوانى العائش فى خطية النجاسة والزنا، والذى احتقر مرة صوت المعمدان المجلجل «لا يحل أن تكون لك امرأة أخيك»، فإذا به يسجن ذلك النبى العظيم، وبعد ذلك، وإرضاء لراقصة فاجرة قطع رأس المعمدان أعظم المولودين من النساء. نعم ذلك الشخص العائش فى نجاسته، لم يتعامل المسيح معه قط، ولم يرُد عليه إطلاقاً (لو٢٣:٨، ٩). نعم فالمسيح لم يكن ليطرح الدرر أمام الخنازير.

وهو نفس ما فعله الرسل بعد ذلك. ففى سفر الأعمال ٨ عندما اكتشف الرسول بطرس حقيقة ذلك الساحر النجس سيمون فقد أنهى العلاقة معه فوراً، بعد أن نطق على مسامعه نطق القضاء الرهيب (أع٨: ٢٠-٢٣). وفى سفر الأعمال ١٣ لما شعر الرسولان بولس وبرنابا بشراسة اليهود فى مقاومة الحق، فإنهما أيضاً انسحبا فوراً من المشهد بعد أن نفضا غبار أرجلهما عليهم.

ومرة أخرى نجد فى كلمة الله الكلاب والخنازير معاً. فعندما تحدث الرسول بطرس في رسالته الثانية عن المرتدين شبههم بالكلاب والخنازير «أصابهم ما فى الـمَثَل الصادق؛ **كلب** قد عاد إلى قيئه، **وخنزيرة** مغتسلة إلى مراغة الحمأة». ومع أنه فى آخر أصحاح٢ من الرسالة الأولى كان قد شبّه المؤمنين بخراف رجعت إلى الراعى، فإنه فى آخر أصحاح٢ من الرسالة الثانية شبّه المرتدين بكلاب وخنازير عادت إلى القئ والمراغة. فهؤلاء الذين ساروا زمناً مع المؤمنين قد تكون القذارة التى بداخلهم قلّت شيئاً كما يحدث مع الكلب إذا تقيأ، أو قد تكون نجاستهم الخارجية قلّت شيئاً كما يحدث مع الخنزيرة المغتسلة، لكن المهم ليس أن تقل القذارة الداخلية أو الخارجية كثيراً أو قليلاً، بل أن يتم تغيير فى الحياة. فأولئك الظالمون النجسون (رؤ٢٢:١١) كانوا يحتاجون إلى طبيعة جديدة يحصلون عليها بالولادة من الله. أما الذى يعرف الوصية المقدسة لكنه بعد ذلك يستدير ليعطيها ظهره فإن كلمات هذا الـمَثَل الصادق تنطبق عليه.

التطبيق التدبيرى

يقول المسيح «لا تعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير، لئلا تدوسها بأرجلها، وتلتفت فتمزقكم» إن الخنازير لا تقدِّر الدرر، بل ستدوسها فى غير مبالاة وباحتقار، وهى إذ ستحتقرها فى فسادها، ستستدير لتمزق مَنْ طرحها قدامها. فالحق سيُداس، والناس سيتمزقون. وهكذا فإن مَنْ عرف الحق واحتقره يكون عادة أشر مَنْ يضطهد المتمسكين بذلك الحق!

ويمكننا أن نرى تطبيقاً تدبيرياً لهذه الأقوال. فالرب يسوع نفسه هو القدس، ورسله المكرمون كانوا بمثابة الدرر. والرب يحذر سامعيه من اليهود من أن يعطوا القدس للكلاب أى أن يسلموا مسيحهم وملكهم إلى أيدى الأمم. كما يحذرهم من أن يطرحوا دررهم، أى الرسل المكرمين قدام الخنازير. لكن هذا بكل أسف ما حدث فعلاً. فلقد سلموا الرب يسوع إلى بيلاطس البنطى الوالى قائلين «ليس لنا ملك إلا قيصر». أما الرسل فقد طرحوهم قدام الخنازير واحداً فواحداً. فهيرودس قطع رأس يعقوب بالسيف، ولما رأى أن ذلك يُرضى اليهود قبض على الرسول بطرس ناوياً قتله أيضاً. وهو نفس ما حدث أيضاً للرسول بولس بعد ذلك. لكن أولئك الذين أرادوا إرضاء الكلاب والخنازير، هل سلموا هم من تمزيقهم؟ يقول المسيح «لئلا تدوسها بأرجلها، وتلتفت فتمزقكم». وهو عين ما حدث لليهود سنة ٧٠م.

أما عن مصير الخنازير فإننا فى مرقس ٥ نقرأ كيف دخلت الأرواح النجسة إلى الخنازير فاندفعت إلى البحر وماتت مختنقة. وهكذا النجسون الآن، مع هذا الفارق أن مصير هؤلاء لن يكون بحراً يختنقون فيه ويتلاشون، كما حدث مع تلك الخنازير، بل ستكون بحيرة النار ليعذبوا فيها إلى أبد الآبدين، وهو عين ما يقوله الرائى فى رؤيا ٢١: ٨ «وأما.. الرجسون.. والزناة والسحرة وعبدة الأوثان.. فنصيبهم فى البحيرة المتقدة بنار وكبريت، الذى هو الموت الثانى».

كما يخبرنا العهد الجديد أيضاً عن مصير الكلاب. فيقول فى رؤيا ٢٢: ١٥ «لأن خارجاً (أى خارج المدينة السماوية حيث النور والفرح) الكلاب». وهكذا ستظل الخنازير داخل بحيرة النار، والكلاب خارج الديار!

ما أتعسه من مصير أبدى لكل رافضى المسيح! «كم عقاباً أشرّ تظنون أنه يُحسب مستحقاً مَنْ داس ابن الله وحسب دم العهد الذى قُدّس به دنساً وازدرى بروح النعمة» (عب ١٠: ٢٩)!

٣٣

اسألوا.. اطلبوا.. اقرعوا

"اسألوا تُعطوا. اطلبوا تجدوا. اقرعوا يُفتح لكم. لأن كل من يسأل يأخذ، ومن يطلب يجد، ومن يقرع يُفتح له. أم أى إنسان منكم إذا سأله ابنه خبزاً يعطيه حجراً، وإن سأله سمكة يعطيه حية؟ فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة فكم بالحرى أبوكم الذى فى السماوات يهب خيرات للذين يسألونه"

(مت ٧:٧-١١).

كان الرب قبل هذه الأقوال مباشرة قد تكلم عن كيفية معالجة الأخ المخطئ؛ كيف يجب أن نبادر لمساعدة اخوتنا وعلاج خطأهم بمنتهى الرقة والحساسية، وكيف - من الناحية الأخرى - يجب ألا نعطى القدس للكلاب، ولا الدرر لمن لا يقدرها أو يعتبرها؛ فلا أوبخ مستهزئاً (أم٩ : ٨)، ولا أتكلم فى أذنى جاهل (أم٢٣ : ٩)، الأمر الذى يتطلب حكمة خاصة للتمييز بين الأشخاص والتعامل مع كلٍّ بما يناسب حالته. فكيف يمكننا أن نقود سفينتنا وسط هذه الصخور المختفية الغارقة؟ إننا نحتاج فى هذا إلى حكمة خاصة. وها الرب هنا يشجعنا على الطلب من الله، وكأنه يقول لنا «وإنما إن كان أحدكم تعوزه حكمة، فليطلب من الله الذى يعطى ... فسيُعطى له» (يع١ : ٥).

أو كأن الرب الذى أشار فى (ع٦) إلى أننا نعطى، فإنه فى هذه الأعداد موضوع دراستنا

يعلمنا أننا قبل أن نعطى علينا أن نأخذ. ويشجعنا على التوجه للمصدر الصحيح للأخذ وهو الله «الذى يعطى الجميع بسخاء ولا يعير» (يع١:٥).

أو يمكن القول إن المسيح وقد وصل بعظة الجبل إلى قرب نهايتها، بعد أن كان قد قدم لسامعيه تعاليم سامية راقية، فإن كل مُخلص بدأ يشعر أنه فى شديد الحاجة للقوة الإلهية لكى يسلك بموجب تلك التعاليم. فمَنْ منا بوسعه أن يُظهر تلك الصفات التى يطلبها الرب منا فى التطويبات؟ ومَنْ منا يستطيع بقوته أن يؤثر فى الوسط الذى يعيش فيه، هذا التأثير المبارك الذى حدثنا الرب عنه كملح وكنور؟ ومَنْ منا دون معونة الروح القدس يقدر أن يتمم حكم الناموس بهذا الأسلوب الروحى والراقى جداً؟ وبالإجمال مَنْ يستطيع أن يعيش هذه العظة العظيمة، أو بلغة الرسول «مَنْ هو كفؤ لهذه الأمور؟» (٢كو٢:١٦). ها الرب يقدم فى الأعداد موضوع دراستنا "المعونة الإلهية لتنفيذ المتطلبات الإلهية".

الصلاة مرة أخرى

كان الرب قد سبق أن تحدث فى الأصحاح السابق عن الصلاة. على أنه فى ذلك الأصحاح إنما كان يوضح كيف نصلى، لكنه الآن إذ يكرر الحديث عن الصلاة فإنه يوضح لنا لماذا نصلى. فى الأصحاح السابق ذكر الرب الصلاة فى أسلوب تحذيرى، وأما هنا ففى أسلوب تحريضى وتشجيعى. فى الأصحاح السادس كانت الصلاة عملاً من أعمال البر الذى يجب أن نعمله لإكرام الله، لا لنوال مديح الناس وثنائهم، وإلا فقدت قيمتها ومعناها. أما فى هذا الأصحاح فالصلاة نعمة وليست براً. أو بالحرى لا تُذكر هنا باعتبارها هدفاً نسعى إليه، بل باعتبارها وسيلة لنوال البركة وطريقة للحصول على النعمة.

فالمسيح فى هذه الأقوال العظيمة التى نتأملها الآن كأنه يقدم لنا دفتر شيكات على بنك الإيمان موقَّع عليه بتوقيع المسيح نفسه. أو كأنه يقدم لنا "كارت بلانش" لنسحب من البنك السماوى كل احتياجاتنا كيفما كانت. فهو يقول لنا «اسألوا تُعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفتح لكم». فسواء احتجنا إلى القوة الإلهية لنبذ شهواتنا وقمع طبيعتنا الساقطة لنسلك بحسب تعاليمه، أو احتجنا إلى الحكمة الإلهية لكى نميز بين الأشخاص فنصبح نافعين للناس. سواء هذا أو ذاك فعلينا أن نسأل من الله وهو سيهبنا كل ما نحتاج إليه، إذ نتقدم إلى إله كل نعمة، الجالس على عرش النعمة، فنجده من مطلق نعمته يعطينا نعمة فوق نعمة.

لقد استخدم الرب هنا لا تعبيراً واحداً بل ثلاثة تعبيرات عن الصلاة «والخيط المثلوث لا ينقطع سريعاً» إذ قال «*اسألوا* **تُعطوا**، *اطلبوا* **تجدوا**، *اقرعوا* **يُفتح لكم**». والرب بهذه

التعبيرات التى تزداد اتساعاً وعمقاً - كما سنرى - يريد أن يشجعنا وأن يزيل اليأس من قلوبنا لكى لا نتوقف عن الصلاة مطلقاً. قال لوثر "إن المسيح يعرف كم نحن خجلون، وكم نشعر بعدم الاستحقاق وعدم الكفاءة لأن نعرض احتياجاتنا على الله. نحن ندرك كم أن الله كبير جداً، بينما نحن لا شئ بالمرة. ولهذا فإن الرب هنا يشجع قلوبنا لنتخلّص من تلك المشاعر، ونتحرر من تلك الشكوك، لنتقدم بثقة إلى عرش النعمة[٣٣]!"

والآن ما هو الفارق بين السؤال والطلب والقرع؟ السؤال يكون عادة لشئ محدد، والطلبة هى أعم من ذلك وأكثر عمقاً، وأخيراً فإن القرع يفيد اللجاجة فى الطلب. الطفل عادة يسأل من أمه وهى معه، ويطلبها إذا غابت عن ناظره، ويقرع بابها إذا فصل الباب الموصد بينها وبينه! أو يمكن القول: السؤال هو ممن ضل الطريق ويريد الإرشاد، والطلب هو البحث عن شئ ثمين له قيمة عُظمى بالنسبة للإنسان، والقرع عندما لا يكون بوسعنا الرجوع دون نوال حاجتنا (لو١١:٥-١٠).

هناك حادثة وردت فى الأناجيل تصوّر لنا مسألة اللجاجة تصويراً عملياً، وأعنى بها حادثة الرجل المفلوج الذى شفاه المسيح. لقد حمله الرجال الأربعة، وأتوا به إلى البيت حيث كان الرب، لكنهم إذ لم يقدروا أن يدخلوا بمريضهم فقد صعدوا إلى السطح، ونقبوا السقف، ودلوا السرير بالمفلوج. والرب لم يُغضبه إصرارهم على نوال حاجتهم منه، بل بالعكس سُرّبه، إذ يقول البشير «لما رأى يسوع إيمانهم» (مر٢:٥). فلا شئ ينعش قلب الرب فى عالم الاعتداد بالذات والاستقلال عن الله قدر الإيمان البسيط والواثق فيه.

أمر ووعد ومثل

تتضمن الأعداد موضوع دراستنا أمراً ووعداً ومثلاً. والأمر نجده فى ع٧، والوعد فى ع٨، والمثل فى ع٩. والأمر - كما رأينا - هو أمر ثلاثى «اسألوا.. اطلبوا.. اقرعوا». إذاً فلنسأل، لكن دعنا لا نكتفى بالسؤال. ولنطلب، ولا نتوقف عند حد الطلب، بل لنقرع ولنستمر قارعين حتى يفتح لنا «يا ذاكرى الرب لا تسكتوا، ولا تدعوه يسكت» (إش٦٢:٦، ٧).

إن الله لا يستجيب طلبنا حالاً فى أوقات كثيرة، بل إنه فى حكمته يتأنى أحياناً فى الاستجابة ليمتحن إيماننا (مت١٥:٢١-٢٨)، لكنه على أى حال وعدنا وعداً عظيماً بأنه سيستجيب حتى لو تأنى (لو١٨:٧). لهذا حبذا لو حفظنا فى قلوبنا كلمات داود القائلة «انتظر الرب. ليتشدد وليتشجع قلبك، وانتظر الرب» (مز٢٧:١٤). وأيضاً كلمات إرميا

«جيد أن ينتظر الإنسان ويتوقع بسكوت خلاص الرب» (مرا ٣:٢٦).

ولهذا فإن الرب بعد أن أعطى تلاميذه الوعد العظيم فى ع٧، عاد فكرره لهم لتأكيده فى ع٨. بل لقد وضعه فى صيغة أقوى إذ قال «لأن كل من يسأل يأخذ، ومَنْ يطلب يجد، ومَنْ يقرع يُفتح له». وياله من وعد يقدمه ابن الله، متكلماً إلينا بكل سلطان الله الآب نفسه!

ومن الجميل أن يقول الرب هنا «لأن **كل من** يسأل...» فالله لا يأخذ بوجه إنسان، وهو لا يعتبر موسعاً دون فقير «لم ترَ عين إلهاً غيرك يصنع لمن ينتظره» (إش٦٤:٤). ومن الجميل أيضاً أن يقول «من يسأل **يأخذ**». إنه لا يقول: من يسأل سوف يأخذ، بل «يأخذ». وفى هذا ترد كلمات الوحى «الرب يسمع عندما أدعوه» (مز٤:٣)، وأيضاً «وفيما هم يتكلمون بعد أنا أسمع» (إش٦٥:٢٤).

حقاً إنه وعد مشجع، يذكّرنا بما قاله الرب قديماً لشعبه «أفغر فاك فأملأه» (مز٨١:١٠). والقول «أفغر» أى افتحه على اتساعه، والله وعد أنه ليس فقط سيعطى هذا الفم المفتوح، بل سيملأه*.

والرب بعد ذلك يقدم لنا مثالاً فى ع٩ إذ يقول «أم أى إنسان منكم إذا سأله ابنه خبزاً يعطيه حجراً، وإن سأله سمكة يعطيه حية؟ فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة، فكم بالحرى أبوكم الذى فى السماوات يهب خيرات للذين يسألونه». إذاً فلقد قدم المسيح دعوة فى صيغة أمر فى ع٧، ثم قدم وعداً عاماً وقوياً فى ع٨، وها هو يقدم مثالاً مشجعاً ومعزياً فى ع٩.

كم بالحرى

عندما قال الرب «فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة» ما الذى كان يقصده الرب من هذه العبارة؟ ألعله كان يشجع الناس الخطاة على الطلب من الآب السماوى؟ كلا، فصلاة الأشرار مكرهة الرب (أم١٥:٨).

على العكس من ذلك فالدرس الذى نتعلمه هنا أنه حتى عندما يمارس الأب أفضل ما تعرفه الطبيعة البشرية، ويعطى لأولاده العطايا الجيدة، فإنه يظل - بحسب وصف المسيح - شريراً. وعليه فإن الزوج الذى يقوم بواجباته تجاه زوجته خير قيام، والأب الذى يعتنى بأولاده على أفضل وجه، فإن هذا لا يضفى على أى منهما أمام مقاييس الله العالية أى صلاح.

* ترِد هذه الآية فى الترجمة التفسيرية هكذا «افتح فمك واسعاً فأملأه خيراً».

ليس لأن الاعتناء بأولادنا شر، بالعكس إن هو إلا قطرة من محيط صلاح الله سكبها في قلوب البشر. ومع ذلك فهذا لا يغيِّر أمام الله قلب الإنسان الفاسد ولا طبيعته الشريرة.

وغني عن البيان أن التلاميذ لم يكونوا في ذلك الوقت يعرفون تمام المعرفة مقدار شر الإنسان، فهذا استُعلن في الصليب، وشُرح باستفاضة في الرسائل. لكن الرب هنا يعقد مقارنة بين محبة الأب البشري وحكمته المحدودتين، وبين المحبة والحكمة الكاملتين للآب السماوي (عب١٢: ٩، ١٠). فإذا كان الابن يذهب إلى أبيه بدالة البنوة، ويطلب بثقة منه، والأب يعطيه العطايا الجيدة، فكم بالحري «أبو الأنوار» الذي كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق نازلة من عنده، ذاك الذي شاء فولدنا بكلمة الحق لنكون باكورة من خلائقه (يع١: ١٧، ١٨). أتراه يمنع عنا شيئاً إذا ذهبنا إليه كأولاد أحباء لنطلب منه، بعد أن قبل في محبته العجيبة التي أعطانا، أن نُدعى أولاده (١يو٣: ١)!

والمسيح هنا يصوِّر الله كأب يعطي لأولاده. وفي الأقوال المُشابهة لهذه في لوقا ١١: ٥-١٣ يضيف الرب صورة أخرى إذ يصوِّر الله كصديق يعطي صديقه. ويالها من صور رائعة تملأ القلب ثقة وسكينة!

يهب خيرات

نلاحظ أن الابن في المَثَل الذي ذكره المسيح هنا لم يطلب من أبيه ما لم يكن محتاجاً إليه. فهو لم يفعل مثل الابن الضال في لوقا ١٥: ١١ الذي طلب ردياً لكي ينفق في لذاته (يع٤: ٣)، بل طلب من أبيه شيئاً جيداً هو محتاج إليه.

والمسيح يعلّق على المَثَل قائلاً «فكم بالحري أبوكم الذي في السماوات يهب خيرات للذين يسألونه» الأمر الذي نفهم منه أن الآب لا يهب لأولاده إلا الخير، والخير فقط. ولعل هذا يعطينا تفسيراً عن سبب عدم إجابة الله أحياناً لبعض ما نطلبه منه. فالأب البشري لا يعطي ابنه حجراً ولا حية. والله لا يعطي المؤمنين ما ينتج عنه الضرر أو الخطر. فإذا علم الله في حكمته أن ما نطلبه منه ليس لخيرنا، فإنه لن يعطيه لنا.

قال أحد القديسين[٣٤]: لو أن الله وعد أن يعطيني كل ما أطلبه منه في الصلاة دون قيد أو شرط، ما كنت أجرؤ مطلقاً على الصلاة، لأنه كيف أضمن الحكمة الكافية لأطلب شيئاً من الله؟ إن الصلاة في تلك الحالة كانت تصبح عبئاً لا يُحتمل، أثقل من أن يحمله إنسان محدود الحكمة نظيرنا. فلو أن الله كان سيعطينا كل ما نطلبه منه، وبنفس الأسلوب الذي

طلبناه منه؛ كيف كنا نتحمل التبعات الثقيلة التى ستتلو اقترابنا إلى الله فى الصلاة؟!

إننا نشكره من كل قلوبنا لأنه صالح وحكيم؛ صالح لا يعطى إلا العطايا الجيدة، وحكيم يعرف متى وكيف يعطى. وإننا إذ نستعرض الماضى نتذكر أننا طلبنا من الله أشياء يعطيها لنا أو يفعلها معنا، وكنا نعتقد فى وقت طلبها أنها الخير الخالص لنا. ومرَّت الأيام.. وإذ ينظر المؤمن إلى الوراء فإنه يشكر الله لأنه لم يفعل هذا الطلب أو ذاك، وأنه أغلق بعض الأبواب أمام وجوهنا. ساعتها صار لهذا العدد من الترنيمة طعماً لذيذاً فى أفواهنا ونحن نترنم به.

بحكمة يفعلْ وذا هو الأفضلْ
لحُكمه الأمثلْ تواضعى نفسى

٣٤

القانون الذهبى

"فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم. لأن هذا هو الناموس والأنبياء"

(مت ٧: ١٢).

تَرِد هذه الآية فى الترجمة التفسيرية هكذا: "إذاً كل ما تريدون أن يعاملكم الناس به، فعاملوهم أنتم أيضاً. هذه هى خُلاصة تعليم الشريعة والأنبياء".

وبداية هذه الآية بحرف الفاء كما فى ترجمتنا، أو بكلمة "إذاً" كما فى الترجمة التفسيرية يفيد الارتباط الوثيق بين كلام الرب فى هذه الآية وبين كلام الرب السابق. ويمكننا أن نفهم هذا الارتباط بطرق ثلاث.

١- قد ترتبط هذه الآية بالكلام الذى افتتح به الأصحاح (من ع١-٦)، على اعتبار أن ما جاء بعد ذلك فى الأعداد من ٧-١١ يُعتبر كلاماً بين قوسين؛ بمثابة طلب النعمة اللازمة للسلوك الحكيم التقوى، من ثم يواصل الرب الحديث فى ع١٢ ليربطه بحديثه الذى فيه حذرنا من روح النقد والإدانة (ع١-٤)، وحرّضنا على معالجة الأخ المخطئ بروح الوداعة والحيطة (ع٥). ثم يقول الرب بعد ذلك فى كلمات جامعة مانعة «فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم».

٢- أو قد نفهم الارتباط بطريقة أخرى. فلقد كان آخر ما نطق به الرب قبل هذه الآية هو كلامه عن الصلاة، إذ قال «أى إنسان منكم إذا سأله ابنه خبزاً يعطيه حجراً، وإن

سأله سمكة يعطيه حية. فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تُعطوا أولادكم عطايا جيدة فكم بالحرى أبوكم الذى فى السماوات يهب خيرات للذين يسألونه». ثم يردف قائلاً «فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم». والمسيح بذلك يوضح أن علاقتنا بالآخرين لها ارتباط وثيق باستجابة الله لصلواتنا. ونحن نعرف بكل يقين أنه لا يصح أن نتكلم مع الله كالقديسين، ونتصرف مع البشر كالشياطين، ولا يليق أن نكون فى صورة التقوى ونحن على ركبنا فى الصلاة، ثم ننكر قوتها ونتصرف كالأشرار ونحن على أرجلنا مع الناس. هذا الرياء لا يطيقه الرب الذى قال «لست أطيق الإثم والاعتكاف.. فحين تبسطون أيديكم أستر عينى عنكم، وإن كثّرتم الصلاة لا أسمع» (إش١:١٣-١٥). وفى أيام زكريا النبى عندما صام الشعب وصلّوا، والرب رفض صومهم وصلاتهم، فلما سألوا النبى عن السبب، كانت الإجابة «هكذا قال رب الجنود قائلاً اقضوا قضاء الحق، واعملوا إحساناً ورحمة كل إنسان مع أخيه»، ثم يستطرد النبى «كما نادى هو فلم يسمعوا، كذلك ينادون هم فلا أسمع قال رب الجنود» (زك٧:٨-١٣).

٣- أو قد نفهم الارتباط بين الآيتين ليس فقط فى الصورة السلبية السابقة؛ بمعنى أننا ما لم نَرحَم لن نُرحَم. بل دعنا نضعها فى الصورة الإيجابية الآتية، فقوة العبارة التى نحن بصددها هى فى ورودها مباشرة بعد أن ذكر المسيح ما يعمله الله معنا باستمرار، ويعمله مع علمه أننا أشرار. أليس الآب يهب خيرات لنا دون أن نستحقها ؟! يقول المسيح «فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة فكم بالحرى أبوكم الذى فى السماوات يهب خيرات للذين يسألونه». ثم يقول؛ بناء على ذلك اعملوا الخير للآخرين، دون أن تبحثوا إن كانوا يستحقون ذلك أم لا. أو بلغة الرسول بولس «كونوا متمثلين بالله كأولاد أحباء، واسلكوا فى المحبة» (أف٥:١، ٢). لا تجعلوا مقياس تصرفكم مع الناس هو تصرفهم الفعلى معكم، ولا ما كانوا سيفعلونه لو كان بوسعهم، بل يجب أن يكون المقياس هو ما تريدون أنهم يفعلونه معكم.

إيجابية القانون الذهبى

يعرف الدارسون لفلسفات الأقدمين ولديانات الآخرين أن هناك ما يُشبه هذا القانون لدى معظم الشعوب. فعند الإغريق والرومان، وقبلهم عند البوذيين والهندوس، وكذلك فى أسفار

الأبوكريفا* عند اليهود ، وأيضاً فى تلمودهم نجد مثل ما يُشبه هذه المقولة**. بل إن العرب أيضاً لديهم هذه الحكمة: "لا تعامل الناس بما لا تحب أن يعاملوك به".

والآن أرجو أن تلاحظ الفارق الكبير بين أقوال البشر جميعاً وبين تعليم المسيح. فأقوال البشر فى هذا الصدد وقفت عند الناحية السلبية ، أما المسيح فقد ذهب إلى أبعد من الامتناع السلبى، وتحدث عن فعل الخير النشط. فالمسيحية ليست مجرد الامتناع عن الشر والكف عن الأذى، بل إنها أيضاً من الجانب الإيجابى مشغولة بفعل الخير. والمسيح وحده الذى استطاع أن ينطق بما لم يستطع إنسان آخر أن ينطق به، ولا عجب لأنه عاش هذا النوع من الحياة.

كيف يمكننا أن نفهم الفارق بين ما قاله البشر فى فلسفاتهم، وما قاله المسيح؟ إننا نفهم كلام البشر كالآتى: إن كنت لا تحب أن تُسرَق فلا تسرِق أحداً، وإن كنت لا تتمنى أن يلعنك الناس فلا تلعنهم أنت، وإن كنت لا تُسر بأن تكون مكروهاً منبوذاً ومُضطهداً فلا تفعل ذلك مع سواك، وإن كنت لا تسعد بأن يركب الآخرون على رأسك ليرتقوا هم فلا تركب أنت على رؤوس الآخرين. هذه هى خُلاصة القانون السلبى الذى عند البشر. أما القانون الذهبى الذى قدمه المسيح فهو؛ إن كنت تريد أن تُحَب فاظهر الحب للآخرين، وإن كنت تُسر بالحصول على الهدية ففكر أنت أن تعطيها ، وإن كنت تتمنى أن تُقدَّر وتُحترم فاحرص على أن تقدّر الآخرين وتحترمهم، وهكذا...

إن حكمة البشر قد تؤدى بنا إلى السلبية والعُزلة عن المجتمع كما فعل غاندى فى نوع احتجاجه السلبى، وهذا يجعلنى طبعاً لا أؤذى الآخرين، ولكن أيضاً لا أفيدهم. لكن هذا ليس ما علّمه المسيح ولا ما عمله.

الحياة العملية

إن ما يميز المعلم العظيم والذى ليس مثله معلماً، أنه لم يُعطنا مبادئ سامية راقية يصعب فهمها ولا نعرف كيف نطبقها ، كما أنه عوض أن يعطينا قوانين كثيرة تشمل تفصيلات عديدة فى تعاملنا مع الآخرين، فإنه أعطانا هنا مبدأً واضحاً وسهلاً يحل مئات المعضلات. بل وأكثر من ذلك أعطانا نفسه كالنموذج والقدوة فى السلوك والحياة.

* طوبيا ٤: ١٥

** فى التلمود اليهودى ذكر عن رابى عاش نحو مائة عام قبل المسيح اسمه هيلل، لما طُلب منه أن يلخص الشريعة كلها فى عبارة واحدة قال: « ما هو مكروه بالنسبة لك، لا تفعله مع سواك ». ثم قال « هذا هو الناموس، وأما الباقى فهو شرح له[٣٤] ».

إن المسيحية ليست مجرد عقيدة بل حياة. وهى ليست مشغولة فقط بما يجب أن نعرفه ونؤمن به، بل أيضاً بما يجب أن نفعله؛ ليس فقط ما نفعله من نحو الله أو حتى مع اخوتنا المؤمنين، بل من نحو الناس بصفة عامة.

حقاً إنه مستوى راقٍ ما قاله المسيح هنا «فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم». ليس معنى ذلك أننا سنفعل ما نفعله منتظرين أن يرُد الناس علينا نفس العمل، فإن امتنعوا امتنعنا، بل إننا نستمر فى عمل الخير بلا فشل (غل٦:٩)، وكلمات الرسول بولس تملأ قلوبنا بيقين المكافأة «عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله **من الرب**» (أف٦:٨).

فهل من غرابة إذاً أن اتفق المفسرون جميعاً على تسمية هذه الآية بالقانون الذهبى. ولو سألنا أنفسنا: لماذا المشاكل بين الناس؟ ولماذا الخلافات بين العائلات؟ ولماذا الحروب الأهلية والحروب الدولية؟ أليس لأن كل الناس يفعلون تماماً عكس كلام الرب هنا على خط مستقيم. فلو أن كل شخص وضع نفسه فى الجانب المقابل، وسأل نفسه بإخلاص: ماذا كنت أحب أن الناس يعاملوننى به لو كنت فى ذلك الجانب الآخر، أما كانت النزاعات كلها تنتهى؟!

لا بل إنى أقول: ما كانت النزاعات كلها ستنتهى والمشاكل ستُحل فقط، بل كانت ستسود الحياة الفاضلة التى تستحق أن تُدعى حقاً حياة. عندها كانت ستختفى المرارة ويعم الهناء، يذهب البخل ويأتى السخاء، تضمحل الخيانة ويسود الوفاء، وهو ما سيتم حتماً عن قريب تحت مُلك رب السماء.

خلاصة الناموس والأنبياء

يقول المسيح تعليقاً على هذا القانون الذهبى «لأن هذا هو الناموس والأنبياء». وإننا لكى نفهم هذا القانون الذهبى جيداً علينا أن نعرف أنه لا يختم قسماً ثانوياً فى أصحاح ٧، بل نه يختم قسماً أكبر بدأ من أصحاح ٥:١٧ عندما قال المسيح «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس والأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل». وهنا، بعد أن شرح المعنى الروحى للناموس قال «لأن هذا هو الناموس والأنبياء».

وتعبير الناموس والأنبياء كما فهمنا سابقاً، وكما يشير الوحى فى أماكن أخرى مثل لوقا١٦:١٦ وأعمال١٣:١٥ يفيد كل أسفار العهد القديم. فهذا القانون الذهبى يقدم لنا خلاصة تعاليم العهد القديم كله. ونحن نعرف أن الناموس ينظم الحياة على الأرض، وأن

موضوع أسفار العهد القديم كله هو الحياة على الأرض.

وفيما يلى بعض الآيات التى توضح لنا كيف أن هذا القانون الذهبى يُعتبر خُلاصة رائعة لتعاليم أسفار العهد القديم. ففى تثنية ٢٢: ١-٥ يقول «لا تنظر ثور أخيك أو شاته شارداً وتتغاضى عنه، بل ترده إلى أخيك لا محالة... لا تنظر حمار أخيك أو ثوره واقعاً فى الطريق وتتغافل عنه، بل تُقيمه معه لا محالة». وفى خروج٢٣: ٤ «إذا صادفت ثور عدوك أو حماره شارداً، ترده إليه». أليست هذه الأقوال الرائعة تلخصها كلمات المسيح هنا «فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم»؟!

ثم اسمع كلمات الرب أيضاً «إن كان فيك فقير؛ أحد من إخوتك فى أحد أبوابك فى أرضك التى يعطيك الرب إلهك فلا تُقسِّ قلبك ولا تقبض يدك عن أخيك الفقير، بل افتح يدك له واقرضه مقدار ما يحتاج إليه» (تث١٥: ٧، ٨). وأيضاً «إذا بيع لك أخوك العبرانى أو أختك العبرانية وخدمك ست سنين، ففى السنة السابعة تطلقه حراً من عندك. وحين تطلقه حراً من عندك لا تطلقه فارغاً. تزوده من غنمك ومن بيدرك ومن معصرتك كما باركك الرب إلهك تعطيه.. لا يصعب عليك أن تطلقه حراً». أليست كلمات الرب هنا أيضاً تلخصها أقوال المعلم العظيم فى موعظة الجبل «فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم»؟!

بل حتى فى سفر الأمثال يقول الحكيم «لا تكن شاهداً على قريبك بلا سبب... لا تَقُل كما فعل بى هكذا أفعل به» (أم٢٤: ٢٨، ٢٩)، وأيضاً «إن جاع عدوك فاطعمه خبزاً، وإن عطش فاسقه ماء» (أم٢٥: ٢١). هذه الأقوال وكثير مثلها ألا تلخصها كلمات المسيح الرائعة «فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم»؟!

هذا ما جعل الرسول بولس فى رومية١٣: ٨-١٠ يقول «من أحب غيره فقد أكمل الناموس» ثم يقول «المحبة لا تصنع شراً للقريب، فالمحبة هى تكميل الناموس».

الفرق بين العهد القديم والعهد الجديد

مما سبق نتعلم أن العهد القديم والعهد الجديد ليسا فى خصومة مع بعضهما، بل إنهما يلتقيان معاً. وما طلبه الأول أكده الثانى، والمسيح - كما ذكر هو تبارك اسمه - لم يأتِ لينقض الناموس أو الأنبياء بل ليكمل. فهل معنى ذلك فعلاً أنه لا يوجد فارق بين العهدين القديم والجديد؟

كلا، لا تناقض بين العهدين، ومع ذلك فهناك فارق، بل وفارق كبير جداً. فبينما أتى الناموس يطلب من الإنسان، فقصّر البشر، واستدت الأفواه، وصار العالم تحت قصاص من الله (رو٣:١٩، ٢٠)، فإن المسيح أتى مملوءاً نعمة وحقاً، ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا. فعندما عجز البشر أمام مطاليب الناموس، وأُشهِر إفلاسهم، جاء المسيح ليهبنا بالنعمة ما لم نقدر أن نحصل عليه بالاستحقاق.

لم يستطع أحد أن ينفذ الناموس، ولن يستطيع أحد – دون نعمة الله فى قلبه – أن ينفذ القانون الذهبى. لكن عندما تولد النفس من الله، ويسكن فيها الروح القدس، فعندئذ لن تنفذ هذا القانون الذهبى فحسب، بل وأكثر. هل أقول إنها ستنفذ أكثر من القانون الذهبى عندما يحيا المسيح فيها؟ نعم. استمع إلى هذه الأقوال العجيبة من فم رسول المحبة، الرسول يوحنا «بهذا قد عرفنا المحبة، أن ذاك وضع نفسه لأجلنا، فنحن ينبغى لنا أن نضع نفوسنا لأجل الإخوة» (١يو٣:١٦).

هكذا يقول المسيح الرب لنا: أنتم تدعوننى سيداً ولا تطيعوننى، أنتم تدعوننى النور ولا تروننى، أنتم تدعوننى الطريق ولا تسلكوننى، أنتم تدعوننى الحياة ولا تحيوننى، أنتم تدعوننى الحكمة ولا تتبعوننى، أنتم تدعوننى الجميل ولا تحبوننى، أنتم تدعوننى الغنى ولا تسألوننى، أنتم تدعوننى الرب ولا تطلبوننى. فإذا دنتكم لا تلوموننى[٣٦].

[كلمات منقوشة على جدران كاتدرائية ليبك فى ألمانيا]

القسم السابع

تحذيرات لتلميذ المسيح

٧ : ١٣ – ٢٧

- مساران ومصيران
- من ثمارهم تعرفونهم
- ليس من يقول بل الذى يفعل
- رجلان وبيتان

٣٥

مسـاران ومصـيران

"ادخلوا من الباب الضيق؛ لأنه واسع الباب، ورحب الطريق الذى يؤدى إلى الهلاك، وكثيرون هم الذين يدخلون منه. ما أضيق الباب، وأكرب الطريق الذى يؤدى إلى الحياة، وقليلون هم الذين يجدونه"

(مت ١٣:٧ ، ١٤).

انتهى الرب فى العدد الثانى عشر من هذا الأصحاح من شرح مبادئ ملكوته، ليوضح لنا فى الأقوال التالية كيفية الدخول إلى هذا الملكوت. أو يمكن القول إن الرب بعد أن فرغ من توضيح التعاليم السامية التى تحويها موعظة الجبل، فإنه يقدم بعد ذلك بعض التطبيقات الأدبية والتحريضات العملية. وأول تلك التحريضات، هو ما نقرأه فى العددين موضوع دراستنا الآن؛ تحريض على اختيار الطريق الصحيح.

ومن الأهمية بمكان أن نعرف أن الرب فى كل هذه العظة لا يتحدث عن إنجيل نعمة الله، بل عن السلوك الشخصى لتلاميذه. كأن الرب هنا يمسك الخيط من طرفه الآخر، فيتحدث لا عما تفعله النعمة لأجل الخاطئ، بل ما تنتجه فيه ليعيش قديساً، وبالتالى يتحدث عن مسئولية المؤمن لا امتيازاته. وهو كلام صعب على الإنسان فى الجسد، لكنه يكشف حقيقة المزوِّر والمدَّعِى.

الرب إذاً فى الأقوال التى ندرسها الآن يتحدث عن التلمذة، مع تحذير من اختيار البديل الآخر المدمر.

الدخول من الباب

يبدأ الرب تحريضه بعبارة «ادخلوا من الباب الضيق». ومن قوله «ادخلوا» نفهم أن المسيحية ليست دراسة فلسفية أو عقائدية، بل إنها شئ عملى فى المقام الأول. لعلنا نتذكر أن الرب لما تقابل مع متى العشار، كما ذكر متى نفسه، لم يَقُل له قدّرنى أو اعتبرنى، بل قال له «اتبعنى» (مت٩:٩)، فقام وتبعه.

كان اليهود فى أيام المسيح يعتبرون أنفسهم ورثة الملكوت بحكم تناسلهم من ابراهيم. وهو ما حذرهم يوحنا المعمدان من الاتكال عليه عندما قال «لا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا ابراهيم أباً، لأنى أقول لكم إن الله قادر أن يُقيم من هذه الحجارة أولاداً لابراهيم» (مت٣:٩)، ثم كرره الرب عليهم بعد ذلك عندما قال «إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابراهيم واسحق ويعقوب فى ملكوت السماوات، وأما بنو الملكوت فيُطرحون إلى الظلمة الخارجية» (مت٨:١١، ١٢؛ انظر أيضاً يوحنا٨:٣٩).

هذا يعطى قوة للعبارة التى قالها المسيح هنا «ادخلوا من الباب الضيق»، فالباب يُعبّر عن بداية. فهم محتاجون أن يدخلوا من الباب إلى الملكوت وليسوا بالمولد موجودون داخله. ونفس الأمر بالنسبة لنا فى المسيحية أيضاً؛ فالمسيحية تستلزم من الإنسان أن يبتدئ من جديد. فنحن لا نرث المسيحية عن الآباء ولا نولد فيها وتنتهى المسألة، بل يعلمنا الكتاب المقدس أننا جميعاً مولودون بالخطية، وينبغى أن نولد من فوق. ولهذا يقول المسيح هنا «ادخلوا من الباب الضيق».

ثم إن الباب يحمل معنى آخر. فأنت بالنسبة للباب، لا يمكن إلا أن تكون فى أحد جانبيه؛ إما فى الداخل أو فى الخارج. والباب نفسه يفصل بين فريقين؛ الذين خارجه والذين داخله. لكن هذا الكلام؛ أقصد تقسيم الناس إلى فريقين: مع أو ضد، ولا أرض محايدة، لا يعجب الإنسان العصرى، فالإنسان على مشارف القرن الحادى والعشرين، بنظامه العالمى الجديد، له فكر مختلف، واتجاه البشر إلى العولمة يجعل فكرَة الباب كما صوّرها المسيح مشجوبة ومُستهجنة. لكننا هنا كما فى كل شئ آخر، شعارنا لا ما يقوله الناس، بل «ماذا يقول الكتاب» (رو٤:٣)، وأيضاً «ليكن الله صادقاً وكل إنسان كاذباً» (رو٣:٤).

والباب يؤدى إلى طريق. فكما أن هناك بابين مختلفين، هناك أيضاً طريقان. وأنت لا يمكنك أن تكون موجوداً فى الطريقين معاً؛ إما فى هذا الطريق أو ذاك. وإذا كان الباب يمثل الاختيار واتخاذ القرار، فإن الطريق يتضمن أسلوب الحياة ونوع المسار.

ويا له من أسلوب واضح لهذا المعلم العظيم؛ إذ يضع أمامنا الحقائق الأدبية فى هذه الصورة البسيطة والمؤثرة! فالمسيحية بناء على أقوال المسيح هنا، هى اختيار محدد، يقود

إلى أسلوب حياة يختلف عن أسلوب حياة الآخرين.

والرب بعد أن قدم نصيحته بالدخول من الباب الضيق، فإنه وضع أمامنا الأمر برمته، لنقلبه من كل الوجوه، قبل أن نتخذ قرارنا المصيرى.

الباب الواسع والطريق الرحب.

بدأ الرب الحديث عن طريق العالم فيقول «لأنه واسع الباب، ورحب الطريق الذى يؤدى إلى الهلاك، وكثيرون هم الذين يدخلون منه».

ماذا يقصد الرب من قوله إن الباب واسع؟ يقصد أن الباب واسع يسعك أنت وأشياء أخرى كثيرة أيضاً، وعليه فيمكنك أن تأخذ فيه معك ما شئت؛ تأخذ معك أموالك أو شهواتك، أفكارك القديمة أو أصدقاءك، يمكنك أن تصحب فيه هيروديا أو دروسلا (مر٦:١٧، أع٢٤:٢٤). بالإجمال يمكنك أن تأخذ معك ما شئت من الأصنام، فالباب يتسع لذلك، ولا أحد يمنع ذلك.

وماذا يقصد الرب من قوله إن الطريق رحب؟ يقصد أنه يحتمل آراء كثيرة، ويشتمل فى داخله على تجاوزات عديدة. إنه ذلك الأسلوب الذى انتشر بكثرة هذه الأيام، ومع انتشاره ضاعت القيم، والذى يجعل الشخص يقول: هذا ما أعتقده أو ما أراه أو ما أشعر به، وليس هذا ما يقوله الكتاب، أو هذا ما علّم به المسيح أو رسله. هذا هو الطريق الواسع.

الطريق الواسع فى مفهوم آخر، هو طريق الإرادة الذاتية الذى يقول عنه سليمان الحكيم «افرح أيها الشاب فى حداثتك، وليسرّك قلبك فى أيام شبابك، واسلك فى طرق قلبك وبمرأى عينيك» (جا١١:٩)، ففى هذا الطريق، الكل مُباح، وكل واحد يعمل ما يحسن فى عينيه (قض٢١:٢٥)، وليس فى ذلك ما يعيب، فمرتادو هذا الطريق يميزهم الأفق المتسع، وشعارهم الأثير «أنت حر ما لم تضر» بل وأحياناً يكون الشعار «كله فى المسيح».

ثم إنه طريق رحب لأنه يشتمل على كل أفكار الناس، وكل اتجاهاتهم الفكرية وعقائدهم المذهبية. فلك أن تتخيل اتساع هذا الطريق. بينما على العكس من ذلك الطريق الضيق، هو ذلك الطريق الذى حدده الله فى الكتاب المقدس. وكما أن الحق واحد وكل شئ بخلاف الحق هو ضلال، هكذا فإن الطريق واحد، هو المسيح، وكل ما عداه طرق الموت. ألا لاحظت أن الكتاب المقدس يتحدث دائماً عن سبيل الحياة بالمفرد، لكنه يتحدث عن طرق الموت بالجمع، فيقول مثلاً فى مزمور١٦ «تعرفنى **سبيل الحياة**»، بينما فى أمثال ١٦ يقول «توجد طريق تظهر للإنسان مستقيمة وعاقبتها **طرق الموت**».

الباب الضيق والطريق الكرب

رأينا الآن سمات الباب الواسع والطريق الرحب، فماذا عن الاختيار الآخر؟ يقول المسيح «ما أضيق الباب، وأكرب الطريق الذى يؤدى إلى الحياة، وقليلون هم الذين يجدونه».

وبداية نقول إن وصف المسيح هنا للباب بالقول «ما أضيق الباب» يدل على أن المسيح لا يخدع تابعيه. فها هو يقول لهم إن الرحلة مُتعبة، وأن علامات الضيق والتعب بادية من الباب!

وكون الرب يصف الباب بأنه ضيق، فلأنه يتحدث كما قلنا عن التوبة لا النعمة، وإلا لو كان حديث الرب هنا عن النعمة لأشار إلى اتساع الباب «من يقبل إلىَّ لا أخرجه خارجاً» (يو٦:٣٧). لكنه هنا يمسك الطرف الآخر للحق؛ فيتحدث عن التوبة. هذا الجانب من الحق لا يحب الإنسان الطبيعى أن يسمعه، ولذلك فإن الوعاظ أيضاً تحاشوا الحديث عنه، لكن المسيح هنا يقول ادخلوا من الباب الضيق، وفى إنجيل لوقا يضيف قائلاً «اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق» (لو١٣:٢٤). وكلمة «اجتهدوا» هى نفس الكلمة الواردة عن جهاد المسيح فى بستان جثسيمانى فى لوقا٢٢:٤٤، والتى استخدمها الرسول بولس أيضاً عن العدّاء «وكل من يجاهد (أى يركض) يضبط نفسه فى كل شىء» (١كو٩:٢٥).

وكون الباب ضيقاً فهذا معناه أنك لن تقدر أن تأخذ معك شيئاً. إنه يكفى لعبورك بمفردك بدون أصنامك الماضية. لقد شبّهه المسيح مرة بثقب الإبرة (لو١٨:٢٥)؛ هكذا إلى هذا الحد! لهذا قال المسيح أيضاً «ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت الله»، وكان يقصد ما أعسر دخول المتكلين على الأموال إلى ملكوت الله. فإن باب الملكوت لن يسمح بدخولهم مع أموالهم. فكيف يقدرون، إن كانوا واضعين قلوبهم على الأموال، أن يدخلوا إلى الملكوت تاركين أموالهم خلفهم، خارج ذلك الباب الضيق؟

نعم، إن الأمر سيكلفك أن تترك كل شئ. بل ربما كلفك التخلى عن أقرب الأهل والأصدقاء. قال المسيح فى مكان آخر «جئت لأفرّق الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكنة ضد حماتها، وأعداء الإنسان أهل بيته» (مت١٠:٣٥، ٣٦).

وإن كان الباب يمثل البداية، فإن الطريق يمثل الحياة كلها. وكما أن الباب ضيق، هكذا أيضاً الطريق كرب. قال الرسول بطرس مُشيراً إلى صعوبات الطريق «إن كان البار بالجهد يخلص» (١بط٤:١٨). وقبله قال الرسولان بولس وبرنابا «بضيقات كثيرة ينبغى أن ندخل ملكوت الله» (أع١٤:٢٢). وقبلهما وفوقهما كان الرب نفسه قد قال «إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى. فإن مَنْ أراد أن يخلّص نفسه يهلكها»

(مت١٦: ٢٤، ٢٥). بل فى نفس عظة الجبل هذه قال الرب «إن كانت عينك اليمنى تعثرك، فاقلعها وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم».

لماذا نجد البعض يسرعون فى قبول المسيح، وبعد فترة يرتدون على أعقابهم؟ السبب لأنهم لم يدركوا أن الطريق كرب وفيه مشقة. لقد ظنوا فى البداية أن كل ما فى الأمر هو أنهم سينالون غفران الخطايا، ويغنموا السماء، دون تضحية بشئ ودون حمل للصليب. هؤلاء هم المزروع على الأرض المُحجرة فى مَثَل الزارع، الذين إذا حدث ضيق أو اضطهاد من أجل الكلمة فحالاً يعثرون. أو هم مثل الذى قال عنه المسيح إنه لم يحسب النفقة، فابتدأ فى بناء البرج، ولكنه لم يكمل (مت١٣: ٢١، لو١٤: ٢٨-٣٠).

قال ذهبى الفم[٣٧]: "إن الباب الضيق والطريق الكرب اللذين يتحدث المسيح عنهما هنا، ينبغى أن نرحب بهما تماماً كما نفعل مع النير الهين والحمل الخفيف اللذين وعد بهما فى متى١١: ٢٩".

فريقان ونهايتان

إن المباينات فى هذين العددين لم تنته عند اختلاف البابين أو الطريقين، بل إن الفريقين اللذين ارتادا هذين الطريقين هما أيضاً فى مباينة. فالطريق الرحب يرتاده جمهور كبير، عكس الطريق الضيق الكرب. والذهن الجسدى يسعده السير مع الجمهور. لكن الرب أوضح لنا هنا خطورة هذا الأمر «لا تتبع الكثيرين إلى فعل الشر» (خر٢٣: ٢). وقال الرسول بولس «أفأستعطف الآن الناس أم الله؟ أم أطلب أن أرضى الناس؟ فلو كنت بعد أرضى الناس لم أكن عبداً للمسيح» (غل١: ١٠).

فى المقابل لذلك فإن مرتادى الطريق الضيق هم الأقلية. ونحن نعرف أن السمكة الميتة يمكن للتيار أن يحملها معه، لكن السمكة الحية الطاهرة هى التى بوسعها أن تسبح ضد التيار. كثيرون منا يعرفون شيئاً عن القديس السكندرى أثناسيوس، المسمّى بحامى الإيمان القويم، لقد مرّت عليه فى حياته أيام عصيبة مُظلمة تحمّل فيها النفى والعزل، واعتبر فى نظر الكثيرين مبتدعاً. ولما تخلى عنه الأصدقاء وتفرّق الخلان، نصحه مَنْ بقى معه أن يكون أكثر ليونة، ويتخلى عن تشدده لأن العالم كله أصبح ضده، فكانت إجابته العظيمة والحاسمة: إذاً أثناسيوس ضد العالم!

والمباينة لا تقف عند عدد المسافرين فى هذين الطريقين، بل إن جو السعادة ومظاهر الفرح بادية على الذين فى الطريق الواسع. تأمل ضحكاتهم ومرحهم؛ أليس هذا ما جعل آساف

يحسد المتكبرين عندما رأى سلامة الأشرار، حتى دخل مقادس الله وانتبه إلى آخرتهم. فى المقابل لذلك، وفى الطريق الكرب تجد جماعة صغيرة من السياح السماويين، سائرين فوق سهل وجبال، صوب أفراح الخلود، وأمامهم كل أثمار الوعود. لكنهم فى رحلتهم نحو السعادة الكاملة الأبدية، هم غير محرومين من التعزيات رغم أنهم يعبرون وادى البكاء!

يقول الرب «وقليلون هم الذين يجدونه». وهذه العبارة تفيد أن المؤمن لن يكون بمفرده تماماً، إذ هناك على أى حال القليلون معه. لكن الأهم من ذلك أن هناك المسيح نفسه يقود المسيرة. وهو الذى قال «إن أراد أحد أن يأتى ورائى»، كما قال أيضاً إنه يُخرج خرافه الخاصة، ويذهب أمامها، والخراف تتبعه. ويالها من تعزية أن نسير وراء المسيح، وأن نسير أيضاً معه!

لكننا نعرف – عزيزى القارئ – أن العبرة ليست بالبداية بل بالنهاية. فترى إلى أين ينتهى المسار بكل من هذين الفريقين؟ المؤسف والعجيب فى آن معاً أنه قل من يهتم من البشر بمصيره فى أهم رحلة له؛ رحلة الأبدية. ولا نجد تفسيراً مقبولاً لانصراف الناس عن التفكير فى نهاية سفره سوى أن إله هذا الدهر أعمى أذهان غير المؤمنين.

الطريق الأول؛ طريق العالم يؤدى إلى الهلاك، وهو ما يذكره الكتاب بأسلوب لا لَبس فيه ولا مداورة (١كو٦:٩، ١٠، غل٥:١٩-٢١، أف٥:٥، فى٣:١٨، ١٩). وآه ما أرعب تلك النهاية. وكلمة «الهلاك» بالإضافة إلى أنها كلمة مُرعبة فإنها كلمة أسيفة؛ أسيفة لأن الله هو الخالق الرحيم الذى يُحيى الكل وليس المُهلك، وأسيفة لأن الإنسان خُلق ليحيا لا ليموت.

والطريق الآخر يؤدى إلى الحياة. فمع أننا نتمتع من الآن بالحياة الأبدية، إلا أننا سندخل عن قريب لملء التمتع بها فى الأبدية السعيدة. إن طريق المسيح الضيق يفضى إلى المدينة السماوية بشوارعها الذهبية، تلك الشوارع الرحبة التى مثل الزجاج الشفاف، فى المدينة التى لا تحتاج إلى شمس ولا إلى القمر ليضيئا فيها، لأن مجد الله قد أنارها والخروف سراجها.

فى البداية تجد البابين إلى جوار بعضهما، لكن طريقاً من الطريقين ذهب صاعداً إلى أعلا، مع ما فى الصعود من مشقة وعناء، والطريق الآخر انحدر هابطاً؛ وما أسهل الانحدار والهبوط. إن الإنسان لا يحتاج إلى بذل الكثير من الجهد لينحدر، فالجاذبية تساعد على ذلك، ويكفى أن يترك الواحد نفسه فينحدر، لكنه انحدار إلى هاوية بلا قرار.

وأخيراً تجد النهايتين، وبينهما – كما قال أبونا ابراهيم – هوة عظيمة قد أثبتت.

تفكّر فى اللصين اللذين صُلبا مع ربنا يسوع المسيح. أما كانا فى البداية على أرضية مشتركة؟ لكن ما أبعد أحدهما عن الآخر اليوم، وإلى أبد الآبدين.

٣٦

من ثمارهم تعرفونهم

"احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة. من ثمارهم تعرفونهم؛ هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً؟ هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة، وأما الشجرة الردية فتصنع أثماراً ردية. لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثماراً ردية، ولا شجرة ردية أن تصنع أثماراً جيدة. كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تُقطع وتُلقى في النار. فإذاً من ثمارهم تعرفونهم"

(مت ٧: ١٥-٢٠).

ذكرنا في الفصل السابق أن الرب انتهى في العدد الثاني عشر من متى٧ من تعاليمه العظيمة في موعظة الجبل، وبدأ يقدم لسامعيه التحريضات العملية والتحذيرات الختامية. فقدم في ع١٣، ١٤ تحريضاً على اختيار الطريق الصحيح «ادخلوا من الباب الضيق»، كما قدم تحذيراً من الطريق الواسع لأنه يؤدي إلى الهلاك، وتشجيعاً على اختيار الطريق الضيق الكرب رغم كل ما فيه من مصاعب ومشقات، لأنه يؤدي إلى الحياة.

لكن الرب في الأعداد التي نتأملها الآن يتحدث عن خطورة الأنبياء الكذبة. ويمكن فهم الارتباط بين هاتين الفكرتين؛ أي بين اختيار الطريق الصحيح وبين الحديث عن الأنبياء الكذبة، بأن مَنْ يقول إن كل الطرق تؤدي إلى الحياة، كيفما كانت الطريق، فإنه بكل يقين،

واحد من هؤلاء الأنبياء الكذبة الذين يحذرنا الرب منهم.

أو يمكن القول أيضاً إن الرب يسوع يوضح أن اختيار الطريق الصحيح لا ينهى المشكلة، فهناك أخطار ستقابل التلميذ فى هذا الطريق الصحيح نفسه. فالشيطان لن يكُف عن محاربة الذين اختاروا الطريق الضيق، إذ سيدس بينهم إخوة كذبة، بل وأنبياء كذبة. فعمل الشيطان من البداية إلى النهاية هو الضلال. وهو يحاول أن يضل لو أمكن المختارين (مت٢٤:٢٤).

علّق أحدهم قائلاً: نحن لا نتصور أن يعلق المسيح لافتة «احترسوا من الكلاب» إذا لم يكن فى الحديقة سوى قطط. وكون المسيح هنا يقول «احترزوا من الأنبياء الكذبة» فهذا معناه بكل وضوح أن طريق رحلتنا سيكون مليئاً بهذا النوع الردئ من الأنبياء؛ صنائع الشيطان.

الأنبياء الكذبة وخطورتهم

ماذا يفعل هؤلاء الأنبياء الكذبة؟ إن العهد القديم ملئ بالكلام عنهم. اقرأ على سبيل المثال نبوة إرميا، تجدها مليئة بالتحذير منهم. يقول عنهم النبى إرميا مثلاً «يشفون كسر بنت شعبى على عثم قائلين سلام سلام ولا سلام» (إر٨:١١). ومن هذا القول نفهم أن هؤلاء الأنبياء كان يميزهم التفاؤل المفرط، وكانوا يقولون للشعب إن نبوخذ نصر لن يأتى، وبالتالى كانوا يطمئنون الناس من جهة الدينونة الوشيكة. وهم مثل الكثيرين فى الوقت الحاضر من الذين لسان حالهم لن يأتى المسيح فى أيامنا؛ «سيدى يبطئ قدومه» (لو١٢:٤٥)، وبذلك فإنهم يغرون الناس على النوم فى خطاياهم.

إنهم بالإجمال يسهّلون الأمور أمام الناس، فلا يتحدثون عن ضرورة التوبة وتغيير المسار، ولا عن لزوم التضحية واتخاذ القرار. يركزون على أن الله محبة ويتجاهلون أن الله نور. يتحدثون عن رحمة الله ولا يذكرون شيئاً عن قداسته، وبلغة يهوذا «يحولون نعمة إلهنا إلى الدعارة» (يه٤).

ولعل واحداً يسأل: لماذا يسمح الله بمثل هؤلاء الأنبياء المضللين؟ والإجابة نجدها فى تثنية١٣:١-٣ «إذا قام فى وسطك نبى أو حالم حلماً، وأعطاك آية أو أعجوبة. ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كلمك عنها.. فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم، لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكى يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم». إذاً فتلك

الهرطقات والبدع شأنها شأن الاضطهادات والتجارب، تعمل كغربال لفصل الحنطة عن التبن.

ذئاب فى ثياب الحملان

يقول المسيح «احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان، ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة». إذاً فتحت فروة الخروف يوجد ذئب. ومع أن منظر هؤلاء الأنبياء من الخارج لا يثير الريبة، إلا أنهم مصدر خطر حقيقى على شعب الله. حقاً ما أخطر أن نأخذ بالمنظر الخارجى وأن نُخدع به. يقول الرسول «أخاف أنه كما خدعت الحية حواء بمكرها، هكذا تفسد أذهانكم عن البساطة التى فى المسيح... لأن مثل هؤلاء هم رُسل كذبة، فعلة ماكرون، مغيرون شكلهم إلى شبه رسل المسيح، ولا عجب لأن الشيطان نفسه يغير شكله إلى شبه ملاك نور، فليس عظيماً إن كان خدامه أيضاً يغيرون شكلهم كخدام للبر، الذين نهايتهم تكون حسب أعمالهم» (٢كو١١: ٣-١٥). إذاً فهؤلاء لم يأخذوا من الحملان سوى مظهرهم، لكنهم فى حقيقتهم وفى فعلهم ذئاب.

كثيرون من المعلمين الكذبة يميزهم المظهر التقوى الحسن، وبهذا المظهر المسيحى يخدعون الناس. وما أكثر ما اجتمع النقيضان؛ ثياب الحملان وأفعال الذئاب، كهؤلاء الذين يقول عنهم الرسول بولس «بالكلام الطيب والأقوال الحسنة يخدعون قلوب السلماء» (رو١٦: ١٨). أو مثل هيمينايس وفيليتس بأسمائهما المشهورة والممدوحة (هيمينايس معناه ترنيمة عرس، وفيليتس معناه محبوب) اللذين قالا إن القيامة قد صارت فيقلبان إيمان قوم (٢تى٢: ١٧، ١٨).

وقد تسبق أسماء البعض منهم ألقاب لاهوتية محترمة، أو ألقاب توقير معظمة، لكن المهم ليس الألقاب بل ماذا تحت الفروة؛ حَمَل أم ذئب؟ نبى حقيقى يوصل للناس كلام الله، أم نبى كذاب يقدم للناس كلام الناس (٢تى٢: ١٨).

وماذا تعمل الذئاب؟ يقول المسيح فى يوحنا ١٠: ١٢ «يخطف الذئب الخراف ويبددها». ويقول الرسول بولس أيضاً «سيدخل بينكم ذئاب خاطفة لا تُشفق على الرعية. ومنكم أنتم سيقوم رجال يتكلمون بأمور ملتوية ليجتذبوا التلاميذ وراءهم» (أع٢٠: ٢٩، ٣٠). إذا فهؤلاء بدل أن يعظموا المسيح، ذاك المستحق وحده للتعظيم، فإنهم يعظمون نفوسهم، وبدل أن يجمعوا مع المسيح فإنهم يفرقون ويشتتون قطيعه، وبدل أن يُخضعوا ذواتهم لأقوال الله الحية، فإنهم يقدمون أفكاراً وآراء ونظريات، وبذلك فإنهم يبددون الرعية ويقسمونها إلى

شيع وطوائف ومدارس، وتكون النتيجة أن تتحول النفوس من وراء المسيح الذى مات ليجمع أولاد الله المتفرقين إلى واحد، إلى هذا الاتجاه أو ذاك.

من ثمارهم تعرفونهم

يقول المسيح بعد ذلك «من ثمارهم تعرفونهم. هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً؟». والمسيح هنا بعد أن تحدث عن الحملان والذئاب، ها هو يتحدث عن الشجرة والثمرة، وبذلك ينتقل من عالم الحيوان إلى عالم النبات. أنت من بعيد ترى الأشجار كلها تقريباً لها نفس الشكل، لكن عندما تقترب منها تستطيع أن تميز بواسطة الثمر بين الأشجار المختلفة، كما تميز بين الشجرة المثمرة والشجرة العقيمة، وبين الثمر الجيد والثمر الردئ.

هذا هو الامتحان الحقيقى: ما هو الثمر الذى يقدمه أولئك المعلمون؟ هل هم فى حياتهم يظهرون صفات ربنا يسوع، وما أسماه الرسول فى مكان آخر «ثمر الروح» (غل٥: ٢٢). وهل هم فى خدمتهم يمجدون الله؟ هل يتعظم المسيح فى كلامهم؟ هل تتخلص النفوس بواسطة كرازتهم من عبودية الشيطان؟ وهل عن طريقهم يتعزى المؤمنون ويُبنون فى الحق الإلهى؟ هل تزداد أشواق سامعيهم إلى فرص الصلاة، ويظهر فيهم المزيد من حياة التقوى؟ أم أنهم على العكس شحنوا الأذهان بأفكار جعلت النفس تبتعد رويداً رويداً عن نهركلمة الله الصافى، وجعلت الحالة الروحية لشعب الله تنضب، وتظهر فيهم أعمال الجسد. نعم «من ثمارهم تعرفونهم».

والرب ذكر نفس هذا التشبيه فى متى١٢: ٣١-٣٧ بالنسبة للذين يقولون كلمة على ابن الإنسان. وبالتالى يمكن القول إن تقدير المعلم لشخص المسيح هو أحد البراهين الواضحة على ما إذا كان الشخص معلماً حقيقياً أم أنه خادع ومزيف. تُرى ما هو توافقه فى تعليمه عن المسيح مع أقوال الرسل (انظر ١يو٤: ٢-٦). إن الكتاب المقدس هو فى النهاية، الحكم والمقياس الدقيق الذى به يمكننا أن نحكم حكماً صحيحاً على الشخص. والمسيح نفسه - تبارك اسمه - أخضع نفسه لهذا الامتحان كما نقرأ فى يوحنا٧: ١٨.

والمسيح فى الأقوال التالية يضع مبدءاً عاماً عندما يقول «هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً؟». ثم يقول «هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة، وأما الشجرة الردية فتصنع أثماراً ردية». ومن هذا نفهم أن المسيحية ليست مجرد ممارسات خارجية، بل هى نوع حياة مختلف يُثمر أثماراً لمجد الله. ويذكر الرب نوعين من الثمار هما العنب

والتين؛ العنب هو الثمر الذى يفرِّح الله والناس (قض٩: ١٣)، والتين هو الثمر اللذيذ الذى اشتهاه المسيح لما كان بالجسد هنا على الأرض، لكنه لم يجد فى الشجرة يومها سوى مظهر خارجى بدون ثمر (قض٩: ١١، مر١١: ١٢، ١٣).

ثم يقول المسيح «لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثماراً ردية، ولا شجرة ردية أن تصنع أثماراً جيدة». والمسيح هنا لمس فعلاً مشكلة الإنسان الكبرى؛ فإن مشكلة الإنسان الطبيعى هى أنه لا يحب ناموس الله. ثم إنه إذا أحبه لا يقدر أن ينفذه أو يطيعه. لكن شكراً لله الذى عالج هاتين المشكلتين علاجاً جذرياً؛ فبالولادة الجديدة حصلنا على طبيعة إلهية تكره الخطية وتحب البر، أو بالحرى تُسَرّ بناموس الله. ثم بنوالنا عطية الروح القدس حصلنا على القوة التى تمكننا من السلوك العملى المرضى لله. الطبيعة الجديدة التى تحب البر نقرأ عنها فى رومية٧، إنها الإنسان الباطن (٧: ٢٢)، ثم الروح القدس الذى يمنح القوة، نقرأ عنه فى رومية ٨ إنه «روح الحياة فى المسيح يسوع» (٨: ٢، ٤).

وكما بدأ الرب كلامه فى هذه الفقرة بالقول «من ثمارهم تعرفونهم» (ع١٦)، فإنه يختمها أيضاً بنفس العبارة «فإذاً من ثمارهم تعرفونهم». والرب طبعاً لا يوجه كلامه لكل الناس بل لتلاميذه، الذين بوسعهم أن يحكموا حكماً صائباً فى الأمور «الروحى يحكم فى كل شىء» (١كو٢: ١٥). والمسيح هنا يساعدنا كى لا نُخدع بالمظاهر الخارجية عديمة القيمة، بل نعتبر الثمر.

التطبيق النبوى

هذه الأقوال ستتم بصورة مُرعبة بعد الاختطاف، وهو ما يذكره الرب بفمه الكريم فى متى٢٤. فهذا الشعب الذى رفض المسيح عندما أتى إليهم، سيقوم بينهم مُسحاء كذبة وأنبياء كذبة كثيرون (مت٢٤: ٥، ٢٤). وعن هؤلاء الأنبياء الكذبة تَرِد كلمات زكريا النبى «يلبسون ثوب شعر لأجل الغش» (زك١٣: ٤) مقلدين فى ذلك إيليا النبى (٢مل١: ٨، انظر أيضاً مت٣: ٤). فكأن كل مؤهلات أولئك الأنبياء هو ثوب الشعر الذى اشتهر به إيليا النبى. هذا ما ينتظر تلك الأمة بعد الاختطاف عندما يرسل إليهم الله عمل الضلال حتى يصدقوا الكذب، لكى يُدان جميع الذين لم يصدقوا الحق بل سُروا بالإثم (٢تس٢: ١١). أما بالنسبة لنا الآن فنحن لسنا فى خطر من المُسحاء الكذبة ولا الأنبياء الكذبة بل الخطورة تكمن فى المعلمين الكذبة (٢بط٢: ١).

وكم شاهدت المسيحية على مرّعصورها من أمثال هؤلاء المعلمين الكذبة؛ هراطقة أنكروا لاهوت الابن، وأنكروا كمال الكفارة وأنكروا القيامة، وأنكروا وحي الكتاب المقدس. بالإضافة إلى أولئك الذين يريدون أن يسبونا بالفلسفة وبغرور باطل حسب تقليد الناس وليس حسب المسيح (كو٢:٨).

يضيف الرب هذا الكلام الخطير «كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تُقطع وتُلقى في النار». لقد سبق للمعمدان بصوته المجلجل أن أعلن نفس هذا الإعلان الخطير (مت٣:١٠). وها الرب يكرره بكل وضوح. إن النار الأبدية، وقتام الظلام المُخيف، والهلاك الأبدي، ينتظر أولئك الأنبياء الكذبة، تماماً كما ينتظر المعلمين الكذبة الذين يدسون بدع هلاك هم والكثيرون الذين يتبعون تهلكاتهم.

٣٧

ليس من يقول بل الذى يفعل

"ليس كل مَنْ يقول لى يارب يارب يدخل ملكوت السماوات، بل الذى يفعل إرادة أبى الذى فى السماوات. كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم يارب يارب أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة. فحينئذ أصرّح لهم إنى لم أعرفكم قط. اذهبوا عنى يا فاعلى الإثم"

(مت٧:٢١-٢٣).

كان الرب يسوع قد حذر سامعيه فى الأقوال السابقة مباشرة من الذين يأتون بثياب الحملان، وهم من داخل ذئاب خاطفة. وذكر فى تحذيره هذا، تلك العبارة مرتين «من ثمارهم تعرفونهم»، بمعنى أنه لا يوجد مبرر للانخداع من الآخرين لأنه «من ثمارهم تعرفونهم». ويواصل الرب فى الأقوال موضوع دراستنا فى هذا الفصل مُحذراً مما هو أمرّ من خداع الناس، أعنى خداع النفس؛ أن يخدع القلب صاحبه. وبذلك فإن المسيح ينتقل من الحديث عن معلم مضلّل، إلى متعلم مضلّل.

ولقد انصرف تحذير الرب فى الأعداد السابقة على الانخداع بالمظهر الخارجى؛ ثياب الحملان من الخارج، لكن من الداخل ذئاب خاطفة. فلم يحدث فى القلب توبة ولا ظهرت أثمار تليق بالتوبة. إن معسول الكلام ليس بديلاً عن توبة القلب. أما فى الأعداد موضوع دراستنا الآن فيتجه تحذير الرب إلى خطر الاكتفاء بعظيم الأفعال دون أن يكون لدى صاحبها إيمان قلبى

حقيقى، فمكتوب «بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه» (عب١١:٦).

إذاً فالكلمات العذبة والمظهر البرىء لا تغنى عن التوبة القلبية وأثمارها. كما أن العقيدة الصحيحة والأعمال الفائقة لا تغنى عن الإيمان القلبى المُثمر.

ويمكن تقسيم أقوال الرب هنا إلى عنصرين أساسيين: تقرير المسيح الخطير، ثم مثال توضيحى. والمثال الذى قدمه المسيح ينقسم إلى: كلام المخدوعين المرائين وردُّ الرب عليهم.

مجرد الاعتراف

يقول المسيح «ليس كل من يقول لى يارب يارب يدخل ملكوت السماوات». هذه الآية المهمة تعنى ضمناً أنه دون الاعتراف بربوبية المسيح لن يدخل الإنسان إلى ملكوت السماوات. فهذا الاعتراف شىء ضرورى ومبدئى، وله أهميته الخاصة فى موضوع خلاص النفس، لأنه مكتوب «إن اعترفت بفمك **بالرب** يسوع وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلصت. لأن القلب يؤمن به للبر، والفم يعترف به للخلاص» (رو١٠:٩ ، ١٠). وعليه فإن مَنْ ينكر لاهوت المسيح دعه لا يحلم أنه سيجد القبول فى النهاية أو أنه سيحظى بالخلاص. لن يكون له نصيب فى بركات الملكوت الآن أو فى ما بعد، سواء فى دائرته الأرضية أو السماوية.

لكن المسيح يستطرد موضحاً أن هذا وحده لا يكفى. إنه جوهرى وأساسى، لكنه ليس كل ما فى الأمر. وبلغة العلوم نقول: إن كل مَنْ لا يقول يارب، لن يدخل ملكوت السماوات، ولكن ليس كل مَنْ يقول هكذا يدخل الملكوت.

إن الكتاب المقدس يعلن بكل وضوح أنه سيأتى قريباً اليوم الذى فيه ستجثو باسم يسوع كل ركبة ممن فى السماء ومَنْ على الأرض ومن تحت الأرض، ويعترف كل لسان أن يسوع هو رب. فهل معنى ذلك أن الكل سوف يدخلون الملكوت فى النهاية؟! أو هل الجماهير الكثيرة التى تعترف اليوم بشفاهها أن يسوع هو رب هم مخلصون؟! كلا، فمع أن الاعتراف بأن يسوع هو الرب، له الأهمية الكُبرى، لكن المرء لا يجب أن يقف عند هذا الحد. إن المسيحية ليست شيئاً تنطق به الشفاه، بل هى أكثر من ذلك جداً، إنها حياة عملية مختلفة تعتبر الترجمة الصادقة لشعار «يسوع رب».

ولهذا تَرِد كلمات الرسول بولس عن قوم «يعترفون بأنهم يعرفون الله، ولكنهم بالأعمال ينكرونه، إذ هم رجسون غير طائعين، ومن جهة كل عمل صالح مرفوضون» (تى١:١٦). إنه شىء غريب كل الغرابة أن تقول إن يسوع رب، ثم لا تفعل ما يريده هو، بل تمضى عاملاً

مشيئتك أنت ومسرتك. كيف يكون هو فى هذه الحالة رباً؟ إن الاعتراف بربوبيته ينبغى أن يتضمن الإقرار العملى بعبوديتنا له. ينبغى أن يتبعه أن نقول له من أعماق القلب «يا رب ماذا تريد أن أفعل؟» (أع٩:٦).

نعم «ليس كل من يقول لى يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات». ونحن نعرف أن هذه العظة قالها المسيح بعد أن تبعته جموع كثيرة إلى فوق الجبل إذ كانوا قد رأوا الآيات العظيمة التى فعلها (مت٤:٢٣-٢٥). لكن ما قيمة أن تتبعه الجموع لأنهم رأوا آيات؟ وما قيمة مجرد إعجابهم بشخصه، إذا لم يكن هذا مقترناً بتوبة قلبية عن الخطية، وتغير كُلى فى الحياة؟ ألعلهم بمجرد اتّباعهم له صاروا تلاميذ حقيقيين له؟ كلا البتة. فكل ما كان يميزهم هو اتّباع ظاهرى له، واعتراف سطحى بربوبيته.

بل الذى يفعل

يقول المسيح «ليس كل من يقول... بل الذى يفعل» كان المفروض أن يسير القول والفعل معاً فى ذات الاتجاه. لكن بالأسف كم من أشخاص لهم صوت يعقوب ويدا عيسو! وما أبعد الفارق بين اعتراف شفاههم وأفعالِ أيديهم. عبَّر أحد الأفاضل على ذلك المعنى بتلك الأبيات الجميلة:

إننا بالصوت ننشد ... خلنى قرب الصليب
إنمــا الواقــع إنـا ... نبتغى منه الهـروب

هكذا هؤلاء القوم أيضاً. قدموا للرب الإكرام بأفواههم. وماذا بعد ذلك؟ لا شىء بالمرة، فهم مثل الغيوم التى بلا ماء، أو الأشجار الخريفية التى بلا ثمر، أو النجوم التائهة التى لا تُنير لأحد، وليس ذلك فقط، بل أيضاً قد حُفظ لها قتام الظلام إلى الأبد (يه١٢، ١٣).

«ليس كل من يقول لى يارب يارب يدخل ملكوت السماوات، بل الذى يفعل إرادة أبى الذى فى السماوات». تُرى ما هى إرادة الآب الذى فى السماوات؟ من الكتاب المقدس نفهم أن إرادة الآب هى أن الناس يستمعون إلى الابن، وأنهم يؤمنون به. لقد قال الآب من فوق الجبل المقدس «هذا هو ابنى الحبيب الذى به سُررت، له اسمعوا» (مت١٧:٥)، وقال المسيح لليهود «هذا هو عمل الله (أى العمل الذى يريده الله) أن تؤمنوا بالذى هو أرسله... لأن هذه هى مشيئة الذى أرسلنى أن كل من يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة أبدية» (يو٦:٢٩، ٤٠).

وفعل إرادة الله هو أبسط تعريف لعمل البر. وعكسه فعل الإرادة الذاتيـة الذى هو

أبسط تعريف للخطية كما نفهم من ١يوحنا٣:٤ وعلى من يسمى اسم **الرب** أن يتجنب **الإثم** وأن يتّبع **البر** (٢تى٢:١٩، ٢٢).

* * * *

يتقدم الرب بعد ذلك ليذكر مثالاً عما سيحدث يوم الدينونة كتطبيق لما كان قد قاله تواً، ويمكننا تتبع سبعة أفكار بخصوص أولئك المخدوعين فى يوم الدينونة الرهيب.

أولاً : مَنْ هم أولئك المخدوعين؟

إنهم على أى حال ليسوا فئة قليلة، أو شرذمة لا يُعتد بها، بل إنهم بالأسف على حد تعبير المسيح هنا «كثيرون». ليحذر القارئ العزيز من أن يجد نفسه ضمن هؤلاء الكثيرين.

ثانياً : مَنْ هو الديان؟

إنه المسيح، مُخلّص الخطاة اليوم، والديان للرافضين غداً. فيقول المسيح «كثيرون سيقولون لى». فالمسيح بلغة الرسول بطرس هو المعيَّن من الله دياناً للأحياء والأموات» (أع١٠:٤٢)، والقصد من ذلك أن يُكرِم الجميع الابن كما يكرمون الآب (يو٥:٢٢، ٢٣). واعلم أن المسيح ديان الجميع هو العارف القلوب والأعماق والسرائر.

ثالثاً : يوم الدينونة

«كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم». والتعبير «ذلك اليوم» يَرِد بكثرة فى كل من العهدين القديم والجديد، ويعنى يوم الرب. وفى ذلك اليوم سيقف المؤمنون أمام كرسى المسيح فى السماء ليأخذوا المكافآت على خدماتهم (٢تى١:١٨، ٤:٨). وسيقف الأحياء جميعاً أمام الملك ليُدانوا منه دينونة الأحياء (مت٢٥:٣١-٤٦، ملا٤:١)، كما سيقف الأشرار أمام العرش العظيم الأبيض ليُدانوا عن جميع ما فعلوا (رؤ٢٠:١١-١٥). ولأن هذه الوقفة أمام المسيح تسبق الدخول إلى ملكوته، فالأرجح أن الإشارة هنا هى بالأكثر إلى دينونة الأحياء.

يا للأسف أن هؤلاء الكثيرين لم يكتشفوا زيفهم إلا متأخراً جداً، بعد أن ولّى زمان النعمة ومضى يوم الخلاص ووقت القبول، وجاء يوم انتقام لإلهنا.

رابعاً : التماس العفو

هؤلاء الكثيرون فى محاولة يائسة منهم سيتقدمون بالتماس للعفو وطلب الرحمة، فيقول المسيح «كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم يارب يارب أليس باسمك تنبأنا وباسمك

أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة». وكما نرى فإنهم قدموا التماس العفو مشفوعاً بحيثيات ثلاث:

١- *أن عندهم العقيدة صحيحة*: سيقولون لى .. يارب يارب. فرغم سلامة إيمانهم واستقامة عقيدتهم، لكن هل هذه الحيثية شفعت لهم عند الديان؟ سنرى.

٢- *ثم إنهم يمتلكون الغيرة الكبيرة*: فهم ليسوا عقلانيين باردين، بل هم غيورون متحمسون. يقول المسيح «ليس كل من يقول لى يارب يارب». إذاً فلقد قالوا كلاماً صحيحاً وبأسلوب مؤثر. فهل أسلوبهم الحماسى شفع لهم عند الديان؟ سنرى ذلك أيضاً.

٣- *ثم إنهم أرفقوا كل ما سبق بأعمال معجزية خارقة*. فيقولون للرب أليس باسمك تنبأنا، وباسمك أخرجنا شياطين، وباسمك صنعنا قوات كثيرة.

أيمكن أن يتنبأ الإنسان باسم المسيح ويهلك؟ نعم. تذكّر بلعام العرّاف الشرير فى سفر العدد ٢٢-٢٤ الذى نطق بأعظم النبوات لا عن شعب الله فقط بل عن مسيح الله أيضاً، لكنه هلك (يه١١). وتذكّر شاول الملك الشرير، فهو أيضاً تنبأ (١صم١٩: ١٨-٢٤)، وفى نفس الوقت كان يحاول جهده قتل داود مسيح الرب. بل تذكّر رئيس الكهنة قيافا الضالع فى جريمة الدهور الكُبرى؛ قتل ابن الله، هذا أيضاً تنبأ (يو١١: ٤٩-٥٢). لكن أين ثلاثتهم الآن؟

ثم أيمكن أن شخصاً يُخرج شياطين باسم المسيح ويهلك؟ نعم. ألم يفعل ذلك يهوذا الاسخريوطى؛ الذى هو «ابن الهلاك» (مت١٠: ١-٨، يو١٧: ١٢).

ثم أيمكن أن يعمل أحد قوات كثيرة باسم المسيح ولا يكون مُخلّصاً حقيقياً؟ نعم، إنهم تماماً مثل المذكورين فى الرسالة إلى العبرانيين ٦ الذين ذاقوا... قوات الدهر الآتى، لكنهم لم يُظهروا الأمور الأفضل المُصاحبة للخلاص التى أشار إليها الرسول بعد ذلك (قارن ع٤-٦ مع ع٩، ١٠). قال الرسول بولس «إن كانت لى نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم. وإن كان لى كل الإيمان حتى أنقل الجبال، ولكن ليس لى محبة فلست شيئاً» (١كو١٣: ١-٢).

والدرس المستفاد من ذلك هو أنه إذا كان بوسع الشيطان أن يبعد الإنسان عن دخول الملكوت بأن يجعله يقول «يا رب يا رب» فإنه لن يتأخر عن ذلك. وإن كان يمكنه أن يبعد البشر عن نعمة الخلاص والحياة الأبدية عن طريق إخراج الشياطين فإنه سيرحب بذلك.

لا عجب أن قال المسيح لتلاميذه يوم أتوا يقولون له «يا رب حتى الشياطين تخضع لنا باسمك. فقال لهم... لا تفرحوا بهذا أن الأرواح تخضع لكم، بل افرحوا بالحرى أن أسماءكم كُتبت فى السماوات» (لو١٠:١٧-٢٠). وكأن المسيح يصحح أفكار تلاميذه قائلاً: ألم أخبركم فى موعظة الجبل أن ليس ما تعملونه هو المهم، بل المهم هو حالتكم الحقيقية التى لا يعرفها تماماً سوى الله؟!

خامساً : الإعلان الرهيب :

«فحينئذ أصرِّح لهم أنى لم أعرفكم قط». حقاً إن المسألة المهمة ليس ما نقوله عن الرب الآن، ولا ما سوف نقوله له فى ذلك اليوم، بل المهم ما يقوله هو لنا، ذاك الذى لا يمكن أن يخدع. هل سيقول لنا «نعماً أيها العبد الصالح والأمين» أم أنه سيقول لنا «لم أعرفكم قط».

ثم نلاحظ أن الرب لا يقول لهم: لقد كنت فى وقت سابق أعرفكم وكانت لى معكم علاقة، أما الآن فكل شيء قد انتهى، بل يقول لهم **لم أعرفكم قط**. فهم لم يكونوا فى وقت من الأوقات مغفورى الإثم ثم هلكوا، بل مجرد مزيفين وانكشفت حقيقتهم.

وغنى عن البيان هنا أن المعرفة التى يقصدها الرب، هى معرفة العلاقة الخاصة والشركة، وليست المعرفة العامة، فالرب باعتباره الديان يعرف كل شيء عن جميع البشر. إنه فاحص القلوب ومُختبر الكلى (إر١٧: ١٠ ، رؤ٢:١٨ ، ٢٣)، ويقول المرنم «الرب يعرف أفكار الإنسان أنها باطلة» (مز٩٤:١١). لكن الرب لم تكن له شركة مع هؤلاء القوم، ولم يجد سروره فيهم حتى وهم يتنبأون باسمه، وحتى وهم يحملون اسمه على أفواههم، بل وعندما كانوا يعملون عظيم الأعمال.

بالمقابلة مع هذا يقول المسيح عن المؤمنين؛ خرافه الخاصة «وأعرف خاصتى وخاصتى تعرفنى» (يو١٠:١٤). هذه هى معرفة المودّة والشركة. فهل لك فيها نصيب أيها القارئ العزيز؟

سادساً : الحكم الرهيب

«اذهبوا عنى». ذاك الذى طالما نادى «تعالوا إلىَّ يا جميع المُتعَبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم» (مت١١:٢٨)، سوف يقول لأولئك الأشرار تباعدوا عنى. وفى البُعد عنه لا يوجد سوى الشقاء والضياع، الموت والحزن والكآبة، وذلك إلى أبد الآبدين.

سابعاً: الوصف الحقيقى لأولئك المخدوعين.

«اذهبوا عنى يا فاعلى الإثم». فالمسيح لا يدعوهم هنا يا فاعلى القوات أو المعجزات، بل يا فاعلى الإثم. فلقد كانوا يفعلون الآيات أحياناً لكنهم لم يتوقفوا لحظة عن فعل الإثم.

عزيزى القارئ؛ هل تشعر بأنك تحتاج رحمة من الرب فى هذا الأمر؟ هل تخشى أن تكتشف بعد فوات الأوان أنك كنت واحداً من هؤلاء الكثيرين الذين خدعوا أنفسهم والذين لم يفعلوا مشيئة الآب. بوسعك اليوم أن تطلب من الرب وهو يقيناً سيعطيك، فلقد قال فى نفس عظة الجبل «طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يُشبعون».

٣٨

رجـلان وبيتان

"فكل من يسمع أقوالى هذه ويعمل بها أشبّهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر، فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط، لأنه كان مؤسَّساً على الصخر. وكل من يسمع أقوالى هذه ولا يعمل بها يُشبّه برجل جاهل بنى بيته على الرمل فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح وصدمت ذلك البيت فسقط، وكان سقوطه عظيماً"

(مت ٧:٢٤-٢٧).

لقد ذكر المسيح فى الأقوال السابقة مباشرة لهذه الأقوال أن ليس كل من يقول له يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات، وها هو يردف بذكر مثل الرجل العاقل والرجل الجاهل.

فى الأقوال السابقة حدثّنا المسيح عن أشخاص يقولون أفضل الكلام؛ لكن هذا الكلام الحسن الذى يقولونه لم يُفدْهم. وهنا يتحدث عن أشخاص يسمعون أعظم الأقوال؛ أقوال المسيح نفسه، لكنهم أيضاً لم يستفيدوا من أقواله العظيمة! لماذا؟ لنفس السبب السابق. فالذين قالوا يا رب يا رب لم يدخلوا ملكوت السماوات لأنهم لم يفعلوا إرادة الآب السماوى، وهنا الذين سمعوا أقوال المسيح لم يستفيدوا لأنهم لم يعملوا بها.

فليس المحك الأساسى إذاً هو ما تقوله أو ما تسمعه، بل ما تفعله. فالرب يُسرّبالحق فى الباطن. إن المسيحية ليست قشرة سطحية، لكنها حقيقة داخلية. إنها تبدأ من القلب وتمتد لتشمل كل الحياة. أما من يكتفى بكلمات يرددها أو كلمات يسمعها، فسيكتشف - بعد

فوات الأوان - أنه لم يخدع إلا نفسه.

والعلاقة بين هذين الفريقين وثيقة ونجدها فى أقوال الرسول يعقوب. ففى أصحاح١: ٢٢-٢٥ حدثنا عن فريق يسمع الكلام ولا يعمل به بل يخدع نفسه، هؤلاء هم مثل الفريق الذى نراهم فى الأعداد موضوع دراستنا. ثم فى أصحاح٢: ١٤ يحدثنا الرسول يعقوب عن شخص يقول إن له إيماناً ولكن ليس له أعمال، وهو مثل الفريق الذى تأملنا فيه فى أقوال المسيح السابقة. الفريق الواحد استخدم الشفاه لا القلب، والفريق الآخر استخدم الآذان لا القلب. والمسيح بعد ما شدد على العلاقة بين القول والعمل، فإنه الآن يشدد على العلاقة بين السمع والعمل.

وسواء هذا الفريق أو ذاك فإنهما يعودان بنا إلى أقوال المسيح الأسبق عندما حذرنا من الانخداع بالمظاهر، قائلاً: احترزوا من الذين يأتونكم بثياب الحملان وهم من داخل ذئاب خاطفة، ثم قال: من ثمارهم تعرفونهم. والرب بعد أن رفع أبصارنا عالياً لنلاحظ الثمر، فإنه الآن يأخذ فكرنا إلى الأعماق لنعتبر الأساس.

نوعان من البشر

يحدثنا المسيح فى الأقوال التى ندرسها الآن عن نوعين من البشر. وعظة الجبل - إن كنا قد لاحظنا ذلك فى ما سبق - مليئة بالمباينات الكثيرة جداً، آخرها المباينة فى هذه الأعداد. وهاك بعض هذه المباينات:

من نقض إحدى الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا، ومن عمل وعلم
الأصغر فى ملكوت السماوات، والذى يُدعى عظيماً فى ملكوت السماوات
الذى يفعل بره أمام الناس، والذى يفعل بره فى الخفاء.
الذى نال أجره، والذى يجازيه الآب.
ثم هناك نوعان من الكنوز: كنوز على الأرض، وكنز فى السماء.
ونوعان من العيون: عين بسيطة، وعين شريرة.
وسيّدان: الله، والمال.
ودائرتان للاهتمام: ملكوت الله وبره، وما نأكله وما نشربه وما نلبسه
ثم هناك بابان، وطريقان، ونهايتان، وفريقان من البشر.
ونوعان من الشجر، ونوعان من الثمر.
وأخيراً فإننا نجد هنا نوعين من الأساس، ونوعين من البشر؛ كما سنرى الآن.

جاهل وعاقل

إن هذا المثل عن الرجل العاقل والرجل الجاهل يشبه إلى حد كبير المثل الوارد في آخر الإنجيل عن العذارى الحكيمات والعذارى الجاهلات (مت٢٥).

في المثلين نجد فريقين، منظرهما الخارجي واحد، رغم أن الاختلاف بينهما خطير. في هذا المثل نجد رجلين، كلاهما بنى بيته. ويبدو أن كليهما بنى في نفس البقعة، حيث أن البيتين تعرضا لنفس الظروف الجوية. ولم يذكر المسيح أي اختلاف بين البيتين سوى في شيء واحد؛ الأساس. والأساس كما نعلم هو شيء غير ظاهر. والذين لا يعنيهم سوى المظاهر يعتقدون أن الأساس، لأنه غير ظاهر، فهو قليل الأهمية. لماذا يتعبون أنفسهم إذا بالحفر العميق في الصخر؟! إن البناء على الرمل أسهل. ثم إن الفارق بين هذا وذاك غير واضح للعين البشرية.

ونفس الأمر نراه في مثل العذارى في متى ٢٥. إن العذارى العشر خرجن معاً للقاء العريس، وكان الجميع معهن المصابيح. لكن خمساً منهن أخذن زيتا في آنيتهن مع مصابيحهن، وخمساً أخريات لم يأخذن معهن زيتاً. ما الفارق بين الفريقين؟ إن المظهر الخارجي واحد تماماً. إن العشرة معهن المصابيح، ألا يكفي هذا؟ وكما أن الأساس في البيت لا يُرى، فإن الزيت في المصباح أيضاً لا يُرى. لكن هذا الفارق غير الظاهر وغير الملحوظ من الناس هو كما ذكرنا، وكما سنرى بعد قليل فارق جوهري.

لكن ثمة مشابهة أخرى، وهي أن كلا الفريقين اكتشف خطأه الفادح بعد فوات الأوان. فبعد منتصف الليل اكتشفت العذارى الجاهلات أن مصابيحهن تنطفئ لعدم وجود الزيت. وعندما ذهبن لشراء الزيت جاء العريس وأغلق الباب دونهن. هكذا هنا، فإن ذلك الرجل الجاهل لم يقدر قيمة الأساس إلا عندما نزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح وصدمت ذلك البيت فسقط.

ونلاحظ ثالثاً أن النوايا الطيبة كانت واضحة لدى كلا الفريقين. فالعذارى خرجن للقاء العريس، ولما حدثت صرخة نصف الليل بأن العريس مقبل قامت العذارى كلهن وأصلحن مصابيحهن، ولما اكتشفت الجاهلات خطأهن طلبن الزيت من الحكيمات، ولما لم يعطيهن ذهبن إلى الباعة، ولما جاء العريس وأغلق الباب أتين قارعات «يا سيد يا سيد افتح لنا». ألا تلاحظ من كل هذا نواياهن الحسنة؟!

هكذا هنا أيضاً. فصاحبنا المسكين، صاحب البيت الساقط، بنى بيتاً ليحتمي فيه من

العواصف والأخطار. وبلغة التطبيق نقول إنه تماماً – مثل الذى بنى بيته على الصخر - كان يرغب فى النجاة من المخاطر القادمة، وفى أن يكون له نصيب فى الراحة الأبدية. بكلمات أخرى كان هو أيضاً يرغب فى غفران خطاياه، وأن يتمتع بالسلام مع الله، وأن يصل إلى السماء فى النهاية. لكن المسكين بعد أن أتم بيته، تمت فيه الكلمات «يستند إلى بيته فلا يثبت، يتمسك به فلا يقوم» (أى ٨:١٥). فعندما أتى وقت الاحتماء فيه سقط، وكان سقوطه عظيماً.

أليس هذا ما كان الرب قد نبّر عليه قبل هذا المثل مباشرة إذ قال «كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم يا رب يا رب أليس باسمك تنبأنا، وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة. فحينئذ أصرح لهم إنى لم أعرفكم قط»؟ هكذا ظلوا فى غفلة، ولم ينتبهوا إلا متأخراً جداً «سيقولون لى فى ذلك اليوم».

البناء على الصخر

مما سبق يتضح لنا أن الأهمية الأولى ليس فى أن تبنى، بل يجب قبل الشروع فى البناء معرفة على أى أساس أنت تبنى. هل أنت تبنى على الصخر أم على الرمال؟

وما هو الصخر الذى ينبغى أن نبنى عليه حياتنا؟ يقول موسى قديماً عن الرب «هو الصخر الكامل صنيعه» (تث٣٢:٤)، وهو ما يكرره سفر المزامير والأسفار النبوية (مز١٨:٢، ٣١، ٩٥:١، إش٢٦:٤، ٤٤:٨، ...الخ)، بل ويكرره الرسول بولس فى العهد الجديد «والصخرة كانت المسيح» (١كو١٠:٤). فهل أنت تبنى حياتك على الرب يسوع المسيح؟ أتقدر أن تقول مع جماهير المؤمنين:

مسيحى صخرى لا يُزال   وغيره الكل رمال

أما الرجل الجاهل فقد بنى بيته على الرمل. والرمل هو أى شىء غير المسيح. فالجاهل إذاً شخص يختصر الطريق، ويتعجل البلوغ إلى الهدف. بكلمات أخرى هو شخص يتحاشى حمل الصليب لأنه متعب، ويبنى حياته على الرمال فالبناء عليه أسهل. لكننا نرثيه بكلمات إرميا النبى «وماذا تعملون فى آخرتها؟!».

إن هذا الرجل هو مثل عيسو أخى يعقوب الذى لم يكن يعنيه سوى حاضره ويومه، لا غده ومستقبله. لقد أراد عيسو بركات الله دون معرفة الله. فمع أن «معرفة القدوس فهم» (أم٩:١٠)، إلا أنها مكلفة إذ ستقود حتماً إلى التوبة ونبذ الخطية. لقد أراد عيسو بركات

الله جنباً إلى جنب مع الخطية. وهكذا الرجل الجاهل هنا تحاشى التوبة التى يكنى عليها فى المثل بالحفر فى الصخر، فتحول بيته إلى قبر!

الامتحان قادم

قال أحد رجال الله[٣٨]: "سواء كانت ديانتك حقيقية أم مزيفة فإنها لابد أن تُمتحن، وسواء كنت تبناً أم حنطة فلا بد أن رفش المذرى الأعظم يتعامل مع كل الموجود فى بيدره. وإن كان لك تعامل مع الله بأية صورة؛ سواء كنت مؤمناً حقيقياً أم مجرد معترف فقط، فإن نيران الممحص ستوضح حقيقتك إن كنت فضة وذهباً أم زغلاً. وإن كانت لك علاقة ببيت الله، فإن الدينونة حتماً ستبدأ بك، لأنه الوقت لابتداء القضاء من بيت الله".

يقول المسيح هنا «فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح ووقعت على ذلك البيت». والأمطار والأنهار والرياح تحدثنا عن الاضطهادات والتجارب والمقاومات. ونلاحظ أن هذه المقاومات أتت على البيت من كل حدب وصوب. فالأمطار نزلت على سقف البيت، والأنهار هاجمت الأساس، والرياح صدمت الحوائط. ويا سعد من بنى على الصخر، فلقد ثبت بيته وصمد أمام تلك الموجات الكاسحات والسيول الغامرات، والويل لمن بنى على الرمال فقد صار بيته أثراً بعد عين.

أو قد نرى فى الأمطار التى تنزل من السماء صورة للتجارب التى تأتى إلينا من عند الله (أى٣٧). والرياح تصور لنا هياج الشيطان باعتباره رئيس سلطان الهواء (أف٢:٢). وأما الأنهار التى تأتى إلينا من أسفل فإنها تحدثنا عن ظروف الحياة الصعبة من مرض أو حزن أو فقر أو خيبة الآمال، كما تُحدّثنا أيضاً عن هياج الأعداء (إش٥٩:١٩)، واضطهادات البشر الذين قال عنهم المرنم «لولا الرب الذى كان لنا.. عندما قام الناس علينا... إذاً لعبرت على أنفسنا المياه الطامية» (مز١٢٤:١-٥).

يقول المسيح عن ذلك البيت المبنى على الرمال «فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح وصدمت ذلك البيت فسقط، وكان سقوطه عظيماً». والسقوط العظيم هنا يعنى سقوطاً بلا قيام. فنحن نعلم أن الصدّيق يسقط سبع مرات لكنه يقوم بعدها (أم٢٤:١٦)، أما السقوط هنا فهو سقوط نهائى لا قيام من بعده.

لقد انتهت الأعداد السابق التأمل فيها بحديث الرب عن ذلك اليوم، ثم أعقب ذلك بالمثل موضوع درأستنا الآن وهو بكل يقين يحدثنا أيضاً عن ذلك اليوم. لن ينجو فى ذلك

اليوم إلا من يبنى على المسيح. أما الآخرون الذين بنوا قصوراً من الرمال على أقوال البشر مهما كانوا ، سيكتشفون أنهم هم والبشر الذين بنوا على كلامهم بلا ساتر يحميهم من أهوال يوم الدينونة الرهيب. وعندما يقول الرب هنا أن البيت سقط سقوطاً عظيماً ، سقوطاً بلا قيام فهذا معناه بكل وضوح أن لا فرصة ثانية كما يعلم بعض المعلمين الكذبة ، فالذى ليس له ابن الله لن يرى حياة ، بل يمكث عليه غضب الله.

قارئى العزيز، على أى أساس بنيت بيتك؟ وبناء على أقوال مَنْ حددت أبديتك؟

٣٩

تذييل العظة

"فلما أكمل يسوع هذه الأقوال بُهتت الجموع من تعليمه، لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة"

(مت٧: ٢٨، ٢٩).

كم نشكر الرب من أجل موعظة المسيح من فوق الجبل، هذه الموعظة العظيمة، والتى كما عرفنا هى أول عظات المسيح المسجلة له فى الأناجيل، والتى شغلت بين عظات المسيح أطول مساحة من الكتاب المقدس، والتى تجولنا فى هذا الكتاب بين رحابها، واقتطفنا من حلو ثمارها أشهى الكلام وأسمى التعاليم. كيف لا وهى كلمات الرب الذى لم يتكلم إنسان قط مثله، إذ هو أبرع جمالاً من بنى البشر، انسكبت النعمة على شفتيه.

ومن الكلمات المسجلة فى إنجيل متى، والمصدّر بها هذا الفصل، نفهم أن الجموع تعجبت من تعاليم المسيح، وأن سر تعجبهم الأكبر كان السلطان الذى تكلم به المسيح.

والمسيح كان دائماً موضوع التعجب والحيرة، فهو مختلف ومتميز عن جميع الناس فى كل شىء. لم يولد كباقى البشر (إش٧: ١٤)، ولم يعمل كباقى البشر (يو١٥: ٢٤)، ولم يتكلم كباقى البشر (يو٧: ٤٦)، ولم يَمُت كباقى البشر (مت٢٧: ٥٠-٥٤)، ولم يستمر فى قبضة الموت كباقى البشر (أع٢: ٢٤-٣٢). من قبل مولده شهدت النبوات عن ذلك عندما قال عنه إشعياء «ويُدعى اسمه عجيباً» (إش٩: ٦). ونحن نقرأ فى الأناجيل أن الناس

بُهتوا من فهمه (لو٢:٤٧)، ومن تصرفاته (لو٢:٤٨)، وبُهتوا من أقواله (مت١٩:٢٥، مر١٠:٢٦)، ومن أعماله ومعجزاته (مر٢:١٢، ٥:٤٢، ٦:٥١، ٧:٣٧)، من سلطانه على الرياح الهائجة (مر٤:٤١)، وعلى الأرواح الشريرة (مت١٢:٢٣؛ لو٩:٤٣)، من موته السريع (مر١٥:٤٤)، ومن قيامته اللاحقة (مر١٦:٨، لو٢٤:٢٢).

أما نحن فإننا لا نتعجب من تعجب الجموع فى ذلك اليوم، لأننا نحن أيضاً وبعد نحو عشرين قرناً لا زلنا نتعجب بل ونُعجب. وعندما يقول البشير هنا إن الجموع بُهتت من تعليم المسيح لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة، فهذا معناه أنهم بُهتوا من المحتوى ومن الأسلوب. فما قاله كان عجيباً ويختلف عن تصورهم وتوقعهم، وهو ما ناقشناه على مدى الصفحات السابقة. لكننا الآن ومع المستمعين لسيدنا فى ذلك اليوم، نحوّل أنظارنا من العظة إلى الواعظ، ومن التعليم إلى المعلم. ونشارك الجموع تعجبهم من أسلوب ذلك الشخص الفذ الفريد، الذى كان يعلم كمن له سلطان.

تُرى فى أى موضع من مواضع سلطان المسيح كان تعجب الجموع أكثر فى ذلك اليوم؟ إننا يمكننا أن نتتبع سبعة مواضع لسلطانه يقيناً كان بعضها أو كلها موضوع تعجب السامعين فى ذلك اليوم.

١ - سلطانه كمعلم

إنه ليس كمعلميهم الذين كانوا يستمدون سلطانهم من البشر السابقين وينقلون تعاليمهم عن أقوال السالفين (عن فلان بن فلان)، ولا حتى كان - تبارك اسمه - كالأنبياء الذين ينقلون للناس كلام الله قائلين «هكذا قال الرب»، فالمسيح لم يَقُل هذا التعبير ولا مرة واحدة، بل قال ست مرات فى هذه العظة «سمعتم أنه قيل للقدماء ... أما أنا فأقول لكم».

كان معلموهم يتكلمون بتفويض من سلطة بشرية (مت٢١:٢٣)، أما المسيح فكان يتكلم بسلطانه هو. وعندما أتى إليه نيقوديموس «معلم إسرائيل»، قائلاً له «يا معلم نعلم أنك قد أتيت من الله معلماً»، فإن المسيح فى ردّه عليه قال له «الحق الحق أقول لك إننا إنما نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا» (يو٣:٢-١١). فهل مرّ على هذا الشعب من بداية تاريخه معلم نظير هذا؟! حقاً «مَنْ مثله معلماً» (أى٣٦:٢٢). فمَنْ يكون هذا؟

٢ - سلطانه كالمسيح

فيقول فى ص٥:١٧ «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل

لأكمل». ومن هذه الآية نفهم أنه لم يبدأ وجوده من مذود بيت لحم، بل كان له وجود سابق. إنه هو الآتى (مت١١:٣)، «الآتى باسم الرب» (مت٢١:٩). ولقد جاء مُرسلاً من الله لمهمة عظيمة؛ جاء ليكمل الناموس والأنبياء، إذ بدونه ما كانت رموز الناموس تكمل، ولا نبوات الأنبياء تتحقق. لو لم يأتِ - تبارك اسمه - لكانت كل رموز الناموس تشير إلى فراغ، ونبوات الأنبياء تتحدث عن لا شيء. إنه موضوع الكتاب المقدس كله، وحوله تدور أسفار الوحى الكريم، بل ومشورات الأزل أيضاً. ليس هو إذاً واحداً من الأنبياء، ولا حتى أعظمهم ولا خاتمهم، بل هو مَنْ تكلم عنه الأنبياء «له يشهد جميع الأنبياء» (أع١٠:٤٣)، وهو ذاك الذى تنبأوا عن آلامه وعن الأمجاد التى بعدها (١بط١:١١).

فى هذه العظة أشار المسيح له المجد سبع إشارات مباشرة إلى الملكوت (٥:٣، ١٠، ١٩مرتين، ٢٠؛ ٦:١٠؛ ٧:٢١). ولا غرابة فإنه هو الملك، مُنتظر الأمة، وقد وصل أخيراً إلى خاصته.

٣ - سلطانه كالرب

فيقول فى ص٧:٢١ «ليس كل مَنْ يقول لى **يا رب يا رب** يدخل ملكوت السماوات». ثم يستطرد قائلاً «كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم **يا رب يا رب**، أليس باسمك تنبأنا .. فحينئذ أصرّح لهم إنى لم أعرفكم قط». ومن الأقوال المناظرة التى وردت فى إنجيل لوقا٦:٤٦ يقول المسيح «لماذا تدعوننى يارب يارب وأنتم لا تفعلون ما أقوله». الأمر الذى يدل على أن كلمة «رب» هنا ليست مجرد عبارة احترام مثل «يا سيد» التى نستعملها أحياناً فى أحاديثنا للتعبير عن الاحترام، بل إنها أحد أسماء الجلالة. فهو ليس مجرد سيد يليق به الاحترام، بل رب تليق به الطاعة.

٤ - سلطانه كالمخلص

ومع أن هذه العظة لا تتحدث أساساً عن الخلاص، كما ذكرنا مراراً، بل عن التلمذة، لكن مع ذلك فإن الرب قدم فيها طريق الخلاص؛ فهو يشرح لتلاميذه فى أصحاح٧:١٣، ١٤ طريق الخلاص والحياة.

ومن أماكن أخرى فى البشائر، نعرف أنه هو نفسه هذا الطريق الذى يؤدى إلى الحياة. ومن أصحاح٧:٢٣ نفهم أن معرفته تعطى الحياة! ومن أصحاح٧:٢٤ نفهم أن أقواله هى

الطريق للخلاص والنجاة، كما أنه يقول لتلاميذه فى التطويبات، إن الاضطهاد من أجل اسمه سيعقبه أجر عظيم فى السماوات (أصحاح٥: ١١ ، ١٢). فحقاً طوبى لكل من تعرَّف به!

٥ - سلطانه كالديان

«كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم يارب يارب، أليس باسمك تنبأنا .. فحينئذ **أصرّح** لهم **إنى** لم أعرفكم قط» (٧: ٢٢ ، ٢٣). كلمات قاطعة لا تحمل سوى معنى واحد، أن المسيح هو الديان. هم سيقولون له أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة. فحينئذ يصرّح لهم إنه لم يعرفهم قط. فليس ما سيقولونه هم له، هو الذى ستكون له الأهمية فى ذلك اليوم، بل ما يقوله هو لهم!

٦ - سلطانه كابن الله

فهو يتكلم فى هذه العظة عن الله باعتباره الآب، لكنه يقول عنه «أبى» (٧: ٢١). صحيح هو علَّم تلاميذه أيضاً أن يقولوا فى الصلاة «أبانا» (٦: ٩)، لكن أكانت هذه العبارة «أبانا» تشمله هو أيضاً؟ بمعنى: هل كانت علاقته هو مع الآب هى ذات علاقة تلاميذه مع الآب؟ حاشا، فنحن أولاً نلاحظ أن المسيح لم يصلِ مع تلاميذه قط، بل كان دائماً يصلى لأبيه على انفراد. كما أنه فيما بعد قال للمجدلية «إنى أصعد إلى أبى وأبيكم»، ولم يَقُل لها إنى أصعد إلى أبينا. لذلك نقرأ بعد ذلك فى إنجيل متى قوله له المجد «كل شيء قد دُفع إلىَّ من **أبى**، وليس أحد **يعرف الابن إلا الآب**» (مت١١: ٢٧). إن بنوة المسيح للآب هى بنوة أزلية وليست بنوة حادثة فى الزمان كما هو الحال معنا.

٧ - سلطانه باعتباره الله

يقول المسيح لتلاميذه «طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين، افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم فى السماوات، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم» (٥: ١١، ١٢). والمُشابهة هنا بين تلاميذه وبين الأنبياء قديماً هى التى تشدنا. فكما تحمَّل الأنبياء قديماً الاضطهاد بسبب أمانتهم لله، هكذا أتباعه هنا سيتحملون بسبب المسيح. وأن يوضع تلاميذه هنا فى مُشابهة مع أنبياء العهد القديم، فذلك دليل على أن المسيح هو الله.

ولقد سبق لنا أن تأملنا فى أن المسيح فى هذه العظة يتكلم باعتباره الرب. فيقول ليس كل من يقول لى يارب يارب، بل الذى يخضع لربوبيتى. هذا ما فهمناه من لوقا٦:٤٦ لكن المسيح فى الأقوال المسجلة فى متى٧:٢١ يقول «بل الذى يفعل إرادة أبى الذى فى السماوات». وكأن المسيح يعتبر أن الخضوع لإرادة الآب، وطاعة شخصه هما على قدم المساواة، وهذا يجعل شخص المسيح بكل يقين معادل تماماً للآب، لأنه هو الله.

ثم إذا كنا عرفنا أن المسيح بحسب هذه العظة هو ديان الجميع، فإننا من عبرانيين١٢:٢٣ نعلم تماماً أن ديان الجميع هو الله، مما يدل على أن المسيح هو الله.

* * * *

حقاً ما أعظم شخصه. فلأجل خاطره يعظم الأجر فى السماوات (٥:١١، ١٢)، وأما شخصه فهو الديان (٧:٢٢)، أما اسمه فإنه يرعب الشياطين (٧:٢٢)، وأما أقواله فإن طاعتها تضمن النجاة الأبدية (٧:٢٤-٢٧). فما أعظم ذلك المعلم الفريد وما أعظم سلطانه!

طالما أن المسيح عظيم بهذا المقدار، وطاعته أو رفضه لهما نتائج أبدية هكذا، فما أحرانا أن نستمع له جيداً. فمادام هو المعلم العظيم، فلنسمع لتعليمه ولا نرفضه. فطوبى للإنسان الذى يسمع له (أم٨:٣٢-٣٤). ومادام هو الملك فلنطعه لأنه «حيث تكون كلمة الملك فهناك سلطان» (جا٨:٤). ومادام هو الرب فلتسمع السماوات ولتصغ الأرض لأن الرب يتكلم (إش١:٢)، ومادام هو المخلص فإلى مَنْ غيره نذهب، ذاك الذى كلام الحياة الأبدية عنده (يو٦:٦٨)، ومادام هو ابن الله وهو الديان، فلنحذر من أن نستعفى من المتكلم، لأنه إن كان أولئك لم ينجوا إذ استعفوا من المتكلم على الأرض، فبالأولى جداً لا ننجو نحن المرتدين عن الذى من السماء (عب١٢:٢٥).

نعم إننا بكل يقين نشارك الجموع فى ذلك اليوم تعجبهم من سلطان المتكلم، لكننا نتعجب أيضاً من أن الجموع اكتفت بالتعجب من أقواله فحسب. كان المفترض أنهم يأتون إليه ولا يتحولون عنه مطلقاً. لكن تمت هنا - كما فى كل أيام المسيح على الأرض كلمات إشعياء النبى «يارب مَنْ صدّق خبرنا ولمن استُعلنت ذراع الرب؟». إن المطلوب حقاً هو التوبة لا الدهشة، الإيمان القلبى لا الاقتناع العقلى (يو٢، ٣)، تسليم الحياة لا إكرام الشفاه.

فماذا بالنسبة لك أيها القارئ العزيز؟

لقد بدأ المسيح هذه العظة بتطويب المساكين، وختمها بإعلان الخراب والدمار للمرائين. ففي أولها قال «طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات» (٥:٣)، وختمها بنفس الوضوح قاطعاً أي أمل لدى المرائين إذ قال «ليس كل مَنْ يقول لي يارب يارب يدخل ملكوت السماوات، بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السماوات» (٧:٢١).

وأمام كلام الرب الصريح والقاطع، دعني أسألك مرة أخرى أيها القارئ العزيز بكل المحبة: من أي الفريقين أنت؟ فريق المساكين أم فريق المرائين؟

ولقد تكلم المسيح في هذه العظة كلاماً واضحاً عن السماء وعن الأجر العظيم في السماوات (٥:١٢)، وعن الكنز الذي لا يفسد ولا يضيع في السماء (٦:٢٠). كما تكلم عن السجن الذي لا مخرج منه (٥:٢٥، ٢٦)، وعن جهنم النار التي سيُطرح فيها الأشرار (٥:٢٩، ٣٠). نعم لقد تكلم المسيح عن الحياة والهلاك (٧:١٣، ١٤). ومرة ثالثة عزيزي القارئ دعني أسألك: إلى أين ينتهي سفرك؟ هل بأفراح السماء وترنيماتها التي لا تنتهي، أم بأحزان جهنم وصرخاتها التي هي بلا نهاية أيضاً.

ليتك تُسرع لتأخذ من الرحمة حصة ..

مراجع الاقتباسات

المقدمة

(1) Samuel Ridout; From Genesis to Revelation; p.120.

(2) J. G. Bellet, The Evangelists, p. 348.

القسم الأول

(3) John R. W. Stott, The Message of the Sermon on the Mount; p.56.

(4) Quoted by William Mac Donald, in Believer's Bible Commentary (New Testament)' p.32.

(5) Quoted By John Mac Arthur, in New Testament Commentary, Matthew 1-7, p.147.

(6) D. Martyn Lloyd Jones, Studies in the Sermon on Mountain, vol I; p.69.

(7)Ibid; p.76

(8) Quoted by D. Martyn Lloyd Jones, in Studies in the Sermon on Mountain; p.81.

(9) William Barclay, The Gospel of Matthew, vol I; p.146,147.

(10) John R. W. Stott, The Message of the Sermon on the Mountain; p.55

(11) D. Martyn Lloyd Jones, Studies in the Sermon on the Mountain, vol I; p.135

(12) Quoted by Hamelton Smith, in Joseph, Revealer of Secrets, Saviour of the World; p.32.

(13) John R. W. Stott, The Message of the Sermon on the Mount; p.52.

القسم الثانى

(14) Frank S. Mead, 12000 Religious Quotations; p.63.

القسم الثالث

(15) C. S. Lewis, God in the Dock; p.182.

(16) Alexander Hislop, The Two Babylons; pp167-169.

(17) Arend Remmers, Die Bergpredigt; p.77,78.
(18) Matthew Henry's Commentary (in one volume); p.1224.
(19) William Kelly, Lectures on the Gospel of Matthew; p.137,138.
(20) Martin Luther, The Sermon on the Mount, p.83.
(21) John R. W. Stott, The Message of the Sermon on the Mountain; p.112.
(22) Ibid; p.117.
(23) Alfred Plummer, An Exegetical Commentary on the Gospel According to St. Matthew; p.89.

القسم الرابع

(24) J. C. Ryle, Expository Thoughts on the Gospels (Matthew & Mark); p.49.
(25) J. Mac Arthur, New Testament Commentary, Matthew 1-7; p.355.
(26) A. B. Bruce, Commentary on the Synoptic Gospels; p.116.
(27) D. Martyn Lloyd Jones, Studies in the Sermon on Mountain, vol II; p.20.
(28) The Mackintosh Treasury (Loizeaux Brothers), 3rd edition, 1987; p.455.
(29) Arthur W. Pink, An Exposition of the Sermon on the Mount; p.174.

القسم الخامس

(30) G. Campbell Morgan, The Gospel According to Matthew, p. 64,65.

القسم السادس

(31) C. H. Spurgeon, The Gospel of the Kingdom; p.39.
(32) H. A. Ironside, Expository Notes on the Gospel of Matthew; p.44.
(33) Martin Luther, The Sermon on the Mount; p.234.
(34) Alec Mortyer, Studies in the Epistle of James; p.88.
(35) Quoted by John John R. W. Stott, in The Message of the Sermon on the Mount; p.190.

القسم السابع

(36) John Mac Arthur; New Testament Commentary, Matthew 1-7; p.480.
(37) Quoted by John John R. W. Stott, in The Message of the Sermon on the Mount; p.194.
(38) Quoted by Arthur W. Pink, in An Exposition of the Sermon on the Mount; p.431.

بعض إصدارات المؤلف

- وحى الكتاب المقدس — طبعة ثالثة
- الشيطان
- معجزات المسيح
- مختصر شرح سفر الرؤيا — طبعة ثالثة
- المعمودية
- ثلاث حقائق أساسية فى الإيمان المسيحى — طبعة خامسة
- المسيح الطبيب العظيم
- المسيح المنقذ العظيم
- المسيح الرفيق العظيم
- المسيح المتألم
- شهود يهوه
- أجراس النعمة
- رحلة الكنيسة
- الصلاة النموذجية
- عودة الهارب
- فى مجمع الناصرة

تحت الطبع

مواسم الرب السبعة

الملك الألفى

مطبعة الإخوة بجزيرة بدران

رقم الإيداع : ٩٩/١٥٥١

الترقيم الدولى : *ISBN 977-5060-94-X*

يطلب من : **مكتبة الإخوة**

٣ش أنجه هانم - شبرا - مصر

هذه العظة

- هذه العظة لا تشرح طريق الخاطئ إلى السماء؛ بل طريق السماء إلى المؤمن، هي لا تقدم النعمة الموجهة للخطاة، ولا الإنجيل للهالكين؛ لكنها تقدم كلام الملك إلى رعاياه. إنها عظة الأخلاق المسيحية. إنها اللائحة الداخلية لتلاميذ المدرسة التي يقوم فيها المسيح نفسه بالتدريس لكل من أتى إليه بالتوبة والإيمان.

- ما أروع مجتمعاً تحكمه مبادئ موعظة الجبل! وفي الواقع كم ستلمع حياتنا، وكم سيملأ النور والترنم بيوتنا، وكم ستكون شهادتنا مؤثرة في العالم من حولنا لو أننا طبقنا تلك المبادئ السامية الراقية وترجمناها إلى حياة عملية.

- بهتت الجموع من كلام المسيح. ونحن إن كنا نشارك الجموع تعجبهم، لكننا نتعجب أيضاً من أن الجموع اكتفت بالتعجب. كان المفترض أنهم يأتون إليه ولا يتحولون عنه مطلقاً. فالمطلوب حقاً هو التوبة لا الدهشة، الإيمان القلبي لا الاقتناع العقلي، تسليم الحياة لا إكرام الشفاه.

مقتطفات من الكتاب

- لو أن كل شخص وضع نفسه في الجانب المقابل، وسأل نفسه بإخلاص: ماذا كنت أحب أن الناس يعاملونني به لو كنت في ذلك الجانب الآخر، أما كانت النزاعات كلها تنتهي؟! لا بل إني أقول: كانت ستسود الحياة الفاضلة التي تستحق أن تُدعى حقاً حياة. عندها كانت ستختفي المرارة ويعم الهناء، يذهب البخل ويأتي السخاء، تضمحل الخيانة ويسود الوفاء، وهو ما سيتم حتماً عن قريب تحت ملك رب السماء.

- كم من أشخاص لهم صوت يعقوب ويدا عيسو! وما أبعد الفارق بين اعتراف شفاههم وأفعال أيديهم. إن المسيحي الحق بحسب ما نتعلمه من هذه الموعظة لا تميزه الأعمال الخارقة، بل الأخلاق الفائقة، وليس مقياسه البشر، بل إنه يتشبه بالآب، وقدوته المسيح، ويحركه الروح القدس.

- لن ينجو في يوم الدينونة القادم إلا من بنى على المسيح. أما الآخرون الذين بنوا قصوراً على الرمال على أقوال البشر مهما كانوا، سيكتشفون أنهم هم والبشر الذين بنوا على كلامهم ساتر يحميهم من أهوال يوم الدينونة الرهيب.

صورة الغلاف: *جبل طابور الذي يرجح بعض الشراح أن المسيح ألقى عظته من فوقه.*